مصر والشام بين دولتين

جمال الدين الشيال

مصر والشام بين دولتين

تأليف
جمال الدين الشيال

هنـــداوي

مصر والشام بين دولتين

جمال الدين الشيال

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١٤٣ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

الإهداء ٩
مقدمة ١١
فرار شاور ١٣
حديث على ضفة النيل ١٩
شاور في طريقه إلى الشام ٢٧
في ضيافة نور الدين ٣٥
عودة شاور ٤١
في معسكر أسد الدين ٤٥
الصلح ٥١
عبد الرحمن يُحذِّر ٥٧
بين شاور وأبي الحسن ٦٣
في حضرة الخليفة ٦٧
نضال ٧١
مري يعود ٧٥
فاطمة ٨١
الخليفة يستنجد بنور الدين ٨٧
حريق الفسطاط ٩٥
صلاح الدين يخرج إلى مصر كارهًا ٩٩
القلب الذهبي ١٠٣
شاور يمكر مكرًا ١٠٩

قتل شاور ١١٣
الوزير أسد الدين ١١٩
القاضي الفاضل ١٢٥
أبو الحسن يعود إلى وَكرِه بعد طول الجهاد ١٣١
المؤامرة الأولى ١٣٩
نجم الدين أيوب في مصر ١٤٣
نهاية دولة ١٤٧
ريحانة تستغيث بفاطمة ١٥٣
المؤامرة الثانية ١٦١
دموع الفرح ١٦٧

قصة تاريخية تصف الأحداث في القطرين الشقيقين بين سنتي ٥٥٨، ٥٦٩
إبان انحلال الدولة الفاطمية وقيام دولة بني أيوب.

الإهداء

إلى أخي وصديقي الكريم
الأستاذ محمد خلف الله
أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

أخي خلف الله

كان لي أخوان شقيقان هما المرحومان الأستاذان حامد ومحمد عبد الرحيم، وكانا يكبراني سنًّا.

وعلِم الله لقد كانا في الشباب مثالين عاليين؛ أخلاق نبيلة كريمة، ووطنية مُخلِصة صادقة، وإيمان بالله عميق وثيق، ونفس طاهرة صافية.

ولقد نعمتُ بأخوتهما زمانًا كنت فيه طفلًا وصبيًّا ويافعًا، فكانا لي القدوة الطيبة، والأستاذين الجليلين، فقبستُ من شمائلهما ما زلت أعتدُّ به حتى اليوم؛ ثم تخيَّرهما الله لجواره خيرَ ما يكونان أملًا باسمًا مُبشِّرًا، وأشدَّ ما أكون حاجة إلى أخوتهما وعونهما؛ وبقيتُ وحدي أنشُد الأخ في الحياة فلا أجده، وأكتم الألم على فقدهما في أعماق نفسي، وأبكيهما بقلبي ووجداني، وذخيرتي الوحيدة التي أستضيء بها هي ذكرى هذه الأخوة الحبيبة — وكأنها حُلم جميل — أتلمَّسها كلما ادلهمَّت بي الخطوب واحتجتُ إلى الأخ المُعين.

ثم نُقلتُ إلى الإسكندرية، وتعرَّفت إليك أيها الأخ النبيل فعرفتُ فيك صورة من أخوَي الراحلين، ووجدت من عواطفك الرقيقة وخُلقك الإنساني وعطفك عليَّ عوضًا طيبًا عما فقدت بفقد أخوَي.

وأنت تعلم أيها الأخ الكريم أن خير ما أعتدُّ به هو جهدي الفكري وإنتاجي القلمي، وقد كنت عزَمت — عندما انتهيت من كتابة هذه القصة منذ سنوات — على إهدائها إلى روحَي أخوَي الشقيقين الراحلين، ولكنني رأيت — بعد أن قدَّمتها للمطبعة — أن أتقدم بإهدائها إليك أيها الأخ الكريم، لا نسيانًا لذكراهما العزيزة، ولكن توكيدًا لهذه الذكرى، ووفاءً لبعض ما أسديتَ إليَّ من جميل، وقد كان الوفاء من خير ما علَّماني من مُثل، رحمهما الله وحفظك من كل سوء، وأدام لي أخوتك.

جمال الدين الشيال

مقدمة

الحمد لله المُوفِّق لكل عمل صالح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء؛ أما بعد، فهذه قصة تاريخية حاولتُ أن أعرض في فصولها ما جرى في مصر والشام من أحداث في الفترة بين سنتَي ٥٥٨ و٥٦٩هـ، وقد انتهت هذه الأحداث بالقضاء على دولة مَجيدة — ظلَّت تحكم القُطرَين الشقيقين مُستقِلة مُدة قرنين من الزمان، وهي الدولة الفاطمية — وقيام دولة جديدة مَجيدة أيضًا هي دولة بني أيوب.

وأنا بهذه المُحاوَلة أُحقِّق رغبة خاصة كانت ولا تزال تتردَّد في نفسي كلما جلست إلى مَراجع تاريخنا القديمة بأسانيدها وأساليبها وخطوطها المُتعثِّرة الباهتة — إن كانت مخطوطة — وورقها الأصفر وطبعاتها الكليلة — إن كانت مطبوعة — كنت إذا خلوت إلى هذه الكتب القيِّمة دمغتْني صُوَر الماضي الجميلة إليها فعشت في تلك العصور الغابرة المَليئة بصفحات المَجد وتجارب الإنسان، وصُوَر البطولة وعِبر الزمان؛ فإذا جلست إلى تلاميذي أُحدِّثهم عن هذا التاريخ، وأروي لهم أحداثه، وأُغريهم بقراءة مَراجعه، وجدت منهم صدودًا عنها، وصدوفًا عن السعي إليها، والاستمتاع بقراءتها، واستخلاص الحقيقة من بين ثناياها.

لهذا كنت أُعلِّل النفس بالآمال؛ إن هذا التاريخ لو استُخلص من هذه المخطوطات، ونفضْنا عنه ما يتعلَّق به من أسانيد واستطرادات وعرضناه على شبابنا عرضًا قصصيًّا جذابًا، إذن لوَجد طريقه إلى نفوسهم سهلة ميسورة، وإذن لأثَّر فيهم أثرًا طيبًا فأحيا هِممهم، وشحَذ عزائمهم، وزوَّدهم بتجارب غالية ثمينة، تُفيدهم الفائدة كلها وهم يضطربون في هذا العصر القلِق يبنون لأنفسهم وللعرب أُسُس النهضة الجديدة والمَجد الجديد.

وهذه القصة هي المُحاوَلة الأولى لتحقيق هذه الرغبة التي كانت تضطرم في نفسي — ولعلها تضطرم في نفوس الكثيرين غيري — أرجو أن أكون قد وُفِّقت فيها بعض التوفيق، وإلا فالخير أردتُ، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكَّلت، وإليه أُنيب.

جمال الدين الشيال
الإسكندرية ٧ جمادى الآخرة ١٣٦٦ / ٢٨ إبريل سنة ١٩٤٧

فرار شاور

استيقظت القاهرة نشيطة صباح يوم الجمعة الأول من شهر رمضان سنة ٥٥٨، ولبِس أهلوها أجمل ما لديهم من حُلَل، ووفد عليهم سكان الفسطاط ليشتركوا وإياهم في الاحتفال بمَوكِب الخليفة، وفُتحت الدكاكين وجلس التجار يُرحِّبون بأصدقائهم الذين أتَوا ليجدُوا لهم مكانًا على الأرائك المُمتدة أمام هذه الدكاكين حتى يستطيعوا رؤية المَوكِب في يُسر وسهولة، وانتشر العامة على جانبَي الطُّرق ينتظرون، وانبثَّ الباعة يحملون اللُّعب والحلوى والفواكه على رءوسهم وعلى عربات مُزيَّنة بالأعلام يجرُّونها، يفتنُّون في عرض بضاعتهم والدعوة لها، وهم يُنادون عليها بأصوات عذبة وألحان جميلة، ويستعينون على ذلك بالطبل والدُّف والمِزمار.

فلما كان الضحى خرج الخليفة العاضد من القصر الكبير مُمتطيًا صهوة جواده، وعلى رأسه التاج الشريف تبرُق جواهره ولآلئه، والدُّرة اليتيمة على جبهته، وقد تقلَّد بسيف عربي مُرصَّع بالأحجار الكريمة، وقضيب المُلك في يده؛ وكان الجواد لا يقِل زينة عن راكبه، عليه سَرج مُوشًّى بالذهب والفضة مُرصَّع بالجواهر، وفي عنقه طوقٌ من الذهب وقلائد من عنبر، وفي أرجله خلاخل الذهب والفضة، وهو يتهادى في مِشيته مُعتزًّا بمن يركبه، فخورًا بما يُغطِّيه من زينة وزخرف.

وسار الخليفة وعلى يساره صاحب المِظَلَة وهو يحرص ألا يزول ظلها من أمير المؤمنين، وعن يمينه ويساره ألف رجل من الركابية مُقلَّدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح، وكان يتقدَّم الموكبَ أجنادُ الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر يتبَعهم أرباب القُضُب الفضة من الأمراء، ثم أرباب الأطواق منهم، ثم الحاملان لِلواءَي الحمد، ثم حامل الدواة وبعده حامل السيف، ويلي هؤلاء جميعًا الخليفة بين الركابية يسير على

تُؤدة ورفق، وفي مُقدِّمة العسكر والي القاهرة يذهب ويعود ليُفسِح الطريق، وفي الوسط القائد العام للجيش يحُث الأجناد على الحركة ويزجر المُتزاحِمين والمُعترِضين، وبالقرب من الخليفة ضرغام صاحب الباب ذاهبًا وعائدًا يحرس الطُّرقات، وخلف الخليفة جماعة من الركابية لحفظ أعقابه، يليهم عشرة يحملون عشرة سيوف في خرائط من الديباج الأحمر والأصفر، ووراءهم الوزير شاور في أُبَّهة المُلك وجلاله، وفي ركابه خمسمائة رجل من خيرة أصحابه وقوم من أقوياء الأجناد، وخلفه الطبول والصنوج والصفافير تُرسِل الألحان شجيةً مُتصِلة قوية تُدوِّي من أصواتها الدنيا، ويتبَعهم رجال الأساطيل مُشاةً يحملون القِسيَّ العربية، وبقية فِرق الجيش ورجالٌ تباينتْ أَردِيَتهم واختلفت أسلحتهم فيهم المَغاربة والأتراك والأكراد والديلم والمصريون.

وسار الموكب في الميدان بين القصرين، وخرج من باب النصر ثم انعطف يسارًا طالبًا باب الفتوح فدخل منه، فلما وصَل الخليفة الجامع الأقمر وقف هناك في جماعته، وانفرج الموكب للوزير فتحرَّك مُسرِعًا حتى وقف أمام الخليفة فأشار بالسلام عليه إشارة خفيفة، ثم أسرع الوزير حتى سبق الخليفة إلى باب القصر فترجَّل ووقف ومعه الأمراء ينتظرون الخليفة، فلما وصَل دخل القصر راكبًا، وعاد الوزير فركِب جواده والأمراء بين يديه يخدمونه حتى وصل إلى دار الوزارة.

وصعد شاور إلى غرفته وهو يختال في حُلته المُوشَّاة بالذهب المُحلَّاة بالجوهر، وجلس هناك على أريكة يستريح مما عاناه من تعب وجهد في إعداد الموكب والسير فيه، وكانت علائم السرور والغِبطة واضحة على مُحيَّاه؛ فقد كان يعتقد بعد أن وصل إلى مَنصب الوزارة أن الحظ قد بسَم له، وأن الأيام قد صفتْ من كل ما يُكدِّر، فحذا حذوَ سلفه من الوزراء السابقين وجمع السلطة كلها في يديه، ولم يدعْ لخليفته العاضد — وهو طفل في العاشرة من عمره — من الأمر شيئًا، ولم يُلقِ بالًا إلى الشعب أو صالحه.

وترك الأريكة بعد لحظات، ووقف ينظر من نافذة الغرفة فرأى سكان الفسطاط والقاهرة في حُلَلهم البسيطة الجديدة الجميلة الفاقعة الألوان يعودون بعد رؤية الموكب جماعاتٍ جماعات يتعلَّق بأذيالهم أطفالهم يحملون الحلوى واللُّعب.

ونظر أيضًا فرأى قصور القاهرة مُتناثِرة تحوط بها الحدائق الغنَّاء، ومن خارج السور النيل يجري في لون اللُّجَين والعَسجَد تحت أشعة الشمس المُشرِقة، وعلى ضفتَي النيل حقوق مُمتدة يُغطِّيها بساط من سندس يُعجِب الناظرين.

ونظر إلى نفسه فرأى أنه هو الحاكم بأمره في هذا البلد وأهله فانتفختْ أوداجه وأحَس قوة السلطان تسري في عروقه، وكأنه كان يقول كما قال فرعون من قبل: «أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي».

وبيْنا هو يسبح مع خياله ناعمًا إذ بالباب يُطرَق ثم يُفتَح، ودخل ابنه طي غاضبًا، فحيَّا وجلس ثم ابتدر أباه، فقال: يا أبت، أنت غافل، وهذا صاحب الباب ضرغام يُفسِد أمرك، وقد شرع يُمهِّد الأمور لإعادة رزيك، واستحلف له جماعة من الأمراء.

فلم يُصدِّق شاور مقالة ابنه، ولكنه أراد أن يُجاريه في ظنه ورأيه، فقال: وماذا ترى؟

– ماذا أرى؟! ليس هناك إلا حل واحد.

– وما هو؟

– أن تقتل رزيك.

– أهذا رأيك؟! لا يا بُني، ليس هذا من الوفاء في شيء، ألا تعلم أن أبا رزيك — الصالح طلائع — هو صاحب الفضل على أبيك؟! أليس هو الذي قرَّبني إليه، ثم ولَّاني قوص فكنت صاحب الأمر في الصعيد الأعلى كله؟ ثم أليس هو الذي أوصى ابنه هذا قُبيل موته أن يُبقي عليَّ ولايتي وقال له: «لا تُزلزِل شاور من ولايته».

ثم تولَّى ابنه رزيك الوزارة بعد موته فدِنتُ له بالولاء، ومددتُ له حبل الود، ولكنه لم يعمل بوصية أبيه، فثارت بيننا أسباب النزاع، وكان لا بد أن يتغلَّب واحد منا على الآخر، وقد وفَّقني الله وغدَوت وزيرًا، وكنت أستطيع أن أقتله يومذاك، ولكنني أبقَيت على حياته اعترافًا بجميل أبيه، واكتفَيت بسجنه، فما الذي جدَّ حتى أُغيِّر رأيي فأغدر بهذا الشاب؟ قد يكون حقًّا ما تقول أن ضرغامًا يسعى هذا السعي، ولكن ما ذنب رزيك وهو حبيس جدران السجن وليس له من الأمر شيء؟!

– أنا أعلم هذا كله يا أبت، ولكن ضرغامًا أيضًا من صنائع الصالح طلائع، وهو يجمع الأمراء حوله باسم الوفاء لَمولاه وابن مَولاه.

– لا تخشَ شيئًا يا بُني واترك هذا الأمر لي.

فهز طي رأسه غير مُقتنِع بهذا الحل ثم قال: الأمر أمرك يا أبت، ولكنني أدَّيت واجبي.

ثم استأذن وخرج مُغضَبًا مُحنَقًا، وأخذ يُدير الأمر في رأسه ويُفكِّر ويُعيد التفكير، فقد كانت تدفعه حماسة الشباب وطعم السلطان الذي ذاقه فاستساغه، وراح يستعيد حديث ذلك الأمير الذي نقل إليه خبر المَكيدة، وحديث أبيه فلمْ يقتنع بهذه الإجابات المُعلَّقة، وأخذ يُؤنِّب نفسه ويلومها: «لِمَ لمْ تذهب يا طي فتقتل هذا الشاب السجين قبل أن تُخبِر أباك؟!»

فترُد نفسه الجامحة وتقول: «وماذا حدث؟ إن الوقت لم يفُتْ، فلتُنفِّذ هذ الرغبة الآن، وسيجد أبوك نفسه أمام الأمر الواقع فيرضاه ولا يُطيق أن يفعل شيئًا» وهنا ضرب الأرض بقدَمه في ضجر وقال: «لا يُقهَر إلا المُتردِّد» ثم ألقى بنظره على السيوف المُعلَّقة على حائط غرفته في نظام أنيق جميل، واختار من بينها سيفًا قاطعًا شدَّه إلى وسطه وخرج يقصد إلى السجن.

وكانت علائم الجِد والصرامة تبدو على مُحيَّاه كما كانت عيناه تنطقان بالشر، ففتح له السجَّان الباب عند تلقِّي أول إشارة منه، ووقف بعيدًا اتِّباعًا لأمره، ولكنه كان يسمع جدالًا عنيفًا داخل السجن ثم نضالًا قويًّا تلتْه صرخة عالية وصوت رزيك وهو يقول: «قتلتَني قتلك الله».

وعلِم شاور بمَصرع رزيك فحزِن وتألَّم، وثار على ولده ثورة عنيفة وأنَّبه على فعلته تأنيبًا شديدًا، ولكن الأمر كان قد خرج من يده فراح يُفكِّر في حمق ابنه وطيشه، وكيف قاده إلى هذه الفعلة النكراء وقدَّر أن صنائع رزيك وأبيه في الجيش لا بد وأن يثوروا؛ وقد تحقَّق ظنه فعلًا فإن ضرغامًا لم يكَد يصِله الخبر حتى أسرع إلى رفاقه الذين عاهدوه على نصرة رزيك، وأخذ يُثير شعورهم ضد شاور وأولاده، ويستنهض هِممهم للقيام والثأر لرزيك؛ فلبَّوا نداءه، وتواعدوا على اللقاء في الميدان بين القصرين، وأرقلوا إرقالًا حتى لا يُحِس شاور بحركتهم فيستعد لها.

وفي اليوم التالي — عند الظهيرة — بيْنا شاور في دار الوزارة قد أبعد عنه رجاله وكُتابه، وجلس مُستلقيًا على أريكته جِلسة المُستجِم من عناء العمل والتفكير، يستعيد في مُخيِّلته صُوَر النضال الأخير، ومَصرع رزيك، ويُدبِّر في نفسه ما عساه يتَّخذه ضد ضرغام والأمراء إذا ثاروا، وبيْنا هو في هذا التفكير والتدبير إذا به يسمع جلبة وضوضاء وقعقعة سلاح بدَت ضعيفة بعيدة أول الأمر، ثم أخذت في الوضوح شيئًا فشيئًا، فأحَس كأن يدًا قوية قد قبضت على قلبه فاهتصرته، وارتاع — وهو الرجل الجَلد — وأسرع إلى نافذة غرفته فرأى فِرق الجند والأمراء، وقد سدَّت الطريق من أوله، وهي تُسرِع نحو دار الوزارة تُزمجِر وتُهدِّد وتتوعَّد، وكانت الأصوات تلعن شاور، وأبناء شاور، ورجال شاور.

أُخذ الرجل على غِرة فحار كيف يفعل، ثم أسرع فارتدى قباءه الذي خلعه، ووضع خوذته على رأسه وامتشق حسامه، وفي قفزات قليلة كان يتوسَّط فناء الدار ويُصدِر أوامره الشديدة بصوت كالرعد إلى حرس الدار وجنودها أن يُوصِدوا الأبواب ويقِفوا خلفها يمنعون

الجند المُهاجِمين؛ وقاد هو فرقة من الفرسان وخرج إلى الميدان حيث ناضل نضال الأبطال، وكافح كفاح المُستميت، ولكنه سرعان ما أدرك أن المُقاوَمة غير مُجدية، فتقهقر قليلًا قليلًا إلى أحد أبواب الدار الخلفية، وانسلَّ إلى غرفته، واتَّجه إلى صورة جميلة تُغطِّي جانبًا من الحائط، رُسمت عليها بركة مائية في وسطها مقصورة مُزيَّنة بالتماثيل، وجلس داخلها فتًى جميل يستمع إلى مُغنِّية بيدها العود وحولها الراقصات والأشجار الفارعة والنخيل الباسق على شواطئ البركة، والطيور ذات الريش الجميل تتنقَّل على الأفنان والأغصان.

نظر شاور إلى الصورة مَليًّا، ثم نزع المَسامير الأربعة المُذهَّبة التي تُثبِّت إطار الصورة الخشبي في الحائط، ورفع اللوح الخشبي المُصوَّر إلى أعلى فظهرت خلفه رفوف مُمتدة داخل الحائط، فمدَّ يديه في سرعة إلى صِرار المال يُخرِجها ودسَّها بين ثنايا ثَوبه وطياته، وأعاد الصورة إلى مكانها، وأسرع ثانية إلى الباب الخلفي فنادى ثلاثة من خُلَّص جنوده الأوفياء، وامتطى الجميع صهوات جيادهم ووقفوا على استعداد، ثم أمر بقية الجند بفتح الأبواب كي يدخل أعوان ضرغام، فلما اطمأن إلى وجودهم جميعًا في القصر يجوسون خلال غُرفه بحثًا عنه أطلق هو وصحبه الأعِنة لخَيلهم، وأسرعوا يلوذون بأذيال الفرار.

حديث على ضفة النيل

انتهت صلاة المغرب في مسجد عمرو وجلس الفقيه زين الدين ابن نجا مُطأطِئًا رأسه مُسبِلًا عينيه يستغفر ربه، ويقرأ بعض الأدعيات الخاصة التي اعتاد أن يتلوها عقب كل صلاة، وما إن انتهى من تلاوته حتى رفع يديه ووجهه إلى السماء يُكمِل الدعاء في صوت خفيض ولكنه صادر عن قلب قوي عامر بالإيمان، وانتهى من الدعاء، ومسح وجهه بيديه، ومال إلى يمينه فأخذ خُفَّيه في يده وقام يُريد الخروج، فقد كان الجو حارًّا في ذلك اليوم والهواء ساكنًا لا يكاد يتحرَّك، وسار الفقيه يقصد باب المسجد، فإذا به يلمح صديقه الشيخ أبا الحسن جالسًا قُرب الباب ساهمًا تبدو عليه علائم التفكير العميق فابتدره بتحية المَشوق قائلًا: مرحبًا يا أبا الحسن.

فهمَّ أبو الحسن واقفًا في حركة سريعة، وقد ذُعر لهذه التحية المُفاجِئة التي قطعت عليه حبل تفكيره، وقال: مرحبًا بك أنت أيها الفقيه الجليل وأهلًا وسهلًا.

ثم سأل الفقيه: أين كنت يا أبا الحسن فإني تلفَّت أبحث عنك بين المُستمِعين لدرسي عصر هذا اليوم فلمْ أجدك فشُغلت عليك، وساءلت نفسي، تُرى أي سبب أخَّرك هذه المرة عن واجبك الذي لم تنسَه منذ مدة طويلة، وخاصة أن حَر اليوم كان قائظًا لافحًا، وقد افتقدك مُستمِعو الدرس وكنت أسمعهم يتهامسون: أين أبو الحسن؟ أين أبو الحسن يروي عطشنا في هذا الحَر بمائه العذب، وقد عطَّره وجمَّل طعمه بماء الزهر اللطيف؟ ثم سكت هُنَيهة واستأنف حديثه وضحك مُلاطِفًا الشيخ بقوله: والحق أنني أنا أيضًا اشتقت لكوب من مائك بعد أن غِبت عنك وعنه أسبوعين كاملين.

– إني لآسِف جِد الأسف يا مولاي إذ لم أعلم بخبر عودتك، وإلا لسارعتُ بالحضور لأستمع إلى درسك القيِّم؛ فإني أعلم أنه قد فاتني خير كثير بغيابي اليوم، ولكنني كنت مشغولًا بضيف مريض، بل جريح.

– لا زلتَ سبَّاقًا للمَكرمات يا أبا الحسن، ولكن ما لنا نقِف ها هنا والجو خانق؟

ثم أخرج منديلًا من جيبه ومسح به عَرقه الناضح على وجهه، وقال لرفيقه: هيَّا بنا نخرج فنسير على شاطئ النيل حتى يحين وقت العشاء لعلنا نظفر بنسمات مُتبرِّدة نوعًا تُخفِّف عنا بعض ما نُحِس من هذا الضيق، ثم إني أُريد أن أستمع إلى ما تعرف عن أخبار مصر والقاهرة مُدة غيابي.

ووضع كل من الرجُلَين خُفَّيه في قدميه، وسارا صامتَين بعيدًا عن المسجد يُيمِّمان وجهَيهما شطرَ النيل، وكانا كُلَّما اقتربا منه أحسَّا نسمات خفيفة تهُب على وجهَيهما حتى وصلا الشاطئ وسارا بمُحاذاته قليلًا فزاد هبوب النسيم، ولطف الجو كثيرًا، وأحسَّا بعض الهدوء في رأسَيهما ونفْسَيهما، واستمَرَّا في السير صامتَين حتى وصلا شجرة جميز عاتية كثيرة الغصون، وقد مُهِّدت الأرض تحت فروعها وسُوِّرت بسور قصير من الطين، وفُرشت حصيرًا باليًا، وفي أحد جوانبها قُلَل كثيرة أُعِدت ليشرب منها المارة إذا عطشوا، فقال الفقيه: أظن أن هذا المكان هو خير ما نطلب في هذه الساعة يا أبا الحسن فلنسترِح هنا قليلًا حيث نستقبل نسمات الليل الباردة ونُمتِّع أنظارنا بهذا النيل الجميل، وهنا أيضًا نستطيع أن نتحدَّث كيف نشاء ونحن مُنفرِدان فإن أرباب الفلك مشغولون الآن مع أهل الفسطاط الفارين من حَر المدينة إلى فلكهم يتنزَّهون فيها، وأحسبهم لا يعودون إلا بعد ساعات.

– إنهم مشغولون حقًّا، ولكنهم سوف لا يتأخَّرون عن مَوعِد العشاء؛ لأن الناس لا يجرءون كثيرًا على الخروج في هذه الأيام المُضطرِبة العصيبة، فهم يُفضِّلون الحَر في مَنازلهم على النزهة والتعرُّض لحوادث الجند وقتالهم.

– أجل ذكَّرتَني يا أبا الحسن وكنتُ نسيت، حدِّثني الآن كيف انقضت هذه الأيام بحوادثها الغريبة، فقد كنتَ شاهدًا لها، وقبل أن أنسى مرة ثانية: من يكون هذا الضيف الجريح الذي شغَلك اليوم عنا؟

– إنه شابٌّ تعرفه يا سيدنا، فقد كان يحضر دروسك دائمًا، إنه عبد الرحمن القوصي.

– عبد الرحمن؟! هذا الشاب النابه الذكي، لقد آلَمني هذا الخبر يا أبا الحسن، ومن الذي جرَحه وأنا أعلم أنه قليل الاختلاط بالناس مشغول طولَ يومه بالكتاب والدرس؟!

– أجل إنه لكَما تعرف، ولكنه القضاء والقدر، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «المُؤمِن مُصاب»؛ كنتُ في المسجد كالعادة أصيلَ اليوم التالي لسَفر سيدنا الفقيه إلى الإسكندرية، فإذا بعبد الرحمن يأتي ويطلب إليَّ أن أصحبه إلى القاهرة لأدُله على قصر الأمير شمس الخلافة، فقد أرسل إليه بعد أن علِم بجمال خطه لينسج له بعض الكتب،

وعبد الرحمن قد لزم الفسطاط منذ وفَد إليها من بلدته قوص فهو يُقسِّم وقته بين المسجد والبيت، ولم يكُن قد ذهب إلى القاهرة من قبل فقبلتُ دعوته وذهبنا سويًّا، وقابل الأمير، وصحِب الكُتب. وبينا نحن في طريقنا ولم نكَد نبعد عن القصر إلا مسافة قصيرة إذ سمعْنا ضجة عالية، وأصوات الخيل والأبواق والجند تملأ الأسماع والجو حوْلنا، وفي لحظات ألفَينا الطريق الذي نسير فيه قد سُدَّت مَسالكه من الناحيتَين بالجند مُشاةً وعلى خيولهم، ولم يكُن لنا سبيل إلى الفرار فأسندْنا ظهرَينا إلى الحائط خلفنا وبقِينا في ذُعْر نُشاهِد القتال بين جند شاور وأنصار ضرغام، ولبثْنا على هذه الحال مُدة والرعب يملأ أفئدتنا، وكادت الخيل في فورتها وقفزاتها أن تُصيبنا أكثر من مرة حتى انتهت المعركة بانتصار ضرغام، وفرار جند شاور؛ فمرَّ ضرغام على جُثَث القتلى لا يعبأ بشيء، وقد رفع رأسه وشمَخ بأنفه، واتجه إلى القصر ودخله، وهنا لم أشَأ أن ألبث كثيرًا فأمسكت بيد عبد الرحمن وجرَينا نُريد النجاة بأنفسنا ونحن نُحاذِر بخطواتنا ننقلها بين جُثَث القتلى، ولكننا لم نكَد نتوسَّط الطريق حتى رأينا فارسًا يعدو بأقصى ما يستطيع من القوة والسرعة، وخلفه ثلاثة آخرون فارتبكنا وحِرْنا في أمرنا: أنُسرِع فنجتاز المسافة الباقية من الطريق أم نعود إلى مكاننا حتى يمُر هؤلاء الفرسان؟

وبينما نحن في حَيرتنا التي لم تطُل إذ بالفرسان على قيد خطوة أو اثنتين منا فقفزت أنا إلى الأمام، وتخطَّاني الفارس الأول، ولكن المسكين عبد الرحمن عثَر في قفزته بجُثة حصان فسقط، وداسه الفرسان الثلاثة وهم في سرعتهم لا يلوون عليَّ ولا يهتمون بإنسان، وقد أصابت حوافر الخيل رأس الشاب المسكين وكتفه بجراح خطرة، وغاب عن صوابه؛ فحملتُه وسرتُ قليلًا إلى مكان آمن حتى مرَّ بنا رجل ومعه حمار فأركبت عبد الرحمن فوق الحمار وأمسكت به أنا والرجل إلى أن وصلت داري وهو عندي أُعنى به وبجروحه إلى أن تحسَّن قليلًا والحمد لله.

– له الله ذلك الشاب، إن من واجبنا أن نعوده، وسأمُر عليك غدًا إن شاء الله لزيارته، ولكن من يكون ذلك الفارس؟

– لقد لمحتُه وعرفته رغم سرعته الشديدة، ورغم وجود الخوذة التي تُغطِّي مُعظَم وجهه، إنه شاور بأنفه الطويل وعينَيه السوداوَين.

لم يندهش الفقيه عند سماعه هذا الخبر، ولكنه أطرق صامتًا لحظة ثم قال: لقد أفسد هؤلاء الرجال الدولة يا أبا الحسن فهم يتنازعون السُّلطة والجاه، ولا يُعنَون البتة بمستقبل مصر ومستقبل الإسلام، أنا لا يكاد يقتلني إلا أن هذا الخصام يحدث والفرنج

على الحدود يزدادون كل يوم قوة ومُلكًا، وأنا لا أحسبهم يطمئنون أو يقِر لهم قرار حتى يمتلكوا هذه الديار؛ فكان أولى برجال الدولة أن يتكاتفوا ويتعاونوا لصدِّ هذا العدو إذا تحرَّك.

فضحك أبو الحسن وقال: يتكاتفون؟! إنهم كالكلاب يا سيدي والوزارة كالجيفة، كلهم ينبح ويُقاتِل في سبيل هذه الجيفة، والخليفة من ورائهم مغلول اليدين كالكرة يتقاذفونها بينهم.

فتنهَّد الفقيه، فقال: إن هذا الطفل يا أبا الحسن لاهٍ لا يدري، ورجال القصر ونساؤه يدسُّون الدسائس لكل من يُعارِضهم، ورجال الجيش كما ترى تخطف الوزارة بأبصارهم، فإذا وصل أحدهم إلى دَسْتها تحكَّمت أُسرته في رقاب الشعب وأمواله، أتعلم يا أبا الحسن من الذي هزم شاور؟ ليس هو ضرغام ولا جنده، إنهم أبناؤه، أبناؤه الذين بسطوا سلطانهم على الناس في كل مكان، وتعاظَموا وتجبَّروا وتسيطروا حتى مجَّهم الناس وكرهوهم وكرهوا أباهم، وأنت تعلم أن ضرغامًا انتهز هذه الفرصة فانقضَّ على شاور وخاصة بعد أن دخل طي السجن فقتل رزيك بن الصالح طلائع، وهو رَب نعمة شاور، وهو الذي ولَّاه الصعيد أثناء وزارته فاستمال ضرغام إليه الكثيرين من أمراء الجيش وانقضَّ على غريمه فسلبه الجيفة كما تقول.

ثم سكت الفقيه لحظة واستأنف حديثه، فقال: ويُخيَّل إليَّ يا أبا الحسن أن هذه الدولة قد قاربت الفناء؛ لأن هذا النزاع الدائم بين رجالها نذير بزوالها، ولكنني رغم ما لها من أخطاء لا أُحِب لها هذا الموت الذي بدأ يدبُّ في جسمها؛ لأنها — مهما أخطأت — دولة إسلامية وأخشى أن يكون فناؤها مُمهِّدًا لقُدوم الفرنج.

فقال أبو الحسن: ولكن رجال هذه الدولة هم الذين يُمهِّدون لموتها ويُقرِّبون نهايتها؛ لقد رحَّب العاضد — لكُرهه الشديد لشاور — بضرغام فقلَّده الوزارة ولقَّبه بالملك المنصور، ولكن هذا جعل همَّه الأكبر منذ استقر وزيرًا تتبُّع أنصار شاور ورجاله، وقد سمع أن نفرًا من الأمراء عزموا على مُكاتَبة شاور بالشام وتحريضه على العودة، فاحتال عليهم حتى أحضرهم إلى دار الوزارة ليلًا وقتلهم! أجل قتل سبعين أميرًا من كبار أمراء الجيش والدولة، إن هؤلاء الوزراء كالقطط التي تأكل صغارها، إنهم يقتل بعضهم بعضًا وستبقى الدولة بعد ذلك دون رجال يُدافِعون عنها إذا دهمتْها الخطوب، نسأل الله أن يلطف بهذا البلد وأهله الذين عهِدوا بأمورهم إلى هؤلاء الحكام فانصرفوا عن الاهتمام بشئونهم إلى المُنازَعات الشخصية، ثم إنهم ... ولكن استمع يا مولاي، أليس هذا صوت المُؤذِّن؟

فقال الفقيه: نعم إنه هو. لقد سرقنا الوقت، وقد لا نستطيع إدراك الجماعة في المسجد، فهل ترى مانعًا يا أبا الحسن من الصلاة هنا في هذا المُصلَّى الصغير اللطيف؟

– أبدًا، إنه مكان جميل، ولكن لننتظرْ قليلًا فسيعود أصحاب القوارب بعد لحظات ليُؤدُّوا فريضة العشاء ها هنا كعادتهم، وسيفرحون الفرح كله إذا علموا بوجود الفقيه زين الدين بينهم، وأنه جاء ليُصلِّي في مُصلَّاهم المُتواضِعة.

وصمت الرفيقان قليلًا، وأخذا ينعمان بالمَناظر الجميلة التي تُحيط بهما، فقد كانت أمامهما حقول الروضة وقصورها ذات الحدائق الفَيحاء، والنخيل يقوم بين القصور كالحرَس اليقِظ، وكان القمر في تلك الليلة بدرًا يُرسِل ضوءه الفضي فيملأ المكان نورًا وجمالًا، وتنعكس أشعته على صفحة النيل فتبدو مياهه لامعة برَّاقة كالزئبق الرجراج، وأطلق كلٌّ منهما لفكره العنان يُكمِل بينه وبين نفسه ما انقطع من حديث، ولكلٍّ آراء وأمنيات يتمنَّى لو أُتيحت لها الفرص فتحقَّقت، فقد كانت الحوادث تتابع في مصر والشام في ذلك الحين تتابُعًا غريبًا كله مُفاجَآت ومُتناقِضات؛ كان الفرنج يملكون بلاد الساحل في الشام، وكانت أوروبا تستيقظ من سُباتها وتُعِد العُدة لإرسال النجدات لمسيحيِّي الشرق، وكان نور الدين ينفخ في بوق الجهاد كل يوم وجيوشه تنقضُّ على هؤلاء الفرنج فتُذيقهم المُر والعذاب وكانت مصر أخيرًا مَسرحًا لسلسلة من المُشاحَنات والاختلافات الداخلية بين الطامعين في الوزارة، والخلافة الفاطمية وراء هؤلاء الوزراء قد سلبها الفرنج أملاكها في الشام فانكمشت كالقوقعة داخل صَدفتها — مصر — تحتضر وتتلمس في ضعفها أية قوة خارجية تستعين بها في مِحنتها.

أما الفقيه زين الدين فكان من أهل دمشق، نشأ وتثقَّف ثقافته الأُولى بها ثم رحل إلى بغداد فوجد الخلافة العباسية ضعيفة تُعاني من سيطرة رجال الجيش الأتراك، فقال لنفسه: «تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه» وترك بغداد إلى مصر فأُعجِب بها أيَّما إعجاب وملكتْ عليه لُبَّه وعقله ونفسه، فأحبها من كل قلبه حتى عُرف بين الناس بالفقيه زين الدين المصري، ونسي ونسي الناس معه أنه دمشقي.

ولكن الفقيه درس كُتُب الفقه والتاريخ فأُفعِمت روحه بالإيمان، الإيمان بمَجد الإسلام وعِزه، واتخذ الوعظ صناعة له، وكانت دروسه كلها تموج بهذه الأفكار: مَجد الإسلام ومَجد رجاله.

وإذا كان للدولة المصرية مَذهب خاص، فقد تحاشى أن يصطدم بهذا المَذهب أو رجاله، فكان لا يذكر أبا بكر أو عمر، ولكنه كان يتحدَّث عن الرسول عليه السلام وعن

علي بن أبي طالب فيُسهِب في الحديث، وفي حياتهما مادة غزيرة لمن يُريد الحديث عن البطولة وإحياء النفوس الهامدة؛ ولإرضاء رجال الدولة — حتى يتَّقي شرهم — كان يُشيد بذِكر الأوائل من رجال الدولة الفاطمية. ولا بأس عليه في هذا، فقد كانوا رجال دولة أجِلاء شيَّدوا دولة واسعة مُترامِية الأطراف، وأقاموها على أُسُس حربية وإدارية مَتينة، وعُنوا بصالح أهل مصر ورفاهيتهم، فشارَكوهم في أعيادهم وأضفَوا عليها من بذخهم وثرائهم الشيء الكثير، ومدُّوا للفقراء المَوائد في كل مُناسَبة، وأضافوا العلماء الوافدين، وشجَّعوا المُقيمين؛ فنعِم الشعب في عهدهم وترك لهم شئون مَذهبهم يجترُّونها دون أن تنفذ إلى أعماق قلبه، ورضي أن يعيش في ظل هذه الدولة القوية التي تنشر السلطان بِاسمه شمالًا وجنوبًا.

ولكن الفقيه زين الدين كان يُقلِّب وجهه هذه الأيام في ربوع مصر، لعله يُصيب فيها القوة التي تحمي الإسلام من هذا الخطر الفرنجي الداهم الذي رآه رأى العين وهو في مَوطِنه — الشام — فارتدَّ إليه البصر خاسئًا وهو حسير؛ لقد وجد الدولة مريضة في دور الاحتضار، فكان وهو في جلسته هذه يُقلِّب هذه الأمور كلها على أوجُهها المُختلِفة: إنه يَدين بالمَذهِب السُّني وهذه الدولة التي تحكم مصر شيعية، ورجالها ووزراؤها يُغالون في هذا المَذهَب فكتَم ما يَدين به؛ وصدرُ الدولة في مصر والشام مُعرَّض لنبال الفرنج ورماحهم، وليس من رجال الإسلام من يغار عليه غير هذا الرجل المُجاهِد نور الدين في الشام، ولكن الشام لا تكاد تفي بما يحتاجه جيش الجهاد من مئونة وراتب وذخيرة، ومصر ضَيعة الإسلام الغنية، وحصنه الحصين، غير أن رجالها شغلتْهم أطماعهم الشخصية عن الاهتمام بالدفاع عنها وعن الإسلام. وهنا وصل — في عقله — إلى نتيجة منطقية: الرجل في الشام، العتاد في مصر، فهل يجتمعان؟!

بمثل هذا أيضًا كان يُفكِّر الشيخ أبو الحسن فهو مُؤمِن بهذه الأفكار كلها، ولكنه إيمان القلب فقط لا إيمان القلب والعقل معًا كإيمان صديقه الفقيه، ولكنه إلى هذا كانت تدفعه عوامل أخرى تبعث في نفسه الرغبة القوية أن يُعجِّل الله بزوال هذه الدولة؛ فإنه كان ذا ثأر، ولهذا سرٌّ في نفسه لم يكشف لأحد عنه بعد.

ولم يُوقِظ الرجُلَين من أحلامهما إلا أصوات المَجاديف تُتابِع ضربها الهيِّن للماء تدفع القوارب مُتجِهة نحو الجسر المُقام بين الفسطاط والروضة، فقال الفقيه لرفيقه: إنهم في نهاية رحلتهم يا أبا الحسن، فقد اعتادوا أن يصعدوا بقواربهم ومن فيها مُتجِهين إلى الجنوب، فإذا انتهوا من نزهتهم عادوا فأنزلوا الركاب عند مَرسى الجسر، ثم أتَوا إلى هنا ليُؤدُّوا فريضة العشاء. أذِّن يا أبا الحسن أذان العشاء.

– أعفِني يا صديقي من هذه المَهمَّة فإن هذا الأذان المُشوَّه كريه إلى نفسي، ولننتظرْ حتى يعود أحد منهم فيقوم هو بالأذان.

– إنه كريه إليَّ أيضًا يا أبا الحسن، ولكن للضرورة أحكام، فلنبادرْ نحن لأن القوم إذا أتَوا ورأَوني أصرُّوا على أن أدعو أنا للصلاة.

– أجل للضرورة أحكام:

الله أكبر — الله أكبر.

أشهد أن لا إله إلا الله — أشهد أن لا إله إلا الله.

أشهد أن محمدًا رسول الله — أشهد أن محمدًا رسول الله.

ثم توقَّف قليلًا مُتردِّدًا وقال يُخاطِب نفسه:

– الأمر لله، اللهم لا تُؤاخِذنا بما فعل السفهاء منا، ثم استأنف الأذان بصوت خفيض:

حي على خير العمل — حي على خير العمل.

الله أكبر — الله أكبر.

لا إله إلا الله.

شاور في طريقه إلى الشام

استمرَّ شاور وجنده الثلاثة يعدُون مُسرِعين كمن يفِر من عدُو داهم أو وحش ضارٍ، حتى وصلوا إلى صحراء عين شمس فتفرَّقوا في سيرهم قليلًا، وتنفَّس شاور الصُّعَداء، وقال لصحبه: أظننا بعِدنا قليلًا عن الخطر فلنتمهَّلْ في سيرنا لنُرِح هذه الجياد، فقد أُنهِكت؛ والآن لنتدبَّر الأمر فيما بيننا، لقد كان عقلي أسرع من هذا الجواد فاستعدتُ كل ما حدث طول الطريق، واستعرضت كل الحلول المُمكِنة للخروج من هذا المَأزِق، وقد رأيت أنه من الأفضل أن أفِر إلى الشام؛ أما أنتم فإني في حاجة إلى بقائكم ها هنا في مصر، وسأكتب إليكم، ولتكونوا عيونًا يَواقِظ ترى كل شيء وإن حقُر، وإياكم أن تبدر منكم بادرة يشتمُّ القوم منها إخلاصكم لي وصلتكم بي؛ هذه هي وصيتي في إنجاز، فإني لا زلت قريبًا من الخطر، وقدَّم يده إليهم واحدًا واحدًا يُحيِّيهم وهو يقول: أستودعكم الله.

فتندت عيونهم بالدموع وقال واحد منهم: رافقتْكم السلامة في حِلِّكم وتَرحالكم يا مولانا الوزير، سنكون عند حسن ظنكم بنا.

وألوى شاور عنان جواده، وربَّت على عنقه يُلاطِفه ويستحثُّه، وقال يُخاطِبه: الآن لم يبقَ لي من رفيق غيرك يا «منصور» فأعِني بكل ما تملك من خفة وسرعة وجلَد.

وكان «منصور» جوادًا عربيًّا أصيلًا اشتراه شاور صغيرًا مُذ كان هو واليًا على قوص، وربَّاه واعتنى به فحفظ له الجواد حق الرعاية والجميل، ونجَّاه في أكثر من مَأزِق، وقد أحسَّ منذ اللحظة الأُولى أن صاحبه في ضِيق فضاعَف من سرعته، وكان في عَدْوه يطوي الأرض تحته طيًّا وكأنه طائر مُراعٌ تتعقبه النسور الكواسر.

وكان الجو قائظًا والحر لافحًا، والعَرق يتساقط من الجواد وراكبه، ولكن شاور لم ينِ لحظة عن التفكير فيما قد يعترضه من عقبات؛ فكَّر أولًا في لباسه الذي يرتديه، فقد

ينِم عنه إذا رآه من يعرفه، وفكَّر في الطريق وصعابه، وفكَّر أخيرًا في الشام وإلى من يلجأ فيها، وقد هدَتْه سرعة الخاطر إلى حلول ارتضاها وعمِل على تنفيذها، وترك النجاح في ذلك إلى توفيق الله سبحانه وتعالى وإلى الظروف.

رأى أولًا أن يتخلَّص من مَلابسه، ورأى ثانيًا أن يتَّجه في سيره إلى بلبيس ثم منها إلى الفرما، وهذا طريق يعرفه جيدًا، فقد اجتازه مرارًا، ثم هو يعرف أنه إذا اتَّجه من الفرما شرقًا وصل إلى العريش، ومنها يُمكِنه أن يتَّجه إلى الشام.

واستمرَّ في عَدْوه بجواده وهو يتحاشى أن يقرُب من القُرى المأهولة بالسكان؛ والصحراء خالية حوالَيه يُلقي بطرفه أمامه فلا يُحِس كائنًا حيًّا في أية ناحية من نواحِيها، ومالت الشمس تنحدر نحو مَقرها الليلي رويدًا رويدًا، وحل الأصيل فلطُف الجو قليلًا، وهبَّت نسمات مُنعِشة بعثت النشاط في نفس شاور، اطمأن لها الجواد فضاعَف سرعته.

ثم قاربت الشمس المَغيب وضعُفت حرارتها ولم تعُد غير قرص أصفر باهت، ولَمح شاور عن بُعد فتاة أعرابية تهُش على أغنامها مُتجِهة شمالًا، فحدَّ من سرعته إلى أن حاذاها فحيَّاها ثم سألها: إلى أين رَواحك يا أخت العرب؟

– إلى خيامنا المضروبة قِبلَي بلبيس.

– وهل تبعد بلبيس عنا كثيرًا؟

– لا، لقد غدتْ قريبة؛ انظر إلى هذه النخلات البعيدة، إن خيامنا هناك، وإذا اتَّجهت …

ولكن شاور لم يُلقِ بالًا إلى بقية حديثها، فقد رأى أعرابيًّا يعدو مُسرِعًا مُتجِهًا نحوه فأوجس خيفة، وانتظر حتى قرب منه وحيَّاه فردَّ التحية، ونظر فوجده من أعراب الصحراء الشرقية الذين يُربُّون الأغنام على حواشي الحقول وفي الصحراء، ويتَّجرون بها مع سكان الوادي، وكان الرجل يرتدي عباءة صوفية سوداء، وعلى رأسه عقال؛ فخطرتْ لشاور فكرة طارئة سريعة وقال للأعرابي: أظنك في طريق أَوْبتك للفسطاط أو القاهرة يا شيخ العرب؟

– لا، إنني أقصد قرية عين شمس، ففي أطرافها ترعى أغنامي ويسكن أولادي.

– ولكنك تأخَّرت يا شيخ العرب، فقد قاربت الشمس أن تغيب.

– لم أتأخَّر كثيرًا فسأصِلها وقت العشاء أو بعدها بقليل؛ فجوادي هذا يُسابِق الريح لو أراد.

فألقى شاور على الجواد نظرة سريعة فعرف — وهو الخبير بجياد الخيل — صِدق مقالة الرجل، ولكن ماذا يهُمه هو وصل الرجل أم لم يصِل، إن هذه تَعِلة كان يُريد بها أن يستأنس الرجل ويجُره إلى الحديث، فعرَّج على ما يُريد وقال: إنني من جند الخليفة

يا شيخ العرب، وقد خرجت في رسالة هامة مُتجِهًا إلى الشام، ونسيت لسرعتي أن أصطحب عباءتي، فهل تبيعني عباءتك هذه؟ فأنت تعلم أن برد الصحراء في الليل شديد، وقد أنام في الطريق فأتَّخذها غطاءً، ولك مني إذا عدتُ إن شاء الله كل إكرام ورعاية.

فلمْ يتردد الأعرابي بل خلع عباءته وأعطاها لُمحدِّثه، فقدَّم إليه شاور يده بالثمن، فتناوَله الأعرابي وهمَز جواده يستحثُّه على استئناف السير.

بادَر شاور بعد ذلك بلُبس العباءة فأخفى بها مَلابس الجنود، وخلع منديله فاتخذه عقالًا؛ فأصبح من يراه وقتذاك لا يشُك في أنه أحد الأعراب المُرتحِلين عبْر الصحراء في كل لحظة، وساعَده على تقوية هذا المَظهر سحنتُه العربية، إذ كان أسمر الوجه طويله ذا أنف عربي مُستطيل وعينين سوداوَين. ولا غَرْو فهو من سلالة عربية خالصة.

وأحسَّ شاور بالجوع يأكل أحشاءه، فقد كان صائمًا، ورأى أن يُعرِّج على بلبيس ليشتري منها طعامًا له ولجواده ثم يستأنف رحلته، وقد ذهب فاشترى ما أراد واتجه إلى الصحراء ثانية حتى استراح قليلًا وأكل أكلة خفيفة وأطعم جواده، ثم امتطاه فوجده قد استعاد نشاطه، وزاده الأكل قوة فاستحثه على العَدْو السريع، وكان الجواد مُخلِصًا في إجابة الدعوة فعدا أسرع ما يستطيع العَدْو، حتى وصل نصف المرحلة إلى الفرما، وهناك وجد شاور أن الليل قد أسدل أستاره، وأنه يستطيع أن يبيت ليلته حيث وصل على أن يستأنف الرحلة في الغد المُبكِّر، ولكنه وجد — بعد تفكير قليل — أن السفر في الصحراء نهارًا شاقٌّ ومُنهِك له ولجواده. حقيقةً إنه الآن مُجهَد وجواده مُتعَب، وكلاهما في حاجة إلى الراحة ليُصبِحا أوفر نشاطًا وأقدر على تحمُّل مَشاقِّ السفر، ولكنه بعد تفكير قليل وجد أن الأفضل أن يُتابِع رحلته في الليل والهواء مُنعِش جميل، حتى يصِل إلى الفرما وهو مكان هادئ آمِن، فيستريح هناك وقتًا من نهاره أو نهارَه كله ثم يستأنف السفر إلى الشام.

استأنف شاور بعد هذا القرار سيره نحو الشمال ولكنه رفَق بالجواد، فكان كلما وجده قد أحسَّ التعب يتركه يسير سيرًا رفيقًا فيه بعض الراحة والاستجمام من تعب اليوم السابق.

وفي ظهر اليوم التالي وصل إلى الفرما فاستراح قليلًا وأراح جواده، ثم استأنف رحلته في الأصيل مُتجِهًا إلى الشرق يقصد العريش، فقضى الليل كله مُرتحِلًا، ولم تكَد تباشير الفجر تظهر وعلائم نور الصباح تلوح في الأفق حتى انتبه شاور — وكانت قد أخذته سِنة من النوم وهو على جواده — على نسمات قوية باردة تلفح وجهه وتعبث بمنديله وأطراف عباءته، ففتح عينيه ونظر فوجد البحر أمامه وسمع الأمواج تهدر عن بُعد، ووجد

عن يمينه وشماله الأرض يُغطِّيها بعض الزرع، (والشواديف) وأكواخ الزراع مُنتثِرة هنا وهناك، وخلف هذا كله أشجار النخيل تنمو في غير ما نظام، فتُضفي على هذه البقاع جمالًا سحريًّا رائعًا، فراح شاور يملأ صدره بهواء الصباح النقي اللطيف، وراح يملأ نفسه من هذا الجمال الإلهي الهادئ الخالي من كل ما يشوبه من تغيير أو تزييف، ولكنه لم يلبث أن صحا من هذه الغفوة الروحية على أصوات الكلاب النابحة تنحدر إليه من كل كوخ ومن بين النخيل، فاستمر في سيره البطيء؛ لأنه رأى أنه لو تريَّث أو وقف أو أسرع فعدا بجواده لهاجَمته الكلاب من كل حدْب وصوْب، وقد تُصيب الجواد وهو عُدته القوية في هذه السفرة.

غير أنه ما لبث أن وجد هذه الكلاب قد تكالَبت وتكاثَرت وكلها تجري نحوه وهي تعوي عواء المُتحفِّز للهجوم، وكأن الجواد قد أحسَّ بخطرها الداهم فتقاعَس للوراء قليلًا ثم شبَّ بمُقدَّمه إلى أعلى وصهل صهيلًا قويًّا، فأخذ شاور يُلاطِفه ويُهدِّئ من خوفه، وإذا به يسمع صوتًا فيه قوة يصيح بهذه الكلاب مُهدِّدًا، ونظر فوجد رجلًا شيخًا ذا لحية كثَّة بيضاء ووجه أبيض تشوبه حمرة يتقدم نحوه وبيده عكاز يهُش به على هذه الكلاب ويزجرها، فخفتتْ أصواتها وكأنها رجل مُغضَب يُحاوِل أن يكبت غضبه ويكتم ثورة نفسه. وقال شاور: السلام عليكم يا أخا العرب.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. تفضَّل.

– هل هذه العريش يا والدي؟

– نعم — إنها هي — تفضَّل.

– إن كلابكم هذه لا تُشجِّع على إكرام الضيف.

– لا عليك منها، فهذا شأنها مع كل طارق غريب.

– ولكنها كثيرة، وكانت تختبئ وكأنها جند في كمين يستعدُّ لمُلاقاة العدُو، فقد هاجمتني من كل مكان.

– إن هذا مَوسِم البلح فهي تحرس النخل وأصحابه.

تفضَّل، تفضَّل.

– والله إني لفي سفر سريع، ولكن الجواد مُتعِب وأُحِب أن أستريح قليلًا، فهل يُمكِن أن تُضيفني بعض الوقت؟

– على الرحب والسعة يا بُني، تفضَّل.

فنزل شاور وقاد الجواد خلفه، وتقدَّم إلى الرجل فصافَحه، وسارا جنبًا إلى جنب يقصدان الكوخ فربط شاور الجواد إلى نخلة هناك، وأمر الرجل بعض أولاده فأحضروا

حصيرًا فرَشه بعيدًا عن الكوخ ودعا صاحبه إلى الجلوس، ثم سأله: من وين وإلى وين يا شيخ العرب؟

– أنا آتٍ من القاهرة في طريقي إلى الشام.

– القاهرة! يقولون إنها بعيدة يا ولدي.

– أجل — إنها لبعيدة — ألمْ ترَها من قبل؟

– كلا، إنني لم أُغادِر أرضي هذه منذ وُلدت.

– يا سلام! لم تُسافِر أبدًا!

– أبدًا.

وهنا خرج من الكوخ رجل فيه شَبه كبير من هذا الشيخ، وهو يحمل على كتفه بعض شِباك الصيد، وخلفه طفلان صغيران قد تعلَّقا بأذياله واختفَيا وراءه يرقُبان الرجل الغريب في دهشة واستطلاع، وقال الرجل: أنا ذاهب يا أبي وسأنتظرك.

– سألحق بك بعد قليل يا حمدان، ولكن أين صفية؟ هل خرجت؟

– إنها تنتظر حتى تُرضع السَّخْلة الصغيرة ثم تخرج، ولم يكَد يُتِم حديثه حتى سمع مأمأة الأغنام والشياه تخرج مُتتابِعة من الكوخ، وخلفها صَبية مُشرِقة الوجه تهُش عليها بعصًا في يدها، وتحمل إلى صدرها باليد الأخرى سَخلة صغيرة تحنو عليها وكأنها طفلها الرضيع، ثم قالت الصبية: أنا ذاهبة يا أبي.

– رافقتْك السلامة يا بُنيتي، ولكن احترسي ولا تتأخَّري عن الغروب.

ثم التفتَ الرجل إلى شاور وقال: رمضان كريم يا صاحبي، إن هذا مَوعِد الفطور، ولكن اعذرنا، وحبذا لو بقيت معنا حتى الغروب فنأكل سويًّا!

– الله أكرم يا والدي، أشكرك على هذا الكرم.

– والآن، ها هي الدار تحت أمرك، إن شئت أن تستريح فإني لاحِق بابني فهو ينتظرني لأُساعِده في إنزال قارب الصيد إلى البحر، ثم أجلس هناك بعض الوقت عند الشاطئ قُرب نخلات لي أحرسها حتى يعود برزقه.

– لا، إنني أُحِب هواء البحر، وأُفضِّل أن أصحبك إلى هناك حيث أستريح وأتحدَّث إليك قليلًا.

– تفضَّل إذن.

وسار الرجل بقَامة مُنتصِبة يدِب على ثلاث: قدمَيه وعصًا في يده يتوكَّأ عليها، وإلى جانبه شاور يتبعه جواده، حتى وصلا الشاطئ فنظر شاور فوجد صفوفًا طويلة من

النخيل على طول الشاطئ وكأنها حرسٌ يقِظ يحمي المدينة من طغيان البحر، وألفى بعض الصيادين يتعاونون على إنزال قوارب الصيد إلى الماء، وكان الجو صحوًا والهواء سَجْسجًا، والشمس لا تزال تحبو خطواتها الأُولى نحو النهار، وكأنها في الأفق البعيد خارجة من لُجَج الرمال بعد أن نفضت عنها أدران اليوم السابق، فوقفتُ مُعجَبًا بهذا المَنظَر لحظة ثم سحب جواده فربطه إلى نخلة هناك ووضع عنه عُدته وراءه وقدَّم له بعض الماء والأكل، وتلفَّت حوله فوجد الشيخ واقفًا على الشاطئ يرمق ابنه وحفيدَيه في رحلتهم اليومية سعيًا وراء رزقهم، فجلس تحت النخيل ينتظره حتى عاد، وأخذا في الحديث فراح الرجل يُفضي إلى جليسه بدخيلة نفسه، ويُحدِّثه عن أولاده وبناته؛ فابنه هذا يحترف مِهنة الصيد، وولدان آخران يزرعان الأرض حول كوخه، وله بنت تزوَّجت، وصفية التي رآها تخرج لترعى أغنامها، وطفلة أخرى صغيرة تُساعِد أمها في أعمال المنزل.

ثم وجد العريشي أن صاحبه لا يُصغي إلى حديثه ولا يُشارِكه فيه، وبدرتْ منه التفاتة نحوه فوجده يُهوِّم ورأسه تعلو وتنخفض، فهزَّه من كتفه ليُوقِظه، وقال: اصحَ يا شيخ العرب، إنك تنام وأظنك مُتعَب من رحلتك، فنمْ هنا على هذا المكان المُمهَّد تحت هذه النخلات.

– أجل، والله إني لمُتعَب، اسمح لي يا صاحبي، وسأترك هذا الجواد في رعايتك.

وراح شاور في سُبات عميق، ونام نومًا لذيذًا هانئًا هادئًا حتى انقضى مُعظَم النهار، والشيخ قريب منه يجدل الخوص ليصنع منه بعض السِّلال، فسمع النائم يصيح ويقول: اتركني، اتركني، وأنت أغِثني أغاثك الله. فجرى نحوه ولكنه وجده لا يزال نائمًا فعاد إلى عمله، وبعد قليل سمعه يُناديه: يا شيخ، يا شيخ، ما اسمك؟

– لقد استيقظتَ أخيرًا! اسمي حسان، وأنت؟

– أنا، اسمي، اسمي منصور يا شيخ حسان.

– لعلك نعِمت بالنوم في هذا المكان الهادئ يا شيخ منصور؟ ولكنك كنت تصيح وتستغيث منذ لحظات؟!

– نعم يا صاحبي، لقد رأيت حُلمًا مُزعِجًا؛ رأيت كأنني أسير في مَزرعة كبيرة مُترامِية الأطراف فيها من كل فاكهة زوجان، وفيها الزهر والورد والريحان، وفيها الماء ينساب في الجداول يروي الأراضين وفيها الطيور تُغرِّد على الأشجار، وكأن هذه المزرعة وما تحوي مِلك يميني، ورأيت زائرًا يزورني وهو رجل له وجه مثل وجه الأسد، ويُقيم عندي أيامًا، وتكرَّرت زيارته لي ثلاث مرات، ولكنه في المرة الثالثة انقلب أسدًا حقًّا، وهاجَمني يُريد قتلي فاستغثت بمن حوْلي. آه! إنه حُلم مُريع مُفزِع.

– لا عليك يا شيخ منصور! فهذا أثر الجوع والتعب، وهذا صوت جوادك أيضًا يطلب الطعام، وقد أطعمته مرة وأنت نائم ولكنه جاع ثانية.

وأفطر شاور هذا اليوم على مائدة الشيخ حسان، وكان قوامها السَّمك المَشوي — من صيد ولده حمدان — وخبز الشعير، ثم أعطى شاور لأولاد الشيخ وأحفاده بعض المال، وكان كريمًا حتى بهَرهم بكرمه، وودَّعهم ليستأنف رحلته.

وانطلق به الجواد قويًّا نشيطًا سريعًا، وقد أنْسته الراحة تعب الأمس، وكان شاور يُفكِّر طول الطريق في هذه الحياة الراضية المَرضية التي يحياها هذا الشيخ حسان، وتذكَّر قوله له إنه لم يُغادِر هذه الأرض منذ وُلد، وردَّه عليه عندما سأله: أتُطيق المَعيشة طول حياتك في مثل هذا المكان المُوحِش؟ إذ قال: وماذا أبغي غير ما أنا فيه؟ هذه الأرض يزرعها أولادي وأُعاوِنهم في حرثها، وهذا ابني الكبير يرتزق مما يبيع من صيده، وهذه ابنتي صفية ترعى الأغنام طول يومها، ولقد بلغت الثمانين من عمري وأنا في صحة جيدة والحمد لله، هذه نعمة من ربي له الحمد والشكر.

وقارَن شاور حياته بحياة هذا الرجل، واستعرض في مُخيِّلته كفاحه الطويل المُضني في سبيل المُلك ومَجده الزائل، وها هو الآن مُشرَّد في الصحراء لا يدري أين تقوده الأقدار؛ إلى حَتفه أم إلى مَجده ثانية؟ وأُسرته وأولاده في مصر. تُرى كيف حالهم؟ وماذا فعل بهم ضرغام؟

أين هذا كله من هذه الحياة الهادئة الآمنة التي يحياها الشيخ حسان وحوْله أولاده وأحفاده يكدحون كدحًا يسيرًا في سبيل الرزق، ويقنعون بما يُشبِع جوعهم ويكسو عُريهم، وحسْبهم بعد هذا هدوء البال واطمئنان النفس، والصحة، أجل والصحة؛ إن هذا الشيخ ذا الثمانين سنة كان يبدو في مِشيته وكأنه أصغر منه سنًّا.

ولكن نفس شاور الطموح عادت تُناقِش هذه الأفكار، وتُذكِّره بأُبهة الوزارة ومَجد السلطان وعز المُلك، ونشطت غريزة الانتقام تُثيره ضد ضرغام، هذا الخارج على طاعته، المُغتصِب لجاهه ووزارته، ولا بد أنه قتل أهله وولده أو سجنهم فكيف يسكت عن الثأر؟ إنه لا يكون شاور إذا لم ينتقم من غريمه.

والآن ليذهبْ إلى بُصرى وهي قرية على بُعد أميال من دمشق، وفيها تاجر يعرفه أغاثه مرة إذ لجأ إليه وهو والٍ على قوص بعد أن هاجَمه اللصوص في الطريق بين عيذاب وقوص، فسلبوه ماله وتجارته، فأصدر أوامره الشديدة يومئذٍ إلى رجاله أن يقتفوا آثار اللصوص، وقد قبض عليهم وأُعيدت التجارة وأُعيد المال لهذا التاجر، فشكر لشاور هذا الصنيع،

ودعاه لزيارته في بُصرى ليرُد له الجميل، وما كان يدري وقتذاك أن الأقدار ستدفعه إلى تحقيق هذا الطلب — بالذي لم يحمله مَحمِل الجِد — وزيارة هذا الرجل في مثل هذه المِحنة.

وفي بُصرى يستطيع أن يُمهِّد السبيل للاتصال بأحد الطرفين: نور الدين في دمشق أو الفرنج في مدن الساحل.

واتخذ شاور طريقه إلى الشام، وكان كلما سار مرحلة سأل من يُقابِل عن الطريق، حتى وصل إلى بُصرى بعد ترْكه العريش بيومين.

في ضيافة نور الدين

جلس السلطان الملك العادل نور الدين محمود في قلعة دمشق بعد عودته من الشمال وانتصاره على الفرنج وأخذه حمص، وكان معه في مجلسه وزيره المُوفَّق بن القيسراني، وقاضيه كمال الدين الشهرزوري، ومن كبار قُواده ورجال دولته نجم الدين أيوب وولده صلاح الدين وشهاب الدين الحارمي، وعين الدولة الياروقي، وجماعة من القضاة والفقهاء والشعراء، وكانوا جميعًا يُقدِّمون التهاني لنور الدين لانتصاره على الفرنج في حمص، فتكلَّم القواد والكبراء والقضاة، ثم تقدَّم واحد من الشعراء وأخذ يُنشِد قصيدته مُهنِّئًا.

وبينا هو في إنشاده يقول البيت ويُعيده، والجمع يُبدون استحسانهم وإعجابهم بما يقول، إذ بالحاجب يدخل ويقول: مولاي، إن بالباب تاجرًا من قرية بُصرى، اسمه الحاج عبد الصمد يُلِح في طلب المُقابَلة لأمر سِري هام، وقد حاولت ردَّه الآن، وأبدَيت له الأعذار الكثيرة بأن مولاي مشغول مع قُواده ورجال دولته، فأبى أن يُذعِن بل زاد إلحاحًا وإلحافًا في طلبه.

فالتفت نور الدين إلى جلسائه وقال: ومن يكون الحاج عبد الصمد؟ إني لا أعرفه!

فقال القاضي كمال الدين الشهرزوري: إنه تاجر طيِّب القلب من بُصرى، وهو رجل مُتديِّن كثير البِر بالفقراء والمُعوَزين.

فقال نور الدين: تُرى ماذا يكون هذا الأمر الخفي الهام الذي دفع هذا الرجل الطيِّب إلى الإلحاح في طلب مُقابَلتي؟ إنه — كما تقول — رجل يشتغل بالتجارة، وأظنه لا يُعنى بشئون الدولة أو الحرب.

– لا أحسبه يُعنى بها يا مولاي، بل إنه لا يُعنى إلا بتجارته وأولاده.

– ومع هذا لا بد أن نراه. أدخِله أيها الحاجب.

فقال الحاجب: ولكنه يُريد مُقابَلة مولاي على انفراد، فالأمر خطير كما يقول.

– غريب أمر هذا الرجل! لقد اشتقت إلى رؤيته.

ثم التفت إلى الجالسِين وقال: هل تأذنون يا صحبي فتنتظرون لحظات في الإيوان المُجاوِر؟

فقالوا جميعًا: سمعًا وطاعة، لعله رسول خير.

وخرجوا واحدًا إثر الآخر وهم يتهامَسون مُتسائلين عن هذا الرجل وعما يقصد إليه بهذه الزيارة، ولكن نور الدين نادى وقال: يا نجم الدين، ابقَ أنت لحظة.

ثم انتظر حتى خرج جلساؤه، فقال: أتظنني أُخفي عنك سرًّا يا نجم الدين؟! ابقَ؛ فقد أكون في حاجة إلى رأيك.

– أشكر مولاي على هذه الثقة، وأرجو أن أكون أهلًا لها.

وتقدَّم الحاجب يستأذن للزائر، ودخل رجل رَبْعة أقرَب إلى القصر ذو وجه أبيض مُستدير تزينه لحية بيضاء، يلبس مَلابس التجار وبيده سبحة، فقال: سلام الله على مَلِكنا العادل نور الدين، حفظه الله وأيَّده بروح من عنده.

– السلام عليك يا حاج، تفضَّل تقدَّم فاجلس هنا بجانبي.

– شكرًا لمولاي السلطان.

ثم نظر التاجر إلى نجم الدين أولًا ولنور الدين ثانيًا كمن يُريد أن يقول: هل أستطيع أن أرى مولاي السلطان على انفراد؟ ففطِن نور الدين لقصده وقال: لا تخشَ شيئًا يا حاج عبد الصمد، إن نجم الدين هذا بطل من أبطال جيشي، وله رأي حصيف، وهو مِني بمَثابة الأخ لا أُخفي عنه شيئًا؛ فاطمئن على سرِّك، وهاتِ ما عندك، ولعله خير.

– خير إن شاء الله يا مولاي، لقد نزل عندي منذ مُدة ضيفٌ عزيز، وقد بعثني إلى مولاي في رسالة.

– إن ضيفك ضيفنا يا حاج، وإنا لنُكرِمه لأجل خاطرك.

– أكرمك الله يا مولاي وزادك مَجدًا وأعزَّك، وكتب لك النصر على أعدائه. إن ضيفي أيها السلطان هو وزير مصر شاور.

فأُخذ نور الدين وبدتْ على وجهه علائم الدهشة، واعتدل في جلسته ثم نظر إلى الرجل وإلى نجم الدين وقال: شاور؟! تُرى ما الذي أتى به؟! إنه إذن في ضيافتي حقًّا.

– مولاي يعلم ما كان بينه وبين ضرغام، ولقد عرفت أنا شاور وهو والٍ على قوص إذ أنقذ لي تجارتي من أيدي اللصوص، وقد لجأ إليَّ مُتنكِّرًا بعد أن فرَّ من مصر.

– إننا نُغيث كل لاجئ يا حاج عبد الصمد، فهل لشاور من حاجة فنقضيها؟

– لم يُخبِرني بشيء. ولو سمح مولاي له بالمُثول بين يدَيه لعرَف رأيه، إنه الآن في مملكتي فلا بد أن يكون ضيفي.

ثم استدعى الحاجب وقال له: نادِ ابن الصوفي والقاضي كمال الدين والوزير ابن القيسراني. فلما حضروا قال نور الدين: إن شاور وزير مصر لجأ إلينا بعد فراره منها، وهو الآن في ضيافة الرجل الكريم الحاج عبد الصمد، فأرجوا أن تذهبوا إليه في الغد الباكر وتدعوه ليُقيم في جوسق الميدان الأخضر، وتأمروا رجال القصر وخدمه بإحسان ضيافته وإكرامه، وسلِّموا عليه وعرِّفوه أعذارنا في التقصير في حقه، وسلُوه فيما قدِم وما حاجته؛ فإن كان ورد علينا مُختارًا للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه، ويقوم بأَرَبه وأَوَده، ونكون عونًا له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فليُفصِح عن حاجته.

فقال الجمع: سمعًا وطاعة يا مولانا.

وقبِل شاور دعوة نور الدين ونزل بجوسق الميدان الأخضر ضيفًا عليه، ونقل إليه الوفد رسالة السلطان فشكر إحسان نور الدين وكرَمه، ولكنه أبى أن يُبِين عن غرضه، فلما ألحُّوا عليه أجاب: إذا لم يُبيَّت الرأي جاء فطيرًا.

فقال ابن الصوفي: إن مولانا السلطان يُريد جوابًا على رسالته.

فقال شاور: إن رأى نور الدين — أطال الله بقاءه — الاجتماع بي فله عُلو الرأي. فاستأذَنوا وعادوا إلى نور الدين يُبلِّغونه رغبة شاور، فقال: لا مانع عندي من مُقابَلته.

ثم نظر إلى نجم الدين وقال: فليكُن اجتماعنا به بعد أيام في الميدان الأخضر عند ذهابنا للَعب الصولجان.

وبعد أيام كان الميدان الأخضر يبدو في أروع زينته؛ تخفق في أنحائه الرايات، والجند والقُواد في أماكنهم ومعهم أبواقهم وطبولهم، وأُعِدت المَقاعد المُذهَّبة لجلوس نور الدين وضيفه.

وخرج نور الدين من القلعة في أحسن زي وأكمل شارة، وحوْله وُجوه دولته وخواص مملكته؛ فلما وصل إلى الميدان دُقَّت الطبول والكوسات، ونُفخ في الأبواق؛ فخرج شاور من الجوسق راكبًا، وسار الرجُلان حتى التقَيا في وسط الميدان، فتبادَلا التحية دون أن يترجَّل أحد منهما لصاحبه، ثم سارا من مَوضِع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره وهما يتبادلان الحديث، وعادا بعد قليل إلى المكان المُعَد لجلوسهما فجلسا، وبدأ اللعب، ونور الدين يشرح لضيفه كل صغيرة وكبيرة.

وكان الشوط الأول بين نجم الدين أيوب وشهاب الدين الحارمي، ونظر شاور فوجد كلًّا من الرجُلين قد امتطى صهوة جواده، ووقف في ناحية من الميدان وخلفه خشبتان مُثبَّتتان في الأرض تُعيِّنان الهدف، وبيده عصًا طويلة معقوفة النهاية، وأذِن نور الدين ببدء اللعب، وأُلقِيت الكرة وسط الميدان، وتقدَّم كل منهما، وظلَّا يتبادلان الكرة قذفًا بهذه العصا، وكُلَّما بعدتْ جريا خلفها وهما يميلان على جواديهما أمامًا وخلفًا، ويمينًا ويسارًا في مَهارة وخفة عجيبتَين، والحضور جميعًا يُتابِعون الكرة واللاعبَين بأنظارهم، ويُبدون إعجابهم بكل رمية مُوفَّقة.

وبعد لحظاتٍ بعدتْ الكرة عن هدف نجم الدين، وقربت من هدف غريمه، ونجم الدين وراءها يُتابِعها، ورفع شهاب الدين يده بالصولجان ليضرب الكرة فيُبعِدها عن هدفه، ولكن نجم الدين قفز بجواده قفزة سريعة، فكان في لمحة بين شهاب الدين والكرة، وجواده لصق بجواد مُنافِسه، ونقل الصولجان في حركة سريعة إلى يده اليسرى، وهوى به على الكرة فضربها ضربة قوية اندفعت إثرها من تحت الجوادَين تجري حتى استقرت داخل الهدف فصاح الجميع صيحة الإعجاب، وصفَّق الجند والقُواد، وابتسم نور الدين وقال لضيفه: إن هذين من كبار قُوادي، ومن أمهر من يلعب هذه اللعبة. فقال شاور: ولكن يبدو إليَّ أن نجم الدين أمهرُ من صاحبه، بل يُخيَّل إليَّ أيضًا أنه قد يكون أمهرُ قُوادك لعبًا.

– إنه ماهر حقًّا، ولكن ابنه صلاح الدين أمهرُ منه؛ إنه يكون على جواده أخفَّ من الريشة وأسرع من الريح، وسآمُر أن يكون الشوط الثاني بينه وبين أبيه لتحكم بنفسك.

وبدأ الشوط الثاني بين الأب وابنه، وظلا يُبديان من فنون المَهارة في اللعب ما يُثير حماس الشهود، وقربت الكرة من هدف نجم الدين، فصدَّها في ضربة قوية رفعتها عن الأرض فطارت في الجو، فاستعد صلاح الدين لتلقِّيها، ورفع الصولجان فردَّها في قفزة سريعة قوية كادت تُصيب رأس نجم الدين فانحنى لها، ومرَّت كالسهم إلى أن استقرت داخل الهدف؛ فهلَّل الشهود جميعًا وصفَّقوا، ولم يتمالك نور الدين نفسه فصفَّق معهم إعجابًا واستحسانًا وصاح وضيفه: مرحى، مرحى صلاح الدين.

وقال نور الدين: إن هذا الشاب ذا الخمسة والعشرين عامًا أمهرُ اللاعبِين بين جنودي وقُوادي، وإني أُحِب هذه اللعبة حبًّا جمًّا وأُتقِنها، ولكن لا يغلبني فيها إلا صلاح الدين؛ ولذلك كثيرًا ما أدعوه ليُشارِكني اللعب.

وبعث نور الدين إلى مُقدَّم عسكره أسد الدين شيركوه، فاستدعاه من إقطاعه «الرحبة» وجمعه وأخاه نجم الدين وابنه صلاح الدين، فعرَض عليهم ما دار بينه وبين شاور من حديث وسألهم رأيهم، فقال نجم الدين: الأمر لمولانا السلطان، ولكنني أرى أننا يجب أن ندَّخر جنودنا وقُوانا كلها لمُناوَأة أعدائنا الفرنج، فهم يزدادون كل يوم خطرًا بمن يأتيهم من وراء البحار.

فقال نور الدين: وما رأيك أنت يا أسد الدين؟

قال: إن ما يقول أخي حق، ولكنني أرى أن نُجيب دعوة شاور؛ فقد لجأ إلى مولانا السلطان مُستعينًا به.

ثم سكت لحظة وقال: وأظن أننا نستطيع أن نطَّلع على أحوال مصر؛ فالأمور فيها كما يبدو لي على غير ما نُحِب، وإني لأخشى أن يُطمِع هذا الخلل في أحوالها الفرنج فيها فينقضُّون عليها، ولكن لا بد لمولانا السلطان أن يتأكَّد من وُعود شاور وشروطه.

فقال نور الدين: إن شاور يعرض أن يكون لي ثلث خراج مصر، وأن يكون نائبي بها، وقد تردَّدت كثيرًا في قبول رجائه خوفًا على جندي من خطر الطريق، فالفرنج يملكون مدن الساحل كما يملكون قلعتي الكرك والشوبك، كما أنني أُضعِف من قوتي هنا في الشام إذا أرسلت لمصر جزءًا من جيشي، وربما أطمَع هذا الفرنج فيُغيرون على بلادي، ولكنني مع هذا أُوافِق أسد الدين على رأيه؛ لأن الأخبار تصِل إليَّ من مصر أن أحوالها نهبٌ مُقسَّم بين الجند والأمراء، وضرغام قد استبد بالأمر وأخذ يقتل أمراء جيشه حتى كاد يُفنيهم، واستبد بالأمر دون الخليفة العاضد حتى أصبح لا يملك من الحكم شيئًا، فهذه حال تُطمِع الفرنج في مصر كما تقول يا أسد الدين، وإلى هذا كله لو أن جنودي انتصروا وعاد شاور إلى الوزارة لكان لنا ثلث خراج مصر وهو مَبلغ لا يُستهان، نستعين به على حرب أعدائنا من الفرنج.

وقال أسد الدين: وسيَدين شاور لمولانا السلطان بالولاء، وهذه خطوة في سبيل الاستيلاء على مصر.

ونظر إلى نجم الدين وقال: ألا ترى رأينا يا أخي، فإني أراك صامتًا.

– في الحق أنه كلام جميل، وكسب عظيم لو تحقَّق.

فقال نور الدين: وما الذي يمنع من تحقيقه؟

– يمنع من تحقيقه من سيتولى تحقيقه، شاور.

فقال أسد الدين: شاور! وكيف؟

فتقدَّم صلاح الدين لأول مرة يُبدي رأيه، وقال: أجل يا عمي — شاور — إني أُوافِق أبي على رأيه، إن لهذا الرجل نظرات ماكرة تبدو نفسه الخبيثة من خلالها واضحة جلية، إنني لم أرتَح لهذا الرجل منذ رأيته، ولقد شمَمت من حديثه أنه يكاد يقتل نفسه لضياع السلطة من يديه، وتبيَّن لي أيضًا أن الغاية لديه تُبرِّر الوسيلة؛ فهو يُريد العودة إلى الوزارة مهما كلَّفه ذلك من ثمن، وهو يسُب ضرغامًا ورجال ضرغام والخليفة العاضد، وهو يلعن أهل مصر الذين يُقدِّمون إليه المال ويُعينونه على مَعيشة الترَف والبذَخ التي يتحرَّق شوقًا للعودة إليها الآن، أتظنُّه يفي لمولانا السلطان إذا عاد للحكم؟!

فقال نور الدين: ولكنني وعدتُ الرجل يا صلاح الدين.

– لم أكُن أعلم أنك وعدتُه يا مولانا، وما دمتَ وعدت فلا بد من الوفاء.

وقال نجم الدين: ما دمتُ وعدت فالخيرة في ما اختاره الله، فلتأمرْ جيوشك يا مولاي بالاستعداد.

فنظر نور الدين إلى أسد الدين وقال: وقد اخترتك يا أسد الدين لتكون مُقدَّم الجيش السائر إلى مصر لما أعلمه من شجاعتك ويُمْن طالعك، فإني أتفاءل بك خيرًا، ولم يحدث أن عهدتُ إليك بغزو إلا كان النصر على يديك، فاختر جندك وقُوادك من الغد واستعِد للسفر.

– أنا سيف من سيوف مولانا فليُوجِّهه أنَّى شاء، ولكنني أرجو أن يصحبني أخي نجم الدين أو ابنه صلاح الدين.

– لك ما تُريد.

ثم نظر إلى نجم الدين وابنه وقال: أيكما يُريد السفر مع أسد الدين؟

فقال نجم الدين: ليأمرْ مولانا صلاح الدين بالسفر مع عمه.

فقال نور الدين: — عظيم — سِيرا على بركة الله وليكُن التوفيق والنصر حليفكما إن شاء الله! وسأسير أنا بجندي عند رحيل جيشكما إلى بلاد الفرنج لأشغلهم عن التعرُّض لكم حتى تصِلوا مصر سالمين بعون الله.

عودة شاور

لم يكُن ضرغام في سيرته مع الناس، بعد توليه الوزارة، أفضل من شاور؛ فقد عانى المصريون من ظلمه كثيرًا، وكثُرت مُصادَراته لأموال التجار والزراع وأرباب المَعايش، وعاث جنده في البلد فسادًا حتى أشاعوا الرعب في نفوس الجميع، وأصبح الناس خائفين على أنفسهم وأموالهم، فجمعوا الأقوات والماء، ولزموا مَساكنهم، لا يُغادِرونها إلا إلى المَساجد حيث يُؤدُّون الصلاة ويبتهلون إلى الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم تلك الغمة.

وعلِم ضرغام بأن شاور قد لجأ إلى البطل نور الدين يستنجد به، فكتب إليه رسائل كثيرة يجرح فيها شاور، ويُمنِّيه بالطاعة والولاء، ولكن نور الدين كان قد وعد شاور بالمُساعَدة فلمْ يُلقِ بالًا لرسائل ضرغام.

ووصل جيش أسد الدين — بعد قليل — ومعه شاور إلى بلبيس، فأرسل ضرغام أخاه ملهمًا على رأس الجيش المصري لمُقاتَلة أسد الدين.

كان جيش أسد الدين أقل من جيش مصر عددًا وعُدة، ولكنه أقوى روحًا وأشدُّ إقدامًا، كما كان يمتاز بشجاعة قُواده؛ أما جيش مصر فقد كانت تُعوِزه القيادة الجريئة منذ أفنى ضرغام خيرة رجال الجيش وقُواده ذبحًا وقتلًا؛ ولهذا لم يجد أسد الدين من جيش ملهم مُقاوَمة جِدية وسرعان ما انتصر عليه.

وقد كان الفضل الأكبر في هذا النصر لمكر شاور ودهائه؛ فقد بدأت المعركة عند بلبيس، ووقف الجيشان مُصطفَّين مُدة من النهار دون قتال، وأشار شاور على أسد الدين أن يأمر جنده بالوقوف، هكذا دون حرب، فوقفوا إلى أن حمي النهار، والتهب الحديد على أجساد الرجال، فضرب أكثر أهل مصر الخيم الصغار، وخلعوا السلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظل، فأمر شاور عند ذلك الناس بالحملة، فكان النصر لجيش أسد الدين،

والهزيمة لجيش ملهم، وكان أسعد أهل مصر من ركِب فرسه، وأطلق عنانه، وولَّى مُنهزِمًا، وتركوا خِيَمهم وأموالهم، فاستولى عليها جند أسد الدين.

وتقدَّم جيش أسد الدين حتى وقف على أبواب القاهرة، فاستعد ضرغام لمُلاقاته، وأعوَزه المال للدفاع، فأخذ أموال الأيتام المُودَعة في صندوقهم؛ فكرهه الناس، واستعجزوه، ومالوا مع شاور، فتنكر لهم ضرغام، وأخذ ينالهم بعقابه الشديد، فزاد بُغْضهم له.

وأخيرًا خرج بفُلول جيشه، وقاتَل قتال المُستميت، غير أنه لم يلبث أن وجد أن لا فائدة من القتال، فكرَّ راجعًا إلى القاهرة، وأمر بضرب الأبواق لتجتمع الناس، فضُربت الأبواق والطبول ما شاء الله أن تُضرَب من فوق الأسوار، فلمْ يخرج إليه أحد، وانفضَّ عنه الناس، فسار إلى الميدان قبالةَ باب الذهب — من أبواب القصر — ومعه خَمسمائة فارس ونادى الخليفة ضارعًا مُستغيثًا وهو يقول: أُريد أمير المؤمنين يُكلِّمني لأسأله عما أفعل.

وظل يُردِّد النداء ولا مُجيب؛ لأن العاضد كان يكرهه كُرهًا شديدًا، فقد كان مُدة وزارته كالمحجور عليه، وكانت قد وصلته كُتُب شاور يعتذر فيها عن الماضي، ويطلب منه الإذن بالدخول إلى القاهرة.

لم يجد ضرغام لنفسه مَخرجًا من هذا المَأزِق الحرِج، وسُدَّت أمامه السُّبُل، فلبث واقفًا يُنادي الخليفة إلى العصر، ويتضرَّع إليه، ويستحلفه بحق آبائه وأجداده، والناس تنحلُّ عنه حتى بقي في نحو ثلاثين رَجلًا، كل ذلك والخليفة لا يُجيب، حتى سمع ضرغام الأبواق والطبول وجند أسد الدين، وقد دخلوا من باب القنطرة ومعهم شاور، فذهب على وجهه مُنهزِمًا، وخرج من باب زويلة، والعامة تلعنه وتقول: «يا ضرغام، هاتِ مال الأيتام! ضرغام عدُو الإسلام.»

وتتبَّعه رجل من جند الشام حتى ظفر به فقتله، وحمل رأسه إلى أسد الدين.

وهكذا انتهت حياة وزير، وعاد إلى الوزارة شاور وكان أول ما فعل بعد عودته أن أمر بإطلاق سراح المساجين الذين أسرَهم ضرغام أثناء غيبته وهم نفرٌ من رجال الدولة كانت لهم بشاور أو بأفراد أُسرته صلات.

وكان أول من أطلق سراحه القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني أحد كُتاب ديوان الإنشاء، فقد ظل سجينًا مُدة غِياب شاور عن مصر، لا لذنب إلا أنه كان مُتصِلًا بالكامل بن شاور وكانت تربط الرَّجلين أَواصِر الود والصداقة.

وذهب عبد الرحيم إلى مَنزله بالفسطاط فرحَّب به أهله فرِحين، وسرعان ما انتشر خبر العفو عنه فتوافَد الناس على داره مُهنِّئين، وكان في مُقدِّمتهم الفقيه الشاعر عمارة اليمني، والفقيه الجندي عيسى الهكاري إمام أسد الدين شيركوه.

وبيْنا هو في داره يُرحِّب بمُهنِّئيه، ويتجاذب وإياهم أطراف الحديث إذ أقبل عليه صديقاه الحميمان: الفقيه زين الدين والشيخ أبو الحسن، فأسرع إليهما الفاضل مُحيِّيًا ومُرحِّبًا، وتقدَّم فاحتضن زين الدين وهو يقول: أهلًا بالصديق العزيز، أهلًا وسهلًا.

– أهلًا بك أنت يا عبد الرحيم، حمدًا لله على سلامتك وألف حمد، وشكرًا له أن دالَت دولة الظلم.

ثم التفتَ عبد الرحيم إلى أبي الحسن وقال: مَرحبًا، مَرحبًا يا أبا الحسن، إنك صديق الجميع الوفي، كيف أطفال مَكتبك؟ ألا زالوا مُجِدين في حفظ القرآن؟ إن لك عند الله أجرًا عظيمًا، ولقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «من كان لله كان الله له.» تفضَّلا، تفضَّلا.

وجلس الرَّجلان يُعيدان التهنئة لصديقهما عبد الرحيم ويُشارِكهما في ذلك الحاضرون، إلى أن قال القاضي الفاضل وأشار إلى رجل يرتدي مَلابس الجند وعمامة الفقهاء: هذا صديقي الفقيه عيسى الهكاري يا زين الدين، وكان يُحدِّثنا قبل مَجيئك عن البطل نور الدين وشدة إيمانه بالله.

ثم التفت إلى الفقيه عيسى وقال: والآن زِدني من حديثك الشهي يا عيسى؛ إنه يحيي مَوات نفوسنا ونحن في بلد لا يُفكِّر أحد من رجال الدولة فيها في الله سبحانه وتعالى. واستأنف عيسى حديثه فقال: والله إن هذا الرجل أهل لكل خير؛ فهو لا يعيش إلا للإسلام والجهاد في سبيله، وسلاحه القوي في جهاده إيمانه بالله سبحانه وتعالى. وإني لأذكر أن نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ست وخمسين وخمسمائة — أي منذ ثلاث سنوات — فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي المَلك العادل مع شرذمة قليلة وطائفة يسيرة واقفًا على تلٍّ يقال له تلُّ حبيش، وقد قرُب عسكر الكفار بحيث اختلط رَجَّالته المسلمون مع رَجَّالة الكفار، فوقف المَلك العادل بحذائهم مُولِّيًا وجهه إلى قِبلة الدعاء حاضرًا بجميع قلبه مُناجِيًا ربه يقول: «يا رب العباد — وأنا العبد الضعيف — ملَّكتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النيابة؛ عمرتُ بلادك ونصحتُ عبادك وأمرتُهم بما أمرتني به ونهيتُهم عما نهيتني عنه، فرفعتُ المُنكَرات من بينهم وأظهرت شعار دينك في بلادهم، وقد انهزم المسلمون وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيك محمد ﷺ ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سلَّمتُها إليهم ذابًّا عن دينك وناصرًا لنبيك.»

ثم سكت الفقيه عيسى لحظة وقال: فاستجاب الله تعالى دعاءه، وأوقع في قلوب أعدائه الرعب، وأرسل عليهم الخذلان؛ فوقفوا في مَواضِعهم وما جسروا على الأقدام عليه، وظنوا أن المَلك العادل عمل عليهم الحيلة، وأن عسكر المسلمين في الكمين؛ فإن أقدموا عليه يخرج العسكر من الكمين، فوقفوا وما أقدموا.

فقال القاضي الفاضل: مَرحى، مَرحى! إن هذا رَجل الإسلام وبطله، والله لَكأن هذا إلهام من الله سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لهُزم المسلمون وأُسروا.

وقال أبو الحسن: صدق رسول الله: «من كان لله كان الله له.» إن هذا هو الذي يستحق أن يكون الله له يا صديقي عبد الرحيم، لا أبو الحسن الرَّجل الفقير الذي يُعلِّم الصبيان القرآن.

ومال زين الدين على صديقه أبا الحسن وهمس في أذنه: والله إني لأتمنَّى في نفسي لو أن رجال هذه الدولة كانوا حاضرين هذا الحديث.

وبدا الفرح على الفقيه عيسى، وانفرجت أسارير وجهه، وملكت نشوة السرور عليه نفسه وكأنه تلميذ بارٌّ يستمع لتقريظ الناس لأستاذه، وراح يزيدهم من أخبار نور الدين، فقال: إن هذا صديقنا الفاضل عبد الرحيم سجنه ضرغام تسعة أشهر وهو بريء؛ لا لشيء إلا لأن الكامل بن شاور كان يختص به، ولكن استمعوا كيف يُعامِل نور الدين الفقهاء والعلماء والفقراء في مَملكته؛ قال لنور الدين مرة نفرٌ من أصحابه: «إن لك في بلادك إدرارات كثيرة، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية والقُراء، فلو استعنت بها الآن لَكان أمثَل!» فغضب نور الدين وقال: «والله إني لأرجو بأولئك النصر فإنما تُرزَقون وتُنصَرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قومٍ يُقاتِلون عني وأنا نائم في فراشي بسِهام لا تُخطئ، وأصرفها إلى من يُقاتِل عني إذا رآني بسِهام قد تُخطئ وتُصيب؟! ثم إن لهؤلاء القوم نصيبًا في بيت المال أصرفه إليهم كيف أُعطيه غيرهم؟!»

فصاح الحاضرون؛ فقد كانوا جميعًا فقهاء: الله أكبر! الله أكبر!

وقال الفقيه عمارة: إن هذا الرجل العظيم يُعيد سيرة الصحابة والخلفاء الأوَّلين، زاده الله عزًّا ومَجدًا.

في معسكر أسد الدين

كان أسد الدين شيركوه يروح في خيمته ويغدو ثائرًا مُحنَقًا كالأسد حُبس في قفص، وحوْله كبار رجال جيشه صامتين رهبةً واحترامًا، وجلس أسد الدين على كرسي هناك، وأمسك بسيف أمامه وضرب به المِنضَدة في عنف وقوة وقال: أرأيتك كيف غدر بنا هذا الكلب شاور؟

فقال شهاب الدين الحارمي: وهل جاءت رُسُله بالرد؟

– أجل جاءت الرُّسل، جاءت، جاءت.

فقال قائد آخر: فهل يسمح مولانا الأمير فيُطلِعنا على رأي هذا الرجل لنتدبَّر الأمر؟

فاعتدل أسد الدين في جلسته وقال: لقد لجأ هذا الرجل الماكر إلى المَلك العادل نور الدين، واستنجد به ضد عدُوه ضرغام؛ فأغاث نور الدين لهفته، وأمرَنا أن نسير بجيشنا لنُساعِده حتى يعود إلى الوزارة، وقد بذلنا كل جهدنا، وضحَّينا بالمال والرجال حتى حقَّقنا له رغبته، وقد مضى الآن شهر ونحن نُعسكِر خارج القاهرة ننتظر أن يفي هذا الغادر بوعده لنور الدين فما وفى، وأرسلت إليه رسولًا يُذكِّره بوعوده ويقول له إن مُقامنا في الخِيَم قد طال، وقد ضجر العسكر من الحَر والغبار.

ثم سكت لحظة وقال في صوت المُتذمِّر الساخط: أتعرفون ماذا كان جوابه؟! لقد أرسل إليَّ ثلاثين ألف دينار وقال: «إنك تستطيع أن ترحل في أمنِ الله ودَعته.» أجل! أستطيع أن أرحل في أمنِ الله ودَعته، هيه، يحسبنا هذا الرجل مَطايا تُوصِله لبُغْيته ثم تعود إلى مَرابِضها!

فقال صلاح الدين: لقد صدق ظن أبي وظني يا عمي. إن شاور رجل ماكر لا يسعى إلا للمُلك، وهو بعدُ ليس بالرَّجل، بل ليس بالكلب؛ إن الكلب يفي وهذا ولا وفاء عنده.

– صدقت يا صلاح الدين، ولكنني لم أسكت فأرسلت إليه رسولًا آخر يُذكِّره بنَص وعده لنور الدين، فإنك تذكر أنه وعده بثلث خراج مصر وأن يدين له بالولاء.

– فماذا كان جوابه يا عمي؟

– لجأ إلى الكذب، كذب وهو الوزير، وقال للرسول: «أنا ما وعدتُ بشيء مما تقول، وأنا طلبت نجدة من نور الدين لتحقيق رغبة خاصة، وقد حُقِّقت فلا بد من عودة الجند إلى الشام، وقد بعثت أسد الدين نفقة الجند فليأخذْها ولينصرف، وأنا أستطيع التفاهُم مع نور الدين».

فزمجر القُواد وقالوا في صوت حانق: يا له من ثعلب ماكر! أيَصِل به الكذب إلى هذا الحد؟!

وقال صلاح الدين: مُرْنا بقتله يا عمي نقتله.

وصدَّق القُواد على قوله والغضب يفور في صدورهم: أجل مُرْنا أيها الأمير، مُرْنا نأتِك برأسه.

فقال أسد الدين: صبرًا، صبرًا، واستمِعوا إلى بقية الحديث ففيه العجَب.

أرسلت إليه ثالثة أقول إنني أحمل أمرًا من نور الدين، ولا يُمكِنني مُخالَفته، ولا أستطيع الانصراف إلا إذا نفذ هذا الأمر. فكان جوابه أن أمر بإغلاق أبواب القاهرة وأخذ في الاستعداد للحصار.

فوقف الحارمي ساخطًا وهو يقول: ولمَ ننتظر أيها الأمير؟ إن هذا الثعلب الكاذب لا بد أن ينال جزاءه.

فقال أسد الدين: انتظر يا شهاب الدين، إن الحديث لم يَتم بل بقي منه الجزء المُر، الجزء الذي يُثيرني ويُؤلِمني ويحِز في نفسي. لقد أرسل شاور بعد ذلك إلى عدُونا مري مَلك الفرنج ببيت المقدس يستعين به ضدنا، ويقول: «خرج معي أسد الدين شيركوه ليُعينني على ضرغام، فلما وصل إلى مصر بجنده طمع فيها، ولو أن نور الدين ملَك مصر مُضافةً إلى الشام لَكان هذا إيذانًا بزوال مُلْكك؛ فاحضر ولك عن كل مرحلة نرحلها إلى ديار مصر ألف دينار.» وقد أتتني الجواسيس اليوم تُخبِر بتحرُّك مري بجيشه من عسقلان في طريقه إلى مصر؛ ولهذا رأيت أن أجمعكم لترَوا رأيكم.

فقال الياروقي: الرأي رأيك أيها الأمير، هذا الرجل يستحق العقاب فلنركبْ من الغد لمُقاتَلته.

فقال أسد الدين وكانت قد هدأت ثائرته بعد أن فرَّج عن نفسه بهذا الحديث: لنتدبر الأمر في رَوِية. إننا سنُقابِل بجيشنا هذا الصغير قوتين: قوة شاور داخل أسوار القاهرة،

وقوة الفرنج التي ستفد عن طريق الحوف الشرقي؛ ولهذا رأيت أن يسير صلاح الدين في قطعة من الجيش إلى بلبيس لجمع الغلال والأتبان والأحطاب وما تدعو إليه الحاجة، ليكون لنا كل ذلك ذخيرة هناك، ونبقى نحن هنا نُحارِب شاور، فإذا حضر الفرنج خرجنا لُملاقاتهم عند بلبيس.

فقال صلاح الدين: نِعم الرأي رأيك يا عمي! وسأخرج إلى بلبيس من الغد إن شاء الله.

وصل مري بعد قليل بجيشه إلى فاقوس، والمسافة بين عسقلان وبينها سبع وعشرون مرحلة، فأرسل إليه شاور سبعة وعشرين ألف دينار، وأسرع أسد الدين فسار بجيشه إلى بلبيس، وخرج شاور فلحِق بجيش الفرنج، وبدأت الحرب بين الجيشين. وأسد الدين يُدافع بجنده عن المدينة دفاع الأبطال، وجيشه يتناقص كل يوم، والذخيرة تقِل، والضيق يشتد به وبقُواده؛ فقد انقطعت سُبُل الاتصال بينه وبين نور الدين.

وفي ذات يوم بعد انقضاء نحو ثمانية أشهُر من بدء الحرب، بيْنا هو في خيمته يعرض الأمر على كبار قُواده كالمُعتاد ويسألهم الرأي والمَخرج من هذا المَأزِق، إذا بالحاجب يدخل فيقول: سيدي القائد، رسول من قِبل المَلك العادل نور الدين.

فدُهش الجميع وبدا الفرح على وجوههم، وقالوا جميعًا في صوت واحد: رسول من نور الدين؟!

وقال أسد الدين: أدخِله، أدخِله في الحال.

ودخل الرسول تبدو عليه آثار التعب واضحة، والعفر يعلو مَلابسه ووجهه، يحمل عَيبة ثقيلة وضعها أمام أسد الدين وقبَّل الأرض مُحيِّيًا. فقال أسد الدين: ما وراءك أيها الرسول؟ وكيف تركت مولانا الملك العادل؟ لعله في خير وصحة.

– إن مولاي المَلك العادل مُتمتِّع بنِعم الله عليه من صحة ونصر ولله الحمد، غير أنه في قلق مُستمِر على قائده العظيم أسد الدين وجنده البواسل في مصر؛ فقد وصلتْه رسالتك منذ أشهُر، وعلِم منها خبر النزاع بينكم وبين شاور، وعزْم الفرنج على المَسير إلى مصر. ثم انقطعت أخباركم عنه، فقلِق أشدَّ القلق وخاصة بعد أن علِم بوصول الفرنج إلى بلبيس واشتباككم معهم في الحرب.

فقال أسد الدين: إذن لم تصِل رسائلنا الأخيرة إلى المَلك العادل؟!

– لم تصِل يا سيدي، ولكن مولانا المَلك العادل كان طول هذه المدة يُناوِش الفرنج ويُناضِلهم في كل مكان، وكان النصر حليفه؛ فافتتح بانياس، وأغار على طبرية. وقد جمع

أعلام الفرنج وأمرَني أن أحملها إلى سيدي القائد لنشرها على أسوار بلبيس؛ كي يفتَّ ذلك في أعضاء العدُو، ويُدخِل الوهن على قلوبهم.

فقال أسد الدين: حفظ الله مولانا السلطان المَلك العادل وكتب له النصر دائمًا! وشكرًا له على ما فعل في سبيل الإسلام وسبيل جنده.

وألقى للنجاب سُرة فيها مائة دينار، وقال: خُذ هذه مُكافأةً لك، واذهب فأزِل عنك غبار السفر.

– الشكر لسيدي القائد.

وفي صباح الغد الباكر نُشرت أعلام الفرنج على أسوار بلبيس، وأمر أسد الدين جنده وقُواده بالاستعداد للقتال، وكان يمُر بينهم مُتفقِّدًا أحوالهم وهو في قلق شديد ينتظر ما سيكون لهذه الأعلام من أثر في نفوس أعدائه، ولما طال به الانتظار أمر حُراس الأسوار أن يرقبوا مُعسكَر العدُو في عناية، واتَّجه إلى خيمته الخاصة، ونادى ابن أخيه صلاح الدين، فلما حضر قال: تُرى ماذا سيكون مَوقِف مري وجيشه يا صلاح الدين؟

فأجاب صلاح الدين قائلًا: سيُصيبهم الهلع والفزع دون شك، وسيُقرِّرون الانسحاب.

– وهذا الرجل شاور؟

– لست أدري أي قرار سيتخذ، ولكَم أتمنَّى لو استطعت القبض عليه وقتله! فإن وزيرًا هذه أخلاقه لا يُمكِن أن تصلح البلاد تحت حكمه.

– لقد بتُّ أرى يا ابن أخي أنه لا بد لنا من الاستيلاء على هذا البلد لصالح الإسلام وصالح أهله، لقد كنت أحسب عندما كلَّفني نور الدين بهذه الغزاة أن في مصر قوة، فأقدمت وأنا أخشى أشياء كثيرة؛ كنت أخشى قوة الجيش المصري، فوجدته ضعيفًا لا يقوى على النضال بعد أن أفنى ضرغام خيرة رجاله، وكنت أخشى الخليفة ورجال القصر حوْله، فقد كان في ظني أنهم قوة لها خطرها، فإذا بي أجد الخليفة صبيًّا لا حول له ولا قوة يتحكم الوزراء في شئونه الخاصة والعامة، وليس له من المُلك إلا الاسم فقط.

ثم سكت أسد الدين لحظات كمن يتردد في الإفضاء بسرٍّ في نفسه يخشى أن يَذيع، ونظر إلى صلاح الدين نظرة طويلة قوية وقال: وكنت أخشى بعد ذلك أهل مصر، فقد كنت أحسبهم يدينون كخلفائهم بمَذهب الشيعة فلا بد أن يثوروا إذا أصاب خليفتهم أو وزيرهم مكروه، ولكنني وجدت هذا الشعب الطيِّب يئن ويتألم تحت نِير هؤلاء الخلفاء والوزراء الذين أهملوه في سبيل مَلاذِّهم ولهوهم ودسائسهم ونضالهم. أتعرف من الذي نقل إليَّ خبر استعداد شاور لمُحارَبتنا، وخبر استنجاده بمري مَلك بيت المقدس؟

– إنهم الجواسيس دون شك يا عمي.

– نعم إن من ينقل إلينا مثل هذه الأخبار يُسمَّى جاسوسًا، ولكن الذي فعل هذا رجل من أهل مصر.

– رجل من أهل مصر؟! وكيف؟

وهنا دخل الحاجب يستأذن لقائد حرس الأسوار فأَذِن له. ودخل فحيًّا القائد وقال: مولاي لقد ظلَّت عيون الحُراس يقِظة لكُل حركة تبدو من جيش العدو، فوجدنا الجنود تقِف في صفوفها مُستعِدة للنضال، وقذف النبال، وأُعِدت المجانيق لضرب الأسوار. ولكنهم ما لبثوا أن رأوا أعلامهم تطُل من فوق أسوارنا؛ فمال كلٌّ إلى رفيقه، واضطربت أمورهم واختل نظامهم، وأسرع بعضهم إلى خيمة مليكهم. فرأيناه يُسرِع على جواده بعد لحظات ليرى الأعلام بنفسه، فلما رآها علَت الكآبة وجهه ووجم قُواده، فانسحبوا جميعًا إلى خيمته. هذا ما لاحَظناه، ننقله إلى سيدي القائد اتباعًا لأمره.

– أحسنت وأحسن جنودك أيها القائد. اذهب فبلِّغهم رضائي، ومُرْهم أن يكونوا عيونًا يَواقِظ ترقُب كل شاردة وواردة في مُعسكَر العدُو طول يومنا هذا.

– سمعًا وطاعة يا مولاي.

وعاد أسد الدين يستأنف حديثه مع ابن أخيه، ومسح جبهته بيده كمن يتذكَّر أين وقف به الحديث، وقال: أين انتهى بنا الحديث يا صلاح الدين؟

– كنت تقول يا عمي إن رجلًا من أهل مصر نقل إليك أخبار شاور.

– صحيح. أتذكر ذلك الشيخ المصري المُسِن الذي قبض عليه جنودي ذات يوم، وأحضروه إلى خيمتي لأنه كان يحوم حول المُعسكَر ونحن نُقيم خارج القاهرة؟

– أجل أذكره جيدًا، الشيخ أبو الحسن، لقد حدَّثني عنه الفقيه عيسى الهكاري، وقال إنه قابَله مرة في مَنزل صديقه القاضي الفاضل وأثنى عليه ثناءً جمًّا.

– أيعرفه إذن الفقيه عيسى؟

– أجل يعرفه.

– لقد طلب ذلك الشيخ يومذاك أن يخلو بي، فلما أصبحنا على انفراد أفرغ ما في جُعبته من أخبار، ونقل إليَّ حديث شاور وما اعتزمه من نضالنا، وأنبأني بمضمون الرسائل التي أرسلها يطلب النجدة من مري. ولكن الأهم من هذا كله أنه حدَّثني كثيرًا عن آلام الناس في مصر وما يحسُّون من ضيق يكاد يكتم أنفاسهم تحت حكم هذا الخليفة ووزرائه المُتلاحِقين المُتناضِلين.

علمتُ منه أن الناس في مصر عُراة جياع مظلومون، وهؤلاء الحكام يعيشون عيشة البذخ والترف والأبهة. علمتُ منه أن طائفة كبيرة من أهل مصر سُنِّيون، ولكنهم لا يستطيعون المُجاهَرة بما يدينون به لهَول ما يلقى الفرد منهم إذا أصرح برأي يُخالِف المذهب الشيعي.

– إذن لماذا لا يثور عامة المصريين ضد حكامهم هؤلاء يا عمي؟!

– أتنتظر من الجائع أن يثور يا صلاح الدين؟ أتنتظر من الرجل الأعزل أن يثور؟ أطعِمْهم وجَنِّدهم وأعطِهم سلاحًا وانظر ماذا يفعلون. إن أهل مصر رجال أشِداء؛ فإني كنت ألمح الفرد منهم تلوح عليه مَظاهر القوة والعزة ولكنهم مغلوبون على أمرهم. إنهم يبذلون في فلح الأرض وزرعها مجهودًا يبُذ مجهود الجنود في مَيادين القتال؛ لأن مجهودهم مُتصِل مُستمِر، ومجهود الجندي ينتهي بانتهاء المعركة.

– إن هذا حديث عجيب يا عمي، لقد أصبحت أرى أنه من الواجب علينا إنقاذ أهل مصر من هؤلاء الحكام، فهم مسلمون يلقَون ضيرًا، وماذا نفعل نحن الشام؟ وماذا سيفعل سلطاننا نور الدين؟ إننا نُناضِل الفرنج من أجل المسلمين وبلاد المسلمين.

– أجل وبلاد المسلمين. وهل في بلاد المسلمين خير من مصر؟! لو كنت أعلم هذا كله قبل مَجيئي لطلبت من نور الدين جيشًا قويًّا، ولَكان لي شأن غير هذا، هيه، من يدري يا صلاح الدين ماذا تُكِنه لنا الأقدار غدًا، بل بعد لحظات؟! والآن اذهب لتُشرِف على جند الأسوار. وسأذهب أنا للإشراف على بقية الجند؛ فإني أرى أن يكونوا على استعداد طول اليوم حتى نرى قرار العدو بعد هذه المفاجأة. ولتُوافِني هنا بعد صلاة العصر؛ فقد يجدُّ جديد.

الصلح

خرج أسد الدين فمرَّ بين صفوف الجند يتفقد شئونهم، ويبعث الطمأنينة في قلوبهم، ويُصدِر أوامره بإعداد المجانيق، وأن يكون الجميع على استعداد تام. وبيْنا هو في ذلك إذ بجندي يعدو على جواده ويقِف أمامه، ويقول: مولاي، لقد أمسكنا بشحَّاذ مسكين مُهلهَل الملابس، يحوم حول السور ويُشير بعصاه للحرس، وهو يُصِر على مُقابَلة سيدي القائد.

– شحاذ يُريد مُقابَلتي؟ غريب هذا! ولكن مصر بلد العجائب!

وقال أحد القُواد: احترس يا مولاي، فقد تكون له نية سيئة، وقد يكون يُخفي سلاحًا ويُريد غدرًا.

فقال الجندي: لقد فتَّشناه يا مولاي، فلمْ نجد معه إلا عصاه التي يتوكَّأ عليها، وهو رجل مُسِن ضعيف.

فقال أسد الدين: أحضِره إلى خيمتي، وسأذهب إلى هناك.

ثم نادى صلاح الدين ليتبعه إلى الخيمة. وجلس أسد الدين في خيمته، ومعه صلاح الدين. وبعد قليل دخل أحد الجنود يقود شيخًا مُسنًّا ذا لحية بيضاء، وعلى عينيه عصابة تُخفيهما، وبيده عصًا يتوكأ عليها، ومَلابسه رثَّة ولكنها نظيفة، وفي قدميه خُفان عتيقان. فقال أسد الدين: تقدَّم يا شيخ. هل لك من حاجة فنقضيها؟

– لا زلتَ مَلاذ كل فقير، ونصير كل ضعيف يا مولاي، حفظك الله ونصرك وأكرمك.

فأحس أسد الدين كأنه سمع هذا الصوت من قبل، وراح يُمعِن النظر إلى مَلامح هذا الرجل، ويبحث في ذاكرته؛ أين رأى هذا الوجه، وأين سمع هذا الصوت؟

وقال: يُخيَّل إليَّ أنني سمعت هذا الصوت من قبل يا شيخ؛ فمن تكون؟

فرفع الرجل العصابة عن عينيه، واعتدل قليلًا في وقفته بعد أن كان مُنحنِيًا، وقال: أجل، لقد سبق أن تشرَّفت أنا بمُقابَلة القائد البطل أسد الدين.

فصاح أسد الدين دهشًا، وقام فمدَّ يده للرجل مُحيِّيًا، وقال: أبو الحسن! أهلًا. أهلًا. تفضَّل فاجلس إننا نَدين لك بالكثير يا صديقي. أين كنت طول هذا الوقت؟ ولِمَ لم تتفضل بزيارتنا؟

– شكرًا يا سيدي شكرًا. لستُ أهلًا لكل هذا الإكرام.

– وما هذه الملابس يا أبا الحسن؟ صانك الله من كل ضَيم.

– أنا في خير والحمد لله يا مولاي، ولكن لولا هذه الملابس لما وصلت إلى هنا، ثم تلفَّت حوْله وسأل أسد الدين: هل هناك من يسمعنا؟

– لا يا أبا الحسن، اطمئن فالجنود جميعًا في المَصَف استعدادًا للقتال، فما وراءك؟

– لقد جئتك بالبشرى أيها القائد العظيم؛ فقد ذُعر الفرنج اليوم لما رأوا أعلامهم على أسوار بلبيس، وخافوا على أملاكهم في الشام؛ لأنهم اعتقدوا أن نور الدين قد سلبهم إياها، فتحدَّثوا إلى شاور في ضرورة الانسحاب والعودة إلى الشام. ولا تسَل عن مبلغ هلعه وخوفه عند ذاك؛ فإنه سألهم أن يُمهِلوه ثلاثة أيام ليتدبر في أمره.

– حمدًا لله يا أبا الحسن، لقد كنت أتوقَّع هذا، وماذا ترى شاور فاعلًا الآن؟

– لقد سمعت يا سيدي أنه سيعرض عليكم الصلح.

فنظر أسد الدين إلى ابن أخيه وقال: أرأيت يا صلاح الدين! لقد نجحت خُطة سلطاننا نور الدين. فما رأيك الآن؟!

فنظر صلاح الدين إلى عمه ثم إلى أبي الحسن، وتردَّد قليلًا.

فقال أسد الدين: تكلَّم يا صلاح الدين ولا تخَف؛ فلقد غدا أبو الحسن فردًا منا، فهو يسعى لنصرنا.

– رأيي يا عمي أن نناضل هذا الرجل بعد سفر الفرنج حتى نقتله ونُخلِّص البلد من ظلمه.

وهنا دخل الحاجب وقال: مولاي، حضر الآن إلى المُعسكَر الأمير شمس الخلافة المصري رسولًا من قِبل الوزير شاور.

فارتبك أبو الحسن قليلًا وهمس في أُذُن أسد الدين: لقد حضر يعرض شروط الصلح يا سيدي، ولا بد لي من الخروج من هنا الآن لئلا يراني، فهو يعرفني حق المعرفة.

فسأل أسد الدين الحاجب: وأين هو الآن؟

– إنه ينتظر في خيمة عند باب المُعسكَر.

– إذن، اصحب ضيفنا هذا إلى الخيمة المُجاوِرة، ومهِّد له سُبُل الراحة كلها. ثم أرسل أحد الجند ليصحب الأمير شمس الخلافة إلى هنا.

وخرج أبو الحسن في صحبة الجندي. وبعد قليل حضر شمس الخلافة، ودخل فحيًّا وقال: سلام الله على القائد العظيم أسد الدين، وعلى الشاب البطل صلاح الدين.

فقال أسد الدين: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تفضل فاجلس، كيف حال شاور؟ لعله في خير ولعله مُطمئن إلى صحبة أصدقائه الفرنج؟

– إن شاور حمَّلني السلام إلى القائد العظيم أسد الدين، وهو يقول إن قُوى المسلمين في جيشَينا نالها الوهن؛ فمن الخير أن نضع حدًّا لهذا القتال.

– وهل أنا الذي بدأت القتال يا شمس الخلافة؟

– في الحق إن لشاور بعض العذر، ورغم ...

فقاطَعه أسد الدين غاضبًا وقال: أي عذر لشاور؟ أله العذر ألا يفي بوعده لنور الدين ويُغرِّر بي؟! أله العذر أن يستنجد بجند أعدائنا الفرنج ليُحارِبنا بعد أن أعنَّاه وأغثناه وأعدناه لمُلكه وقضينا على عدوه؟! أي عذر جئتَ تلتمس لسيدك؟!

وقال صلاح الدين: لقد جازانا شاور جزاءَ سنمار يا شمس الخلافة.

فارتبك شمس الخلافة قليلًا وقال: لقد كنت أريد أن أقول يا سيدي القائد بعض ما لم تعلما من أمر شاور: لقد كان في مَسلكه — رغم كل ما حدث — بعض الخير. إنه يعلم أن جيش الفرنج قوي وكثير العَدد والعُدة، وكان في قدرتهم التغلُّب على جيشكم، ولكن شاور كان يعلم أن في نصرة الفرنج هزيمةً لجندكم المسلمين، ثم إنه كان يخشى أن يفتح الفرنج بلبيس فيطمعوا فيها وفي البلاد بحجة أنهم فتحوها بالسيف؛ ولهذا كان يُثني عزمهم عن القتال دائمًا، وما من يوم كان يمضي إلا ويُنفِذ إلى كبار الفرنج الجملة من المال، ويسألهم أن يدفعوا المَلك عن الزحف والقتال؛ فهو بهذا أدَّى لجيشكم خدمة كبيرة.

فقال صلاح الدين: هذا كلام له خبيءٌ معناه ليست لنا عقول.

وقال أسد الدين: وبعد، إننا نعلم كل ما تُريد أن تقول، ولا داعي لكل هذه المُقدِّمات وهذا المنِّ علينا ولا مَن. إن صاحبك يطلب الصلح، أليس كذلك؟

– إنه يُريد حَقن دماء المسلمين من الجيشَين.

فقال أسد الدين في تهكُّم مرير: حَقن دماء المسلمين؟ هيه، ومتى كان شاور يُفكِّر في دماء المسلمين؟ قُل كلامًا غير هذا.

– لقد سعى شاور حتى أقنع الفرنج بالرحيل، ولكنهم اشترطوا لرحيلهم أن يرحل جيشكم أيضًا.

– ثم ماذا؟

– وهو يُقدِّم للقائد أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى نفقةً لجنده.

– أيحسبنا شاور أطفالًا تخدعنا ألاعيبه؟ أو ممن يُغريهم بريق المال؟

– لا يا سيدي القائد. إن شاور لا يقصد إلى هذا، إن جنود المسلمين يُقتَلون كل يوم من جيشنا وجيشكم، وفي هذا تقوية للفرنج. فإن كان القائد العظيم أسد الدين بطل الإسلام المُخلِص الأمين لا يقبل قول شاور، فإني أتوسَّل إليه أن ينظر إلى صالح المسلمين وصالح الإسلام، وأن يتناسى حقده على شاور في سبيل هذا الصالح.

وكأن شمس الخلافة كان يضرب على الوتَر الحسَّاس، ويُحدِّث ناحية الضعف بل ناحية القوة في أسد الدين. فخفَّت حِدته قليلًا، وأخذ يُفكِّر في مَوقفه، ومَوقف جيشه في مصر؛ فوجد أن جيشه لم يعُد في قوة تُمكِّنه من النضال، وخشي إن هو رفض شروط الصلح أن يعدل الفرنج عن الرحيل ويُهاجِموه في عنف، لتنتهي مَهمَّتهم في سرعة ليعودوا إلى بلادهم، ورأى أخيرًا أن من الخير أن يقبل هذا الصلح وينسحب من مصر، ولكن ليعود إليها أوفرَ سلاحًا وأكثر جندًا وأقوى عُدة.

فالتفت إلى شمس الخلافة وقال: لصالِح المسلمين قبِلتُ الصلح لا لشاور. ولكن لي شروطًا فإني أخشى الغدر، والمؤمن لا يُلدَغ من جُحر مرتين.

– مُر يا مولاي.

– إني أشترط أن يُسافِر الفرنج أولًا ثم أتبعهم أنا بجيشي.

– وهل يُنفِّذ سيدي القائد ما يقول؟

فأجاب أسد الدين في سخرية لاذعة: لست شاور يا شمس الخلافة. أنا أسد الدين، وإذا وعدت فإنني أفي ولو كلَّفني الوفاء جيشي ونفسي.

وفي اليوم التالي أذِن أسد الدين لجنده بالراحة والنزهة أنَّى شاءوا، فخرجوا جماعاتٍ وانبثُّوا في أنحاء المنطقة المُجاوِرة، واختلطوا بجند الفرنج يتسابقون ويتبارون ويتحدثون. وخرج أسد الدين على جواده مُسترِوحًا وبيده لتٌّ من حديد ومعه بعض قُواده، والمسلمون والفرنج يرمقونه بأنظارهم إعجابًا وتقديرًا. فتقدَّم إليه جندي من الفرنج وقال: أيها القائد العظيم، أما تخاف هؤلاء الفرنج وهم يُحيطون بك وبجندك، ولو أقدموا الآن لقبضوا عليكم؟

فنظر إليه أسد الدين نظرة المُعتَز بشجاعته وقوته وقال: ليتهم يفعلون! فإني والله كنت أضع السيف فيهم فلا أقتل حتى أقتل رجالًا، ثم يقصدهم المَلك العادل نور الدين فيُفني من بقي منهم. والله لو طاوَعني هذا الرجل شاور لخرجت إليهم فأفنيتهم جميعًا.

فذُعر الفرنجي وخاف وصلُب على وجهه وقال: والله لقد كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومُبالَغتهم في وصفكم، والآن قد عذرناهم. ونظر الجندي إلى رفاقه وقال: هلُموا بنا.

فابتسم أسد الدين ونظر إليه نظرة الرجل الكبير إلى الطفل المغلوب على أمره.

وبعد أيام خرج الفرنج مُسرِعين إلى بلاد الساحل، ورحل أسد الدين بجيشه بعدهم بثلاثة أيام، وقد عقد الأمل على العودة سريعًا إلى مصر لتأديب شاور، ورفع الظلم عن كاهل أهل مصر ومُلكها. أجل ومُلك مصر؛ فقد كان أسد الدين طموحًا ذا نفس عالية لا ترضى بالدُّون ولا تقنع بالقليل.

عبد الرحمن يُحذِّر

انقضى عام وبعض العام بعد خروج الجيش. وشاور فرِح مُغتبِط؛ فقد عادت إليه السُّلطة كلها كما كانت، فاستبد بها وجعل كل همه تتبُّع كل من علِم أنه قد كان بينه وبين أسد الدين صلة أو معرفة أو صحبة، فقتل نفرًا منهم وشرَّد نفرًا آخرين. وأصبح أهل مصر في خوف من عيون شاور وجنده، لا يكاد واحد منهم يتحدث عن أسد الدين أو رجاله إلا في اقتصاد وسرٍّ وكتمان.

وفي ضُحى يومٍ بيْنا أبو الحسن جالس في داره بالفسطاط، وأمامه تلاميذه من صبيان المدينة يحفظون القرآن، إذ دخل عليه صديقه عبد الرحمن القوصي، وقال: السلام عليك يا أبا الحسن.

– وعليك سلام الله ورحماته وبركاته. كيف حالك يا عبد الرحمن؟ تفضَّل.

وجلس عبد الرحمن وراح الرَّجلان يطرقان بحديثهما كل ناحية، والحديث ذو شجون. كل هذا وأبو الحسن مُنتبِه لصبيانه، كُلما أخطأ أحدهم أو تلعثم ردَّه إلى الصواب. فلما حل مَوعِد الظهر ختم كل صبي المُقرَّر عليه، وتقدَّم إلى شيخه فقبَّل يده وحمل لوحه وانصرف.

فلما خلا المكان بالرَّجلين، قال عبد الرحمن: جئتك اليوم مُحذِّرًا يا أبا الحسن.

فضحك أبو الحسن وقال: مُحذِّرًا! وممن يا بُني؟! فلستُ من رجال الدولة حتى يكون لي أعداء.

– لقد غدوتَ من رجال الدولة يا صاحبي. لا، بل من أخطر رجالها.

– وكيف؟

– أتتذكر إذ كنا جلوسًا في سوق الورَّاقين منذ أسبوع تُساوِم ذلك الكُتبي لشراء كتاب «فضائل مصر» لابن زولاق.

– أجل أذكر ذلك جيدًا وأنه رفض بيعه بعشرة دنانير، وقد أخبرتني أنت أنك اشتريته منه بعد يومين باثني عشر دينارًا.

– ليس هذا موضوع حديثي يا أبا الحسن. أتذكر ذلك القائد الكردي الذي حضر ونحن جلوس فسلَّم عليَّ، وتقدَّم لشراء بعض الكتب؟

– أجل أذكره؛ فقد لفت نظري بِكلُّوتته الصفراء على رأسه بغير عمامة، وذؤابة شَعره الطويل مُرخاةً تحتها وملابسه الكردية؛ وذلك لكثرة ما رأيت جند أسد الدين واختلطت بهم — فهذه ملابسهم — وقد عرفت يومذاك أن هذا القائد ممن استفسدهم شاور من رجال أسد الدين.

– هذا صحيح يا أبا الحسن، وإن لهذا الرجل قصة.

– ومن من الرجال ليس له قصة يا عبد الرحمن؟ هاتِ ما عندك.

– هذا القائد اسمه خشترين الكردي، وهو كما تقول ممن استفسدهم شاور من رجال أسد الدين، وقد أقطعه شطنوف، ولكن لنتركه قليلًا لأبدأ لك القصة من طرف آخر. أنت تعرف أنني أنسخ الكتب منذ ذلك اليوم المشئوم الذي خرجت فيه. للأمير شمس الخلافة ولهذا الأمير ولعٌ شديد بالكتب واقتنائها، وله مكتبة كبيرة تضم كل طريف وتليد وعجيب، وقد وجدت في هذا العمل أكبر لذة؛ لأنني ما هاجرت من قوص إلا طلبًا للعلم، فكنت أقضي يومي كله في المكتبة أنسخ وأقرأ، واطمأن الأمير إليَّ وإلى عملي، وأعجبه خطي ونقلي؛ فزاد في أجري. وحمدتُ الله على ذلك.

– أعرف هذا كله يا عبد الرحمن، فماذا وراءه؟

– وراءه أن للأمير بنتًا صغيرة تبلغ من العمر نحو الثلاثة عشر أو الأربعة عشر عامًا.

– وأظنها ذات جمال باهر ساحر يا عبد الرحمن.

– إنها لكذلك. وتمتاز أيضًا بعقل راجح وذكاء نادر. ولكن دعنا من هذا، ففي ذات يوم …

فضحك أبو الحسن وقال مُلاطِفًا: أنا أستطيع أن أُكمِل لك القصة. وفي ذات يوم رأيتها وحدثتها فأعجبتك و…

فاحمرَّ وجه عبد الرحمن خجلًا وثار قائلًا: لا يا أبا الحسن. لست أُريد أن أقول هذا. دعني أُكمل قصتي. في ذات يوم جاء الأمير شمس الخلافة لينظر في بعض الكتب، فرآني

مُنكبًّا على عملي، فحدَّثني عن رغبته في أن أتولَّى تفقيه ابنته هذه في دينها بعد أن حفظت القرآن، فترددت أولًا، ثم قبلت بعد إلحاح.

– أقول لك الحق يا صديقي، أنا لا أعرف صلة بين قصتك هذه وبين تحذيري الذي جئت من أجله.

فضحك عبد الرحمن وقال: ما لصبرك ينفذ بهذه السرعة يا أبا الحسن؟ هل أقول كما قال صاحب موسى ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟ لا بد من هذه المُقدِّمات لأَصِل إلى ما أُريد قوله الآن.

– قُل يا سيدي.

– وفي قصر الخليفة جارية رائعة الجمال، بارعة في الغناء والعزف على العود، اسمها ريحانة، وهي تحضر دائمًا إلى قصر الأمير لتُعلِّم بنته الغناء والموسيقى. وهذه الجارية أيضًا تُحِب الكتب وتقرؤها؛ فكانت إذا حضرت ورأتني أُدرِّس لفاطمة بنت الأمير، جلست عن قرب تستمع إلى درسي حتى ينتهي، فتصحبها إلى غرفة أخرى حيث تبدأ درسها. وإن لها صوتًا حلوًا كان يصِل إليَّ وأنا أنسخ أو أقرأ؛ فيشغلني قليلًا عن عملي وإن كان يُرفِّه عني ويُخفِّف بعض ما أُحِس من ضيق.

فغضب أبو الحسن وصاح في رفيقه: والله لو كنتُ أيوب لنفد صبري!

فضحك عبد الرحمن وقال: انتهينا يا أبا الحسن. وصلنا إلى بيت القصيد: وهذا القائد الكردي خشترين كما رأيت؛ شغفٌ بالكتب، يُحِبها ويقضي معها وقتًا طويلًا. وكان لصداقته الأكيدة مع الأمير شمس الخلافة، يتردد على مكتبته فيختار بعض الكتب أو ينتحي ناحية فيقرأ. وفي هذا المكان رأى ريحانة وسمع صوتها. وأغلب ظني أنها أعجبته وأنه أحبها؛ فقد كثر حضوره إلى المكتبة عن ذي قبلُ، كما طالت مُدة إقامته بها.

فقال أبو الحسن: وما لي أنا يا سيدي ولهذه الجارية ومن يُحِبها؟! قُم بنا نُصلِّي الظهر ثم نتناول غداءنا، فقد بلغ مني الجوع مَبلغه.

– انتظر قليلًا يا أبا الحسن.

ومنذ يومين جلس إليَّ هذا القائد، يتجاذب وإياي أطراف الحديث عن الكتب قديمها وحديثها، ثم سألني: من هذا الشيخ المُسِن الذي كان يجلس معك عند الورَّاق يا شيخ عبد الرحمن؟

فعجبت وقلت: إنه رجل يُدعى أبا الحسن، وهو رجل طيِّب كريم النفس والقلب.

فردَّ مُتهكِّمًا: يبدو عليه هذا. ثم استأذن وانصرف.

وبالأمس عند الأصيل جاءني رسول من قصر الخليفة يطلبني لمُقابَلة القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء، فذهبت وأنا خائف أن يكون في الأمر شيء، فأنت تعلم كثرة الوشايات والدسائس هذه الأيام وكيف تُودي بالأبرياء.

– أجل أعرف يا عبد الرحمن، وتأكَّد أن لا بد لهذا الظلم من آخِر. ولماذا كان يُريدك القاضي الفاضل؟

– كان في حضرته بعض الكُتاب، فتظاهَر أمامهم أنه يُكلِّفني بنسخ ديوان شعر كان بيده لأستاذه ابن قادوس الدمياطي رحمه الله، ورأيته يدُس في الكتاب ورقة صغيرة وينظر إليَّ، فلما خرجت تصفَّحت الديوان وقرأت الورقة، فإذا بها: «حذِّر صديقك أبا الحسن؛ فإن خشترين قد وشى به لدى الوزير شاور، وأخبر أنه رآه أكثر من مرة في مُعسكَر أسد الدين.» وقد جئتك اليوم مُحذِّرًا.

فربَّت أبو الحسن على كتف جليسه وضحك طويلًا ولحيته تهتز مع ضحكاته، وقال: لقد «حلونت» روحي يا عبد الرحمن، وكنت أظن الأمر أخطر من هذا. أتُحذِّرني من شاور!

– أجل. إنه لرجل غادر، وإذا صح لديه ما بلغه فسيأخذك بالعقاب شديد.

– وماذا تُراه يفعل؟

– إنه لا يعرف غير القتل والسجن والتشريد.

– وماذا بقي لي في الحياة يا عبد الرحمن أحرص عليه؟ لقد بلَونا الأيام حُلوها ومُرها يا بُني؛ فلنشرب الكأس حتى الثُّمالة.

– ولكن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فما دمتَ تعلَم مصدر الخطر فيجب أن تبتعد عنه.

– وبماذا تُشير يا عبد الرحمن؟

– الرأي عندي أن تختفي في مَنزل أحد أصدقائك حتى تنجلي الغمة.

– لا يا صديقي، فأنا لا أخشى شاور. والآن دعنا من هذا، هيا بنا نُصلِّي الظهر لئلا يفوتنا، ثم نأكل لقمة؛ ألمْ تشعر بالجوع يا أخي؟

وبدأ أبو الحسن الأذان في صوت خفيض، ولم يكَد ينتهي منه ويبدأ الصلاة وخلفه عبد الرحمن مُؤتمًّا به، حتى سُمِعت جلبة وقعقعة سلاح ثم دقٌّ قوي على الباب. فلما لم يجد الطارقون مُجيبًا حرَّكوا الباب فانفتح في سهولة ودخلوا، فإذا بهم بعض جند شاور. وراعهم أن وجدوا المكان قفرًا وبه حصير وقف عليها الشيخ الذي جاءوا للقبض عليه يُصلِّي وخلفه شابٌّ من ذوي العمائم، وكان الشيخ يقرأ — في صوت يتهدج من فعل

السنين وضعف الشيخوخة — قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

– الله أكبر.

قالها الشيخ في صوت قوي فيه كل معاني الايمان بالله، وكأنه كان يقول للقوم وهو لا يُحِس بهم: لتأتِ جنود شاور كلهم، وليأتِ شاور نفسه؛ فهل يستطيع أن يَقربني وأنا بين يدَي الله القوي المُتعالِ، المُعِز المُذِل الجبار؟ اذهبوا لو كان في قلوبكم أثارة من إيمان بالله فقولوا لسيدكم: إن أبا الحسن بين يدَي ربه.

ولكن الجند كانوا في عجَب مما وجدوا، ينظر الواحد إلى الآخر ولا يتكلمون، ويستمعون إلى ذلك الصوت الضعيف الجميل رغم ضعفه وهو يتلو آي الله وحكمه؛ فخشعت قلوبهم لحظات، ووقفوا ينتظرون حتى ركع المُصلِّيان وسجدا ثم وقفا. وقرأ أبو الحسن الفاتحة بصوت أكثر ارتفاعًا، ثم بدأ يتلو بقية صورة يونس من حيث وقف، وأطال القراءة هذه المرة وكأنه يقول للجند: استمعوا لكلام الله خير لكم من أوامر شاور، وانتظروا ولو طال بكم الانتظار حتى الغد حتى أنتهي من مُقابَلة ربي، فهو ربي وربكم ورب وزيركم شاور. إنه أعلى يدًا، وأعز مقامًا.

– ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ

إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ...﴾.

الله أكبر.

وركع أبو الحسن وركع عبد الرحمن وانتهَيا من الصلاة.

فالتفت أحد الجند وقال: يا أبا الحسن هل لك أن تصحبنا، فإن الوزير يطلبك؟

فلبس خُفَّيه، وقال: هيا يا سادة.

ولكن عبد الرحمن التفت لواحد من الجند وقال: لاحول ولا قوة إلا بالله! هلا انتظرتم قليلًا فإن الرجل لم يطعم بعد.

فقال أبو الحسن: لا يا عبد الرحمن، لقد اغتذيت وشبعت. إنني أُحِس بفيض من السرور يملأ عليَّ جوانحي ونفسي، فهذه خير صلاة صلَّيتها في حياتي. ألست تعلم أن التقوى هي خير زاد للمُؤمِن؟ والله إنني لأُحِس وكأنني أكلت خروفًا الآن!

وخرج أبو الحسن فأقفل داره وأعطى مفتاحها لعبد الرحمن، وقال: احتفظ به يا صديقي معك؛ فإن كان في العمر بقية وعدتُ أخذته منك، وإن كان من حظي أن ألقى الله سريعًا فوزِّع ما في الدار على الفقراء.

فتألَّم عبد الرحمن وبكى ومدَّ يده لصديقه مُحيِّيًا، ووقف يرمُقه بنظره مُودِّعًا وهو يسير بين الجند. فلما توارى عن ناظرَيه أحس كأن قلبه قد انفطر، وأحس في عقله نشاطًا قويًّا كأنه صحا من غفوة طويلة، فرأى أن يقصد في الحال إلى القاضي الفاضل، فيروي له ما حدث؛ لعله يجد لصديقه مَخرجًا، أو لعله يشفع له عند شاور.

بين شاور وأبي الحسن

كان شاور وحيدًا في غرفته بدار الوزارة يُفكِّر ثائرًا: كيف يجرؤ هذا الرجل الصعلوك — مُعلِّم الصبيان — على الاتصال بأسد الدين؟ ويسأل نفسه: تُرى لماذا كان يذهب هذا الرجل إلى مُعسكَر أسد الدين، ويُقابِله في خيمته الخاصة على انفراد أكثر من مرة؟

لا بد أنه كان ينقل إليه أخبارنا. ونظر من النافذة المُطِلة على القصرَين والميدان بينهما: تُرى ما الذي أخَّر الجند؟ أيكون الرجل قد فرَّ فهم يبحثون عنه؟

وهكذا كان شاور يضطرب بين أفكاره، وقد أقلقه الانتظار وضايَقه. وبعد مدة رأى الجند يتقدمون نحو الدار، وبينهم شيخ طويل وقور، انحنت هامَته قليلًا، يمشي في تُؤدة وهوادة واطمئنان. فجلس على أريكة في صدر الغرفة ينتظر قدومهم. وبعد لحظات دخل أبو الحسن يحرسه الجند الذين قبَّلوا الأرض بين يدَي الوزير وانصرفوا.

وقال أبو الحسن: السلام عليك أيها الوزير.

فقال شاور مُحتدًّا: لا سلَّم الله عليك، أيها الرجل الخائن.

فقال أبو الحسن في هدوئه المُعتاد: ليست هذه تحية الإسلام أيها الوزير. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

– لستَ أهلًا للتحية. أتخوننا وتُريد لنا السلام؟ قل لي أصحيح أنك كنت تزور أسد الدين في مُعسكَره؟

– صحيح.

– وتعترف أيضًا! والله لأُذيقنك من العذاب ألوانًا. ولماذا كنت تذهب إلى هناك؟

– كان لي أصدقاء كنت أذهب لزيارتهم.

– ما شاء الله! رجل عظيم! صعلوك، مُعلِّم صبيان، له أصدقاء في جند أسد الدين. بل أسد الدين نفسه صديقه يُقابِله في خيمته على انفراد.

فرفع أبو الحسن رأسه شامخًا بأنفه وقال في ازدراء: أما وقد وصل بنا الحديث إلى هذا الحد فاسمع يا شاور: لستَ أنت الذي تقدر الناس حق قدرهم. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، هذا ميزان الرجال عند الله سبحانه وتعالى. فقل لي من تكون إذن؟

فاحتدم شاور غيظًا وتقدَّم نحو الشيخ أبي الحسن مُهدِّدًا وعيناه تنطقان بالشر.

– لقد زدت عن حَدك يا شيخ النحس. والله لآمُرن بقتلك ولتكونن جيفة تنهشها الكلاب.

فضحك أبو الحسن وقال: لست أُبالي إن أتى الموت كيف أكون ولا أين تُلقى رُفاتي.

– لستَ تُبالي؟ ستري. لأُذيقنكم العذاب ألوانًا حتى تعرف من شاور.

– أنا أعرفك جيدًا يا شاور، وكل مصري يعرفك. وكم من بريء ذاق طعم ذلك، وكم من مسكين قضيتَ عليه بظلمك وغدرك! أنت هنا في سياج من القصور والجند والشيعة الذين لا يردُّون إليك ولا يصدرون عنك إلا وألسنتهم تلهج بآيات حمدك ومدحك. تخطَّ هذا السياج وأزِح عنك هذه الملابس التي تُميِّزك، وأبعد عنك هذا الجند الذي يُرهِب ويُرعِب، وامشِ في الأسواق وتحدَّث إلى الناس واستمع إليهم؛ تعرف من أنت. إن أهل مصر يئنُّون من ظلمك وظلم أهلك وجندك. إنهم يُنزِلون عليك السخط ليلهم ونهارهم؛ لأنك استنجدت بالفرنج أعداء دينهم وجرَّأتهم على بلادهم. هؤلاء أهل مصر وهذا أنت يا شاور.

وهكذا أحس أبو الحسن في نفسه قوة غريبة تنساب في عروقه، فاندفع في مُهاجَمة شاور بهذا الكلام الجريء، فكان يهدر كالجَمل، ويُلقي بالجملة بعد الجملة وكأنها السهام تنفذ إلى صدر شاور، حتى بُهت الرجل وفغر فاه، ونظر إلى الشيخ مشدوهًا وكلماته تتزاحم في رأسه وترسم له صورة من سخط العامة المكبوت.

فلما رآه أبو الحسن صامتًا لا يَريم راح يُكمِل حديثه أكثر عنفًا واستهتارًا من قبل: ثم تلومني لاتصالي بأسد الدين. وما جريرة أسد الدين؟ هل هو كافر من الكفار؟ هل هو عدُو من الأعداء؟ أليس هو الذي سار بجيشه وحارَب وضحَّى بالكثير ليُعيدك إلى دَست الوزارة؟ فلما عدتَ إليها غدرت به واستنجدت بأعدائه وأعداء بلادك ودينك ضده؟!

وهنا غلا الدم في عروق شاور، وأحس كأن هذا الشيخ الضعيف يكشف عنه مَلابسه قطعةً قطعة، ويُظهِر سوءاته للناس أجمعين؛ فصرخ فيه صرخة الأسد: اسكت. اسكت يا أشأم الشيوخ وألعَنهم. لقد تجرَّأت على مقامي ومقام الوزارة.

وهمَّ بإشهار سيفه وقال: والله لا يُسكِتك إلا هذا السيف، يطير بهذه الرأس إلى الجحيم، إلى سقر، إلى أسوأ المَواطن وشر الأماكن.

وهنا دخل الحاجب يستأذن لكاتب الإنشاء القاضي الفاضل، فأذِن له.

ودخل القاضي الفاضل وبيده بعض الأوراق فرأى ما أفزعه؛ رأى شاور كالأسد الثائر يُرغي ويُزبد، ويشتم ويلعن، وقد أشهر سيفه في يده. وفي آخر الغرفة عند الباب الشيخ أبو الحسن واقف في وقاره المعهود وهدوئه المألوف، وعلى فمه ابتسامة فاترة تنطق بكل معاني الاستخفاف والازدراء والسخرية. فعلِم أن الأمر جِد خطير وقال: سيدي الوزير، لعلي جئت في وقت غير مُناسِب، أو لعلي جئت في الوقت المُناسِب. هل يتكرم مولاي الوزير فيُخبِرني عن سر غضبه.

فقال شاور وصدره لا يزال يعلو ويهبط من أثر الغيظ: إن هذا الشيخ اللئيم بلغت منه الوقاحة أن يُهاجِمني بكلمات بذيئة، فيتَّهمني بالظلم والغدر.

فقال القاضي الفاضل: هدِّئ من ثائرتك أيها الوزير. إن هذا شيخ كبير، وللكبار دالة على الصغار، فهم يعتبرونهم كأبنائهم، وقد تكون للسان زلات.

– إنك لم تسمع ما قاله يا عبد الرحيم. إنني أُفكِّر في أشر الوسائل لتعذيبه، فالقتل عقاب هيِّن.

فقال أبو الحسن: هل كلمات الحق تُغضِبك إلى هذا الحد أيها الوزير؟ أنا لم أُعوِّد لساني غير الصدق. هل كان جميلًا لدَيك أن أكيل لك المديح أصنافًا وألوانًا لأستدرَّ عطفك وأنال عفوك؟ لو كانت لي بُغْية في الحياة لفعلت، غير أني شيخ عجوز خبرتُ الحياة، وذقتُ عَذبها وعلقهما، وطعمت خيرها وشرها؛ فوجدت أن الخير لا يزور إلا لمامًا، وأن الشر إذا زار لا يترك المرء إلا حطامًا. فإن كنت تُريد قتلي، فقد انقضت حياتي، ولم يبقَ من العمر قدر ما سلف، ولست أحرص على ما بقي.

فنظر القاضي الفاضل إلى أبي الحسن كمن يقول له صه، وقال لشاور: أيها الوزير العظيم، أنت أهل لكل مكرمة، وأبو الحسن لا يُريد كما يقول إلا النصح، وقد تكون الألفاظ خانَته؛ فهو لم يعتدْ مُعاشَرة الملوك والوزراء والتحدث إليهم. فدعْ هذا الأمر الآن حتى تخفَّ حِدة غضبك؛ فإني جئتك في أمر هام.

– وما هو يا عبد الرحيم؟

– أتى رسول من مَلك الفرنج، يحمل رسالة مختومة هذه هي.

وقدَّم ورقة ملفوفة إلى الوزير.

فقال شاور: رسالة من مَلك الفرنج! ولمَ لم تُخبِرني منذ حضرت؟ ونادى الحاجب، فقال له: خُذ هذا الرجل وألقِ به في السجن حتى أطلبه.

فخرج أبو الحسن وهو يقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾.

ونزع شاور الختم وبدأ يقرأ الرسالة في لهفة، وسرعان ما بدتْ علامات الغضب على وجهه، وألقى الرسالة إلى جانبه وقال: أرأيت، أرأيت يا عبد الرحيم؟ ها هو أسد الدين قد أعدَّ جيشًا جديدًا وخرج من دمشق، وسيأتي عن قريب لغزو مصر ومُقابَلتنا.

في حضرة الخليفة

نسي شاور أبا الحسن منذ قرأ خطاب مَلك الفرنجة، ونسي كل شيء إلا أسد الدين؛ فقد غدا شبحًا مُخيفًا مُفزِعًا يبدو له في نومه ويقظته، لا يُفكِّر إلا فيه وفي جيشه الذي خرج من الشام ليُزيحه عن دَست الوزارة، عن مَجد السلطان، وعِز المُلك الذي ناضَل من أجله رجالًا وجيوشًا، الذي كافَح في سبيله رزيك بن الصالح، وضرغامًا، وأسد الدين نفسه. وقد ظن أن أسد الدين قد قنع من الغنيمة بالإياب، فلمْ يعُد يُفكِّر في مصر، ولكن هذا الخطاب جاء مُكذِّبًا لظنونه، مُخيِّبًا لآماله؛ فراح يُفكِّر في سبيل يُنجِّيه من هذا المَأزِق. إن جيشه في مصر ضعيف، لا يصمد أمام أبطال أسد الدين. إنه يذكر الآن، وقد وقف أسد الدين إلى جانبه عند بلبيس ينظر إلى جند ضرغام المُحتشِد في كثرة، وأسد الدين يُعاتِبه بقوله: «لقد أرهقتَنا يا شاور، وغرَّرت بنا، وقلت إنه ليس في مصر عساكر، فجئنا في هذه الشرذمة القليلة.»

فقال له وهو الخبير بهؤلاء الجند: «لا يهولنَّك ما تُشاهِد فهؤلاء يجمعهم الطبل، وتُفرِّقهم العصا.»

ولقد شاهد أسد الدين بنفسه صدق هذا القول؛ ولهذا طمع في مصر وأتى إليها ثانية.

تذكَّر شاور هذا كله، فرأى أن لا بد له من التفكير في طريقة أخرى غير الاعتماد على جنده. فكَّر في أن يسعى لصداقة أسد الدين، ويُرسِل إليه مالًا، ولكنه رأى بثاقب فكره أن أسد الدين لم ينسَ له غدره وحنثه بوعده. وهو إن كان قد قبِل الصلح منذ عامين وانسحب من مصر، فليس هذا إلا ليعود إليها أكثر استعدادًا فلا يُمكِن إذن أن يقنع بما سيُعرَض عليه. ليس أمامه إذن إلا الفرنج، فهم حتى الآن أصدقاؤه، وإن أتوا ونصروه فلا يُمكِن أن يُفكِّروا في البقاء في مصر؛ لأنهم يخافون على بلادهم من نور الدين. ولهذا أرسل إلى مري يشكره على خطابه، ويطلب منه النجدة، ويعِده بدفع المال ثمنًا لمُساعَدته.

وفرِح مري بهذا الطلب — فقد كانت هذه بُغْيته — بل كان هذا عزمه وإن لم يطلبه شاور؛ لأنه كان يخشى دائمًا أن تتغلب جند نور الدين على مصر فتكون النتيجة طرد الفرنج من الشام. وسار بجيشه حتى وصل إلى الفسطاط، وانضم إلى جيش شاور. أما أسد الدين، فقد خرج من الشام في نحو ألفَي جندي، وعبَر صحراء سينا إلى صحراء مصر الشرقية حتى وصل إلى أطفيح، وهناك عبَر بجنده إلى الشاطئ الغربي واتجه بهم شمالًا حتى وصل إلى الجيزة، وعسكر هناك والنيل يفصل بين مُعسكَره وبين مُعسكَر شاور وحلفائه.

ورغب مري هذه المرة أن يكون للتحالف بينه وبين مصر صبغة رسمية خوفًا من غدر شاور، فأصر على أن تُعقَد مُعاهَدة بينه وبين المصريين، يُوقِّعها ويحلف عليها الخليفة العاضد نفسه؛ ولهذا اختير قائدان من كبار قُواده، وصحِبهما الوزير شاور بنفسه إلى القصر الكبير، وسار الرسولان في مَمرات كثيرة خفية، واجتازا أبوابًا عديدة، والحُراس من أقوياء السودان يُحيُّونهما، حتى وصلا بَهوًا مُتسِعًا غير مسقوف، وحوْله أقبية مُقامة على عُمُد من الرخام، ثم تقدَّما إلى مكان ذي سقف مُزخرَف مُرصَّع بالذهب مُزيَّن بأبدع الألوان. وكانت تخطف بأبصارهم آيات الجمال الفني المُنبَثة في كل مكان من القصر، إذ كانا يمُران على تماثيل رائعة للحيوانات المختلفة، ونافورات مُنمَّقة تطرد الماء رذاذًا ليعود سيرته الأولى، وحوْلها الطيور الجميلة الريش والأصوات. والأرض قد صُنعت من قِطَع الفُسَيفساء الصغيرة، وقد اتخذتْ أشكالًا ورسومًا هندسية فائقة الحسن رائعةً تسُر الناظرِين. وأخيرًا انتهى بهما السير إلى غرفة العرش، فسمعا الحرس يُعلِنون قدومهما في صوت وجلبة قويتَين. ثم تقدَّم الوزير وخلع سيفه، وقبَّل الأرض ثلاث مرات، فأسفرت الستائر فجأة وهي تلمع بما يَزينها من ذهب ولؤلؤ عن الخليفة في ملابسه الزاهية الأخَّاذة، وهو فتًى في الرابعة عشرة من عمره أسمر اللون. فتقدَّم شاور، ووصف في صوت مُنخفِض ما وصلت إليه البلاد من ضعف، وأشاد بذكر صديقه مَلك بيت المقدس العظيم، وطلب من الخليفة أن يُوافِق على المُعاهَدة بينه وبين صديقه على أن يُعطيه مائة ألف دينار مُعجَّلة ومِثلها مُؤجَّلة ثمنًا لصداقتهم ومُساعَدتهم. ومدَّ زعيم الرسولَين يده للخليفة دليلًا على صدق عهده، فتردَّد الخليفة ثم مدَّ يده بعد قليل يُغطِّيها قُفاز، فقال الرسول: «مولاي، إن الحق لا غطاء له، وإن كل شيء مكشوف في عهود الأمراء.»

فابتسم الخليفة ابتسامة الغاضب وخلع قُفازه ومدَّ يده إلى الرسول، وحلف اليمين أن يُنفِّذ المُعاهَدة في صدق وإخلاص.

وعاد شاور إلى مُعسكَره ومُعسكَر الفرنجة، وهو يفرُك يدَيه من الفرح. الخليفة في يده، ومصر تحت سلطانه بقرةٌ حلوب تُدِر عليه المال الذي يُساعِده على بسط سلطانه، والتغلُّب على عدُوه، والفرنجة تحت أمره. فليأتِ إذن أسد الدين فلنْ تكون له الغلبة. وبينما هو يُفكِّر في هذا، وقد ملك عليه الغرور نفسه وعقله، إذ بأحد الجند يستأذن لرسول من قبل أسد الدين جاء يحمل رسالة لشاور. فضحك شاور وقال لصديقه مري: لقد أحس الرجل بقوتنا دون شك، فجاء يطلب صلحًا ولما نلتقِ. هاتِ الرسول يا جندي.

ودخل الرسول فحيًّا، وقدَّم الرسالة. فأخذها شاور وبدأ يقرأ بصوت مُنخفِض أولًا، ثم رفع صوته ليسمع جلساؤه من قُواده وقُواد الفرنج.

«وأنا أحلف لك بالله الذي لا إله إلا هو وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أُقيم ببلاد مصر، ولا أعود إليها أبدًا، ولا أُمكِّن أحدًا من التعرُّض إليها، ومن عارَضك فيها كنت معك إلبًا عليه. وما أُؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط. وقد حُصِّل العدُو بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخَلاصه عسِر. وأُريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز هذه الفرصة التي قد أَمكنت، والغنيمة التي قد كُتبت؛ فنستأصل شأفته ونخمد ثائرته. وما أظن أنه يعود للإسلام مثل هذه الغنيمة أبدًا.»

وما إن انتهى من تلاوة الرسالة حتى رماها بعنف إلى الأرض، والتفت إلى مري وقُواده وقال: ألمْ أقُل لكم؟ لقد أحس أسد الدين بضعفه. والله لنُذيقنه الهزيمة، ولنُشتِّتن جيشه.

ثم التفت إلى الرسول وقال: إن سيدك لا يدري «ما هؤلاء الفرنجُ هؤلاء الفرنجَ»، أما ردي على الرسالة فهو قتلك أولًا، وما سيراه أسد الدين في الميدان ثانيًا.

ونادى واحدًا من جنده، فجذب الرسول من يدَيه، وهو يستغيث، ولا سميع.

نضال

أقام أسد الدين بجيشه في الجيزة مُدةً يلتمس أن تُواتِيه الظروف ليعبُر إلى البَر الشرقي لمُهاجَمة الفسطاط والقاهرة. وانضم جيش الفرنج إلى جيش شاور فغدا الجيشان قوة عظيمة لا قِبل لأسد الدين بها. وحفر الخنادق حوْل العاصمتَين وحُصِّنت الأسوار وأُقيمت الستائر والمَجانيق ووسائل الدفاع المختلفة.

وأدرك أسد الدين ما يعترضه من صعوبات، وأعوَزه المال يصرف منه مُرتَّبات الجند، وكانت المسافة بينه وبين نور الدين في الشام بعيدة، فجمع قُواده ليستشيرهم ويسألهم النصيحة، وانتهى به وبهم الرأي أن يُرسِل ابن أخيه صلاح الدين بجزء من الجيش إلى الإسكندرية، وأوصاه أن يستميل عرب البحيرة ليمدُّوه بالمُؤن، وأن يذهب أسد الدين ببقية الجيش إلى الصعيد يرتاد بلاده ويجمع خراجه والمُؤنة لجيشه.

انتهى المَسير بأسد الدين وجيشه إلى قوص عاصمة الصعيد فاتخذها مَقرًّا، واستطاع أثناء سيره وإقامته أن يسترضي الأهلِين، فانضم إلى جيشه عدد كبير من أهالي الصعيد، ومن أعراب الصحراء، وجُمعت له المُؤن الكثيرة، وجُبيت له الأموال الوفيرة.

أما مري، فقد أتى هذه المرة وفي نيته الاستيلاء نهائيًّا على مصر؛ ولهذا انتهز فرصة تحالُفه مع شاور، وبث رجاله وعيونه في الفسطاط وفي أنحاء الصعيد، يجوبون الأسواق والقُرى، يرسمون مَعالمها ويُصوِّرون مَداخلها ومَخارجها ومَساكنها، ويكتبون أسماء القُرى جميعًا، ومبلغ خراج كلٍّ منها. ثم اجتمع بشاور ليتفقا على الخُطة التي يجب اتباعها للقضاء على أسد الدين وجيشه، فاتفقا على أن يتركا جيش الصعيد قليلًا ويتجها إلى الإسكندرية لمُحاصَرتها؛ فإذا انتهَيا من القضاء على قوة صلاح الدين كان من اليسير عليهما أن يُجهِزا على جيش أسد الدين.

وقضى صلاح الدين ثلاثة شهور في الإسكندرية وهو مُحاصَر بها، تُحاصِره قُوى شاور ومري في البَر وسفن الفرنج في البحر، وقاسى الرجل في الدفاع عنها. وقدَّم له القاضي الرشيد بن الزبير مُتولِّي ديوانها كل مُساعَدة مُمكِنة، وجاد أهل الإسكندرية بكل غالٍ وعزيز لديهم، ودافعوا معه عن مدينتهم دفاع الأبطال وهم صامدون لا تلين لهم قناة، ولا تضعف لهم شوكة، ولكنه أيقن في النهاية أن ليس في استطاعته رغم هذه المُساعَدات أن يتغلب على هذه القُوى جميعًا، فأرسل يستنجد بعمه في الصعيد. وأدرك أسد الدين حرج المَوقف، فأسرع بالعودة حتى وصل إلى القاهرة، وبدأ يُحاصِرها.

وكان الوقت قد طال بالفرنج وهم يُحاصِرون الإسكندرية دون طائل، فبدءُوا يتذمَّرون. ووصلتهم أخبار وصول أسد الدين إلى القاهرة وحصاره لها؛ فخافوا أن يستولي عليها، ثم يأتيهم من الجنوب فيُصبِحون في مَأزِق حرِج، تحصرهم قوة صلاح الدين من الشمال وقوة أسد الدين من الجنوب. فرغبوا إلى شاور أن يضع حدًّا للحرب، وأن يعقد صلحًا مع أسد الدين، ولكن شاور كان يرى أن الفرصة مُواتِية، وأن أسد الدين خطرٌ عليه وعلى حياته، فلا بد أن يُنزِل به وبجيشه هزيمة نكراء تُودي به أو تردعه فلا يعود يُفكِّر في مصر. فظل يُماطِل الفرنج ويُراوِغهم ويمُدهم بالمال كسبًا للوقت، ولكن المَلل كان قد بلغ بهم منتهاه، كما كان الخوف على بلادهم من نور الدين يملك عليهم أفئدتهم ويقض مضاجعهم، فلا يحسُّون طعم الراحة في إقامتهم في مصر. فاضطر شاور أن يُذعِن، وسارت الرسل بين المُعسكَرَين تعرض شروط الصلح وتتناولها بالتعديل والتبديل، حتى اتفق الفريقان أن يرحلا عن مصر، على أن يُقدِّم شاور لأسد الدين جميع ما غرِمه في هذه الحملة وثلاثين ألف دينار أخرى، وأن يُقدِّم مَلك الفرنج لصلاح الدين السفن لتحمل الضعفاء من جنده عبْر البحر إلى الشام.

أما الفرنج فتركوا حامية منهم في القاهرة وحرسًا على أبوابها، وقبِل شاور أن يدفع لهم جزية سنوية قدرها مائة ألف دينار.

ولم ينسَ أسد الدين صديقه أبا الحسن فعلَّق تنفيذ شروط الصلح وخروجه من مصر على الإفراج عنه. فلما أُطلِق سراحه وأُرسِل إليه، رحَّب به وطيَّب خاطره، وعرض عليه أن يصحبه إلى الشام فوافَق.

وبهذا خرج الجيشان مرة أخرى من مصر وفي نفس قائدَيهما أمور كثيرة تجول وتصول. أما مَلك الفرنج، فقد زاد علمًا بمصر بما آتاه به رجاله الذين بثَّهم في أنحاء البلاد وأطرافها، من معلومات جعلته يُفكِّر في مصر ويُطيل التفكير؛ فهو لم يخرج اليوم

إلا ليُخرِج أسد الدين معه، ثم يعود إلى مصر وهي خالية من أية قوة تُعارِضه؛ ولهذا أبقى حاميته وحرسه بالقاهرة لتمُده بالأخبار ولتُمهِّد له سبيل العودة القريبة.

أما أسد الدين فلمْ يكُن يتوقَّع أن يسبقه الفرنج إلى مصر، وأن يلقى منهم هذه المُقاوَمة؛ لأنه كتم خبر حملته كتمانًا شديدًا. ولهذا سار إلى مصر في عدد قليل — في ألفَي جندي — ولقد لقي هذه المرة من أعدائه مُقاوَمة عنيفة، غير أنه لقي من عطف المصريين ومَعونتهم في الصعيد والإسكندرية ما أفعَم نفسه سرورًا، وما زاده أملًا في الاستيلاء على مصر.

لقد تنقَّل في المرة السالفة بين الفسطاط والحوف الشرقي، ولكنه ذرعَ مصر في هذه المرة وجابها جنوبًا وشمالًا، ورأى من جمالها وخيراتها ما لم يرَ من قبل، وأحس ما يُعانيه المصريون أكثر مما أحس؛ فخرج وهو أشد إيمانًا بوجوب فتحها وإزاحة شاور عن مُلكها، فإنه لا يُمكِن أن يغفر له الاستعانة بالفرنج ضده، ولا يُمكِن أن يغفر له قتله رسوله ورفضه ما عرض عليه من تعاوُن ضد أعداء الإسلام، ولكنه لم يتمكن من إقناع نور الدين بضرورة المَسير إلى مصر هذه المرة إلا بعد رأي وتعب. تُرى أيرضى مرة أخرى أن يُزوِّده بجيش جديد بعد أن عاد إليه في المرتين، وقد ضحَّى مالًا ورجالًا، ومصر كما هي لشاور يعبث فيها فسادًا؟

كان أسد الدين يُفكِّر في هذا كله وهو على جواده يتقدم جيشه العائد إلى الشام، ولكنه آمَن والإيمان لا يعرف المُستحيل. سيسعى جهدَه وعلى الله التوفيق.

مري يعود

اتخذ أسد الدين أبا الحسن جليسًا له وسميرًا؛ فكان يصحبه معه كلما انتقل من مكان إلى مكان، وكان يخلو إليه كلما خلا بنفسه بعد غزاة أو نضال ضد الفرنج، وكان يرتاح دائمًا إلى وجوده ويأنس إلى حديثه وأخباره. وكان أبو الحسن ينتهز كل فرصة فيُسهِب في وصف مصر وغناها وما يُعانيه أهلها من ظلم شاور وعسفه، ويُحرِّض أسد الدين على المَسير ثالثةً لمُلكها، وإنقاذها وإنقاذ أهلها. وأسد الدين يزداد كل يوم اقتناعًا بما يقول أبو الحسن، فيخلو بنور الدين ويُعيد عليه الرجاء مرات ومرات أن يمُده بجيش ثالث، ويعِده ألا يعود هذه المرة إلا بعد فتحها. ونور الدين لا يقتنع بقول أسد الدين ويُحاوِل أن يثني عزمه عن التفكير فيها، فيهَبه حمص وأعمالها زيادة عما تحت يده من «إقطاعات». وشاور قد بثَّ العيون في الشام تنقُل إليه أخبار أسد الدين وأفكاره، وكان يُرسِل إلى نور الدين الهدايا والرسائل يعِده بمال يدفعه مُسانَهةً؛ حتى لا يُوافِق أسد الدين على رغبته.

أما ملك الفرنج فكان لا يَني عن التفكير في مصر؛ فأخذ يزيد في جيشه وعُدَده. والرسائل ترِد إليه تباعًا من جنده في مصر تُحرِّضه على العودة؛ فجمع في صفر سنة ٥٦٤ قُواده وأمراء جيشه وكبار رجال الاسبتارية ليستشيرهم في الرأي، فاختلفوا بين مُحبِّذ ومُعارِض، ورأى أن يعرض عليهم مَزايا المشروع ومَضارَّه، ويُبيِّن لهم ما قد يعترض سبيلهم من عقبات؛ ليتأكَّد من اقتناعهم بفكرته وولائهم له إذا عمل على تنفيذها. فقال: «أيها الأمراء، الرأي عندي بعد أن سمعت أقوالكم ألا نقصد مصر؛ فهي طُعمة لنا، وأموالها تُساق إلينا نتقوَّى بها على نور الدين. وإن نحن قصدناها لنملكها، فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يُسلِّمونها إلينا، ويُقاتِلوننا دونها، ويحملهم الخوف منا على تسليمها لنور الدين. ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين، فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام.»

وما كاد ينتهي من حديثه حتى علتْ أصوات القُواد والأمراء تُعارِضه في شدة. وقال كبير الاسبتارية: أيها المَلك، إننا لا نعبأ بمن في مصر من جنود، وسيكون لنا النصر عليهم. أما ما يرِد إليك من مال مصر فهو قليل من كثير، ولَأن تحوز الكثير خير من أن تحوز القليل. وإن أنت لم تسِر لمُلك مصر، فوالله لنسيرن نحن إليها قبل أن يقصدها أسد الدين مرة أخرى.

وأخذ كل أمير يتكلم بدوره، فيُؤيِّد هذا الرأي في حماسة وقوة. ففرح مري وقال: والله لأنتم الرجال! فقد سرَّني هذا الشعور، وهذه الغيرة في سبيل المسيحية. سأسير بكم قريبًا، وسنملك مصر باسم المسيح وقوته، ونُفني هؤلاء (الكفاء) ونُبيدهم.

وخرج مري بجيشه الجديد في عَدد وفير وعُدة وسلاح. ووصلت العيون إلى شاور تُعلِمه بخبر هذه الحملة الجديدة، فاضطرب ولم يكَد يُصدِّق، وجمع أمراءه وقُواده، وأطلعهم على ما وصل إليه، وطلب منهم الرأي فيما يفعلون. ولكنهم وَجَموا هذه المرة وسكتوا وطال سكوتهم؛ إذ كان كلٌّ منهم يُفكِّر، ولا يستطيع الكلام.

كان كل أمير يُفكِّر في هذه الويلات التي يجلبها شاور عليهم وعلى مصر. إنهم يعتقدون أن أي جيش خارجي لا بد أن ينتصر عليهم؛ فقد أفنت المُنازَعات المُتتابِعة قُواد جيشهم، فلمْ يعُد يستطيع الوقوف وحدَه ضد أي هجوم أجنبي. وقد اتصلوا بجيش الفرنجة وحاربوا معهم، واتصلوا بجيش أسد الدين وحاربوا ضده، والجيشان أشجع جنودًا وقُوادًا، وأكثر عُدة وسلاحًا وأمهر حربًا ونضالًا. ولقد هاجَمهم أسد الدين بالأمس فاستعانوا بالفرنج؛ فماذا يفعلون اليوم، وقد هاجَمهم الفرنجة أصدقاء الأمس؟ الرأي أن يستعينوا بنور الدين؛ أي بأسد الدين وجيشه. ولكن هل يقبل شاور هذا الرأي؟ إنه يرضى بالموت ولا يرضى أن يستعين بأسد الدين.

فلما طال سكوتهم صاح شاور: ما هذا الصمت؟ لقد دعوتكم لتُساعِدوني بآرائكم.

فتنحنح الأمير شمس الخلافة وقال: وهل نُبدي آراءنا في صراحة؟

– أجل قولوا كل ما يعنُّ لكم.

– إذن الرأي عندي أيها الوزير أن نلجأ إلى نور الدين.

فصاح شاور كمن لدغته عقرب: تعني أسد الدين! إن وجود هذا الرجل في مصر معناه موتي؛ إنه طامع في مُلك مصر.

فقال شمس الخلافة: ومري هو الذي لا يطمع فيها! أرأيت الآن صحة رأيي؟ لقد نصحتك يوم أن أرسل إليك أسد الدين يطلب أن تتحالفا ضد الفرنجة أن تُجيبه إلى طلبه، فقد كان مُخلِصًا في دعوته؛ فلمْ تُوافِقني وفعلتَ ما فعلت.

فغضب شاور لهذا الحديث لكُرهه الشديد لأسد الدين، ولكنه كتم غضبه؛ إذ كان يُعِز شمس الخلافة ويعتمد عليه في كثير من أزمانه، وقال: لقد كانت بيني وبين الملك مري صداقة وود، وفي رأيي أن نُرسِل إليه رسولًا يُذكِّره بهذه العلاقة القديمة، ويسأله عن غرضه وما يقصد إليه؛ فقد نستطيع أن نصُده ببعض المال.

فوافَق الحاضرون كارهين، وخرجوا واجمين؛ إذ كانوا يعلمون أن هذا سعي فاشل.

ووصل رسول شاور إلى الداروم حيث وصل مري بجيشه، وقابَل المَلك وبلَّغه الرسالة. فحدَّثه مري حديث الأفعى، وما زال به يستميله ويُغريه حتى قبِل الرسول أن يُقطِعه ثلاث عشرة قرية؛ على أن يُقنِع شاور أنه لم يأتِ إلى مصر مُعاديًا غازيًا، وإنما جاء خادمًا أو مُساعِدًا، كما فعل في الماضي.

لم يقتنع شاور بهذا الرأي، ونادى الأمير شمس الخلافة، وأنبأه أنه يشُك في إخلاص رسوله إلى مري، ورغب إليه أن يسير هو إلى المَلك فيسأله عما يُريد.

ووصل شمس الخلافة إلى مُعسكَر الفرنج، ودخل على المَلك؛ فرحَّب به وقال: مرحبًا بصديقي شمس الخلافة، وأهلًا وسهلًا.

فقال شمس الخلافة: مرحبًا بالمَلك الغدار.

– لا لست غادرًا يا شمس الخلافة.

– إذن لماذا أتيت في هذا الجيش؟

– لقد أتيت بقصد الخدمة كالمُعتاد، وقبض ما قرَّرتم لي من عطاء.

– إننا نحتاج لخدمتك إذا دهمَنا عدُو. أما مع خُلُو البال من الأعداء فلا حاجة لنا إليك.

فسكت مري لحظة، ثم قال: إن هناك أسبابًا أخرى دفعتني إلى السير إليكم.

– ما هي؟

– قد تكون أسبابًا سرية.

– وهل بيننا من أسرار؟ أبِنْ عنها، فقد تكون غير صحيحة.

– لقد نمى إليَّ أن الفقيه عيسى الهكاري سعى بدهائه حتى جمع بينكم وبين بيت بني أيوب، فزوَّج بنت شاور من صلاح الدين، كما زوَّج الكامل بن شاور من أخت صلاح الدين.

فضحك شمس الخلافة لغرابة الخبر، وقال: وهل تظن هذا صحيحًا؟

– هذا ما بلغني.

– وهَبْه صحيحًا فما العلاقة بينه وبين مَجيئكم في هذا الجيش اللجِب؟

– لو تم هذا الزواج لكان معناه اتفاقكم مع أسد الدين ضدنا، فكان لا بد لي من اتخاذ الحيطة والحذر.

– أيها الملك، أنت أول من يعلم مَبلغ الكُره بين صلاح الدين وعمه وبين شاور، وأنه من المُستحيل أن يتم هذا المشروع. قد تكون هذه فكرة الفقيه عيسى، ولكن تأكَّد أن شيئًا من هذا لم يصِل إلى علم شاور.

– لقد كان هذا رأيي أيضًا، فقلتُ لمن نقل إليَّ الخبر إن ما بين شاور وأسد الدين من عَداء، لا يُمكِن أن يسمح للفقيه بإتمام هذا المشروع.

– إذن لا تُخفِ عني شيئًا، ودع هذه التعِلات واصدقني القول. ما الذي دفعك إلى المَجيء؟

– أقول لك الحق، وأنت صديقي: إن قومًا من الفرنج وفدوا إلى بلادنا من وراء البحار، وغلبونا على آرائنا، وقالوا إنهم أتَوا راغبين في الخروج إلى مصر ومُلكها؛ فخِفنا أن يسيروا إليكم فلا يكون لكم قِبل بهم ولا تستطيعون ردَّهم، وفضَّلنا أن نحضر بأنفسنا لنتوسط بينكم وبينهم.

– وماذا يطلبون ليعدلوا عن رأيهم؟

– يطلبون ستمائة ألف دينار.

فغضب شمس الخلافة، وأخذ يلوم شاور في نفسه لأنه أذاق هؤلاء الفرنج طعم المال ألوفًا، فراحوا يطلبون المزيد بسبب وبغير سبب، وعلِم في نفس الوقت أن هذا الحديث المُلتوي يُنبئ عن كذب المَلك الصريح، وأنه في الواقع لم يأتِ إلا طمعًا في مصر ذاتها، فأراد أن يلجأ إلى أسلوب التهديد؛ علَّه يُوهِن من عزم هذا المَلك الغادر، فقال: ولكنك تعلم أيها المَلك أن المصريين قد أُرهِقوا بالمكوس التي تُفرَض عليهم كل يوم؛ فمن أين يأتي إليكم شاور بالمال؟ تذكَّر كم أتلف ضرغام من ألوف الدنانير، حتى اضطر إلى اغتصاب أموال اليتامى قُبيل مَصرعه؛ مما أدَّى إلى ثورة العامة ضده. وتذكَّر كم ألفًا دفع شاور إليك، وإلى أسد الدين في المرتين السالفتين. إن أهل مصر لا يُطيقون دفع أكثر مما دفعوا، وإن لصبرهم حدًّا، وأخشى إذا طالَبهم شاور بمال جديد ليُرضيكم أن يثوروا ضده وضدكم. وهنا ينتهز أسد الدين الفرصة فيأتي إلى مصر ويُهاجِم نور الدين بلادكم.

ولكن مري أتى هذه المرة وبيده الوثائق الصحيحة التي زوَّده بها رجاله وحاميته التي تركها في القاهرة، فلمْ يُعِر هذا الكلام اهتمامًا، وقال: أنا أعلم صدق قولك ونصيحتك

يا صديقي، وقد طلب القوم مبلغًا أكبر من هذا، فما زلت بهم أُقنِعهم حتى جعلوه خمسمائة ألف دينار، فاعرض الأمر على صديقنا شاور لعله يجد مَخرجًا.

– سأفعل، ولكنني أرجو ألا يتقدم جيشك خطوة أخرى حتى يأتيك الرد.

– سأنتظر إكرامًا لك، ولكن أرجو ألا يتأخر الرد.

فاطمة

استيقظت فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة مُبكِّرة، ولبثت في فراشها تتمطى وتتثاءب في تراخٍ وكسل، ثم راحت تُفكِّر في أشياء مختلفة؛ لقد كانت تنام من قبلُ ملءَ عينيها فلا تستيقظ إلا وقت الضحى، ولكن حالها تغيَّر منذ شهر، فهي لا تكاد تنام حتى تتزاحم عليها الأحلام بعضها مُزعِج مُفزِع، وبعضها جميل لذيذ، ثم هي تستيقظ الآن عند الفجر فتلُم بها الأفكار مُتشعِّبة مُتفرِّقة، ولكنها تجتمع كلها حول موضوع واحد، أو حول شخص واحد: مُدرِّسها عبد الرحمن. لقد غدتْ تُفكِّر فيه كثيرًا، وإنها لتبذل الجهد كل الجهد لتُبعِد صورته عنها، فترى نفسها غارقة من جديد في التفكير فيه.

وقد ظنَّت أولَ الأمر أن السبب في هذا غيابه عنها بعد أن اعتادت أن تلقاه كل يومين أو ثلاثة، ولكن ها قد مضى شهر كامل وهو كافٍ لأن يُنسيها، ثم هي ترى نفسها تزداد تعلُّقًا بالتفكير فيه يومًا بعد يوم. إنها تذكره الآن وهو جالس إليها في المكتبة بقامته المُعتدِلة، ووجهه الأسمر الوسيم؛ هي تقرأ، وهو يُفسِّر. وأغلب ما ينظر، إلى الكتاب في يده. وقد تتلاقى عيناه وعيناها، وهو يشرح لها آية قرآنية، أو حديثًا نبويًّا، أو حادثًا تاريخيًّا، فيُسرِع ويغُض من بصره في خجل وحياء. وما كانت تُحِس شيئًا غريبًا في كل مرة من هذه المرات، ولكنها تذكر الآن أن قلبها خفق خفقانًا شديدًا، وأن أطرافها كانت ترتعش وهو ينظر إليها ويمُد يده مُحيِّيًا قُبيل سفره إلى بلده قوص، وأن هذا الشعور ليُعاوِدها الآن كلما فكَّرت فيه. وكانت تذكر صوته ولهجة حديثه، وتستعيد ما كان يُزوِّدها به من آراء غريبة، تُبين عن قوة شخصيته وسعة تفكيره.

وقد رغبتْ أن تُحدِّث أحدًا من الناس عن هذا الشعور لتستفسره كُنهَه ومعناه، ولكنها كانت تتردد كثيرًا؛ لأنها لم تجد فيمن حولها من تأتمنه على هذا السر. إن أباها مشغول

بأمور الدولة، وقد كثر تغيُّبه عن القصر هذه الأيام، وزوج أبيها قد تُسيء تفسير هذا الشعور. ففكَّرت في صديقتها ريحانة التي تُدرِّس لها الغناء والموسيقى، غير أنها كلما همَّت بالإفضاء إليها ترددت، ثم أجفلت وأعرضت. وما إن وصل بها التفكير إلى ريحانة حتى تذكَّرت الأبيات التي أعجبتها بالأمس وهي تقرأ، فاختارتها ووضعت لها لحنًا أخذت تُغنِّيه وتُردِّده إلى ساعة مُتأخِّرة من ليلة أمس، فقامت من فراشها، وأمسكت بعودها واحتضنته، وأخذت تستعيد لحن الأمس وتُغنِّي:

استوحش القلب مُذ غِبتُم فما أنِسا — وأظلم اليوم مُذ بِنتُم فما شمسا
ما طبتُ نفْسًا ولا استحسنتُ بَعدكمُ — شيئًا نفيسًا ولا استعذبتُ لي نفَسا
قلبي وصبري وغُمضي والشباب وما — أَلِفتُمُ من نشاطي كله خلسا
لما هدَت نارُ شوقي ضَيفَ طَيفكمُ — قَرَيتُه بالكَرى إذ زار مُقتبِسا
ورُمتُ تأنيسه حتى وهبتُ له — إنسان عينيَ أفديه فما أنسا
أنا الخيال نُحولًا فالخيال إذا — ما زارني كيف يلقى من به التبسا
لهفي على زمن قضيتُه طربًا — إذ لم أكُن من صروف الدهر مُحترِسًا

ولما وصلتْ إلى البيت الأخير أحسَّت كأن الشِّعر شعرها، أو كأنه على الأقل يُعبِّر عن شعورها؛ فراحت تُردِّده وتُعيده، وتفتنُّ في إخراج ألحانه، فتقصُرها، وتمُدها، وترفعها، وتخفضها، وتُرعِشها ثم تكسرها فتُلجِمها. وبدَرتْ منها التفاتة فرأتْ وجه ريحانة يُطِل عليها من باب الغرفة مُشرِقًا مُبتسِمًا، تبدو عليه علامات الغِبطة والفرح؛ فخجلت واحمرَّ وجهها، وتركت العود من يدها، وقامت لتُرحِّب بضيفتها، وقالت: أهلًا ريحانة، لقد تأخَّرت بالأمس، ولما لم تأتِ شغلتُ نفسي بالقراءة، وقد أعجبتني هذه الأبيات للعماد الكاتب، فوضعت لها هذا اللحن، لعله أعجبك.

فاحتضنتها ريحانة، وقبَّلتها، وقالت: إنه لحن جميل، جميل، جميل. أَعِيديه عليَّ مرة أخرى.

– ليس إلى هذا الحد، إن هذه مُحاوَلة تلميذة.

– لا والله، إنني أقول الحق، لقد تفوَّقتِ عليَّ.

ثم أطالت النظر إليها تُعجَب بجمالها، وقد وقفت كالزهرة المُتفتِّحة، وزادها الحياء حسنًا ورُواءً، وقالت: ولكن ما هذه الهالة الزرقاء حول عينَيك؟ أسهرتِ طويلًا بالأمس؟

– كلا، لقد نِمت مُبكِّرة، ولكن اعتراني أرَقٌ غريب، فلمْ يزُرني النوم إلا لِمامًا.

فضحكت ريحانة ضحكة ماكرة وسألتها: ألمْ يعُد الشيخ عبد الرحمن من قوص بعد؟

فصبغت الحمرة وجه فاطمة حتى بدتْ وجنتاها في لون التفاح الجميل وأطرقت قليلًا، وعجبت في نفسها وتساءلت: ما الذي جعل ريحانة تنقل الحديث مُباشَرة إلى السؤال عبد الرحمن، وتقرِن هذا بعدم نومها؟ لقد فضح الشِّعر سرَّها. ولكنها تمالكت نفسها وأجابت على السؤال حتى لا تزيد في شكوك ريحانة، وقالت: لا، لم يعُد، هدَّأ الله سرَّه. لقد وصلت أخبار أن أباه مريض، فأسرع بالسفر منذ شهر.

ثم أرادت أن تنقل الحديث إلى موضوع آخر لتنجو بنفسها من هذا الحرج، فقالت: ولكن ما الذي أخَّركِ عن الحضور أمس؟

فتنهَّدت ريحانة وقالت: هيه، لقد أصبحت حياتنا في يد الأقدار يا فاطمة. ومن يدري؟ فقد نُقتَل، وقد نُؤسَر ويتحكم في حياتنا وأنفسنا وشرفنا الفرنجُ الكفار.

فذُعرت فاطمة، وقالت: قد نُقتَل، وقد نُؤسَر! وكيف؟ ولمَ؟

– كيف! ولمَ! ألمْ تسمعي بمَجيء الفرنج إلى مصر؟

أجل، قد سمعت، وقد كان لهذا الحادث أثر كبير في حياتنا.

فقد كثر سفر والدي، وتغيُّبه عن القصر، وقد زاره الوزير شاور بنفسه هنا في الأسبوع الماضي أكثر من مرة.

فعضَّت ريحانة نابها وقالت: أجل، الوزير شاور إنه رأس البلايا. إن القصر هذه الأيام في هرْجٍ ومرْج؛ فالخليفة قلِق لا يستقر، ساخط على شاور، ورجال القصر ونساؤه يُشارِكونه هذا السخط، ولكنهم لا يستطيعون شيئًا؛ فالجيش تحت إمرته. لقد جرَّأ هذا الوزير الفرنج واستنجد بهم ضد أسد الدين في المرتين السالفتين، حتى اطلعوا على خفايا البلد وعوراتها، فأتَوا إلينا غازِين هذه المرة، وقد وصلوا إلى بلبيس، وافتتحوها، وأسَرُوا مُعظَم أهلها، وهم يتأهَّبون للمَسير إلى القاهرة والفسطاط.

– وماذا فعل شاور؟

– إن هذا الرجل لا زال يركب رأسه، فهو يُصِر على أن يتولى الدفاع عن مصر وحدَه رغم ضعف جيشه. ولقد علمت أن الأمراء وعلى رأسهم أبوك عرَضوا عليه أن يستعين بنور الدين، فقال لهم إنه يُفضِّل أن يحرق البلد ويحترق معها على أن يُفكِّر في هذه الاستعانة. إنه رجل حقود، يُؤثِر هلاك مصر والمصريين على أن يرى عدُوه أسد الدين في مصر.

وكانت فاطمة تستمع إلى ريحانة وهي شاردة الذهن تُفكِّر في حرج الموقف وغرابته، وتعجَب كيف وصلت هذه الأخبار إلى صديقتها! ولكنها عادت فتذكَّرت أن لا بد وأن

يكون خشترين هو الذي نقل إليها هذه الأخبار لصلته بها، ثم تذكَّرت أيضًا كيف كان عبد الرحمن يُعرِّض بشاور وأعماله وأخطائه في كلام ملفوف مستور كلما عرضت مُناسَبة في درسه، وطال بها الصمت والتفكير، وكانت قد زالت حُمْرة الحياء، وعاد إليها لونها الباهت من أثر السهر؛ فخافت ريحانة أن تكون قد أفزعتها بهذا الحديث فتظاهَرت بعدم الاهتمام وضحكت، ثم قالت: ما لكِ ساهمة، شاردة العقل؟! فيمَ تُفكِّرين؟ إن الفرنج لا زالوا بعيدين عنا، والله يُساعِد من بيدهم الأمر حتى يصُدوهم عنا. هاتي العود وأسمعيني لحنك الجديد؛ فإني مُضطَرة إلى العودة السريعة اليوم. فقالت فاطمة: أعفيني الآن، فإني أشعر ببعض الضيق، وسأُسمِعك إياه المرة الآتية إن شاء الله، فإني أكون قد أجَدتُه وجوَّدته.

خرجت ريحانة، وتركت فاطمة لتخلو بأفكارها، ولكنها لم تلبث قليلًا حتى سمعت صوت رجل غريب يدخل غرفة أبيها المُجاوِرة للمكتبة، والخادم يُرحِّب به ويدعوه للانتظار حتى يحضر الأمير، فنادَت الخادم وسألت من يكون الرجل؟ فقال: إنه مولانا القاضي الفاضل كاتب ديوان الإنشاء، يُريد مُقابَلة مولاي الأمير شمس الخلافة، فأخبرته أنه خرج وسيعود بعد قليل، فطلب أن ينتظره، وقد أجلسته في غرفة سيدي الأمير.

فعجبت فاطمة ودهِشت؛ إنها سمعت عن القاضي الفاضل كثيرًا، وخاصة من عبد الرحمن؛ فإنه كان يمتدحه أمامها دائمًا ويُثني عليه، حتى لقد قال لها مرة: إن القاضي الفاضل هو الرجل الوحيد في هذه الدولة.

ولكن لم يسبق له أن زار أباها في قصره قبل الآن. تُرى ما الذي جاء به؟ وبيْنا هي في هذا التفكير تبدأ وتُعيد، إذ سمعت صوت أبيها يدخل غرفته مُحيِّيًا ومُرحِّبًا بضيفه، فانزوت في ركن من أركان المكتبة وتظاهرت بالقراءة. وبدأ الحديث بين الرجلين؛ فقال القاضي الفاضل: إنك تعلم أيها الأمير خطورة الموقف الآن، وقد سمعتُ أنك أشَرت على شاور أن يستنجد بنور الدين فأبى؛ ولذلك أتيت أنا الآن أُؤيِّد رأيك، وأرجوك أن تتلمس سبيلًا آخر لتنفيذ هذا الرأي، قبل أن يُداهِمنا الفرنج فلا نستطيع شيئًا.

– لكَم أشَرتُ بهذا الرأي على شاور، ولكنه لا يرضى، ولا يرضخ، ويُخيَّل إليَّ أنه يُفضِّل أن يُسلِّم البلد إلى الفرنج على أن يكتب إلى نور الدين، ولست أدري كيف أُقنِعه.

– إن إقناعه من المُستحيل فلنُحاوِل ولنَسعَ سعيَنا من طريق آخر.

– وما هو يا عبد الرحيم؟

– إني أرى أن تسعى لإقناع الخليفة نفسه أن يكتب هو إلى نور الدين ليستنجد به.

فضحك شمس الخلافة، وعجب كيف لم يُفكِّر في هذا من قبل وهو طريق ميسور! وقال: أجل هذا هو الطريق. إنك دائمًا حلَّال المُعضِلات يا عبد الرحيم، وإنني لأعجب لمَ لمْ أُفكِّر أنا في هذا الحل قبل الآن مع قربه وسهولته.

– إن خطورة الموقف تُنسي المرء دائمًا البسائط وتدفعه إلى التفكير في البعيد الصعب.

– هذا صحيح، ولكنني أخشى إن أنا ذهبت لمُقابَلة الخليفة أن يعلم شاور، ورجاله ينبثُّون في كل ركن من أركان القصر، وينقلون إليه كل صغيرة وكبيرة. وإذا علِم فإنه يسعى لإحباط المشروع.

– لقد فكَّرت في هذا أيضًا ووجدت له الحل.

– يبدو لي يا صديقي أنك تُفكِّر في كل شيء، وأن لديك لكل مشكلة حلها. ليت لك الأمر — وإن كنت من أرباب القلم — دون هذا الرجل شاور، وما هو هذا الحل؟

– أنت تعلم أن الكامل بن شاور ناقمٌ على الفرنج منذ ذلك الحادث بينه وبين قائد حامية الفرنج في القاهرة، ولقد تحدَّثتُ إليه فعرفت أنه يميل إلى الكتابة إلى نور الدين؛ فلو أنك استملته إليك وأقنعته بصواب هذا الرأي، فإنه يستطيع أن ينقله إلى الخليفة العاضد دون أن يُثير ريبًا أو شكًّا لدى رجال القصر.

– بوركت يا صديقي وبارك الله لك في هذه الرأس المُفكِّر.

وسأبعث في طلب الكامل في الحال، بل سأذهب إليه بنفسي وأدعوه لزيارتي؛ لنتحدث في الأمر هنا في منزلي، والله يُوفِّقنا جميعًا.

الخليفة يستنجد بنور الدين

خرج القاضي الفاضل، وخرج الأمير شمس الخلافة، وبقيت فاطمة وحدَها في المكتبة تُفكِّر، وقد اتسعت أمامها ميادين التفكير: إن مصر تضطرب بالحوادث في الخارج؛ فالفرنج في بلبيس، وشاور يستعدُّ لصدِّهم، ورجال الدولة يتقابلون ويتشاورون علَّهم يجدون مخرجًا أو عونًا، وهي وسائر نساء مصر حبيسات الجدران والقصور كأنهن في سجن اختياري لا يدرين من الأمر شيئًا، ولا يشتركن في التفكير في مستقبل البلاد.

أَلَسْن مصريات وهذا وطنهن كما هو وطن رجالهن من آباء وإخوة وأزواج وأبناء؟! ألا يخضعن للهزيمة كما سيخضع لها رجال مصر؟ ألنْ يُؤسَرن كما يُؤسَر المصريون إذا تغلَّب العدُو، لا قدَّر الله؟! وإذا انتصر المصريون ألا يَفرَحْن لهذا النصر؟! لمَ إذن يقَرْن في البيوت مُحتجَبات كالسائمة لا يفقهن شيئًا ولا يَعلَمْن شيئًا، ولا يشتركن في الدفاع عن البلاد بالقدْر الذي يستطِعن؟! هل في الدين ما يمنعهن عن القيام بهذا الواجب الشريف؟ كلا، إنها تَذكُر أن مُدرِّسها عبد الرحمن قد حدَّثها أكثر من مرة عن نساء المسلمين، اللاتي كُن يخرجن مع جيوش النبي لُمحارَبة الكفار، فيُحرِّضن الجند على القتال ويسقِين الماء ويُضمِّدن الجرحى.

وإنها لتَذكُر أنها كانت تشتعل حماسًا وهي تستمع لِمثل هذا الحديث، فتتمنى لو أن الزمن تقدَّم بها فكانت إحدى هؤلاء النساء لتفعل فعلهن، وتُضحِّي كما ضحَّين. وإن هذا الشعور نفسه ليُعاوِدها الآن فتُحِس أن كل جزء من جسمها يُناديها للحركة والعمل، عمل أي شيء تستطيعه لتُساهِم في الدفاع عن وطنها مصر، وعن دينها الإسلام ضد هذا العدُو المُغير. ولكن كيف يُتاح لها هذا وهي لا تُغادِر القصر إلا مُحجَّبة مراتٍ معدودات في السنة للنزهة في حدائق الروضة أو في حَرَّاقة أبيها الخاصة يوم الاحتفال بوفاء النيل؟

فكَّرت فاطمة في هذا طويلًا، وشعورها القوي وأملها الجامح يدفعانها، والحقيقة الواقعة المُؤلِمة ترُدها، وإذا بأحد الخدم يدخل فيقول: الشيخ عبد الرحمن حضر ويُريد مُقابَلة مولاتي.

فأحسَّت فاطمة بالفرح الشديد يغمُرها، وأخذ قلبها ينبض في سرعة غريبة، وأخذت تنظر إلى الخادم مشدوهة مُدة طويلة وهي لا تكاد تُصدِّق ما يقول، ثم نهضت واقفة وقالت: وأين هو؟

– في المَنظَرة تحت.

– ادعُه إلى هنا، وسأذهب لأُغيِّر ملابسي وأُوافِيه.

وخرجت فاطمة إلى غرفتها وظلَّت تُقلِّب ملابسها وهي حيرى؛ أيها تختار؟ وأطرافها باردة ترتعد لا تكاد تُمسِك ثوبًا حتى يسقط منها. وأخيرًا انتقت ثوبًا أبيض بسيطًا، وارتدَت فوقه قباءً واسعًا ذا أكمام طويلة أخضر اللون مُزركَشًا بالذهب مُطرَّز الأطراف باللون الأبيض، وتناولت منديلًا من نفس القماش واللون فتلثَّمت به، ونظرت إلى المرآة وأطالت النظر، ثم ذهبت إلى المكتبة؛ فلمْ تكَد ترى عبد الرحمن حتى اندفع الدم إلى وجهها فصبَغه بحُمْرة في لون الخمر جميلة، وأطرقت إلى الأرض حياءً، ثم مدَّت يدها إليه تُحيِّيه وهي تقول: حمدًا لله على السلامة، كيف قوص، وكيف صحة السيد الوالد؟

– أحمد الله وأشكره، كانت قد أصابته حُمَّى وعانى منها كثيرًا، ولكنه قارَب الشفاء الآن.

– الحمد لله، أكمل الله له الشفاء، ورزقه الصحة والعافية التامة.

وسكتت وسكت عبد الرحمن وهو ينظر إليها ويُعجَب بجمال وجهها المُستطيل ذي العينَين السوداوَين، والأنف الدقيق، والفم الصغير، والطرحة الخضراء تُحيط به كما تُحيط الهالة بالقمر، ثم قال: لقد وجدت أمامي هنا هذه الكراسة فقلَّبتها، فإذا بها أبيات من الشعر رائعة تدُل على ذوقٍ جميل وحسن اختيار.

فأفرح هذا التقريظ فاطمة وقالت تُجِيبه: لقد شغلت نفسي أثناء غياب سيدي الأستاذ بقراءة بعض الدواوين، وكنت أختار ما يُعجِبني من الشعر فأُدوِّنه في هذه الكراسة.

– ولكنني لاحَظت أن كراستكِ تحوي نوعَين من الشِّعر فقط؛ الشعر الذي يتحدث عن مصر، والشعر الذي يتحدث عن القلب. مما دلَّني على أنكِ كنت مُلهَمة في اختيارك.

– إنني لم أضع لنفسي خُطة مُعيَّنة عند الاختيار، ولكن هذا أمر طبيعي؛ فمن من الناس يحيا بلا وطن، ومن من الناس يحيا بلا قلب؟!

وهنا سمع المُدرِّس وتلميذته صوت الأمير شمس الخلافة يدخل غرفته المُجاوِرة ومعه ضيف، فقال عبد الرحمن: هذا صوت الأمير. ألا أذهب لأُسلِّم عليه؟

فقالت فاطمة في همس: لا، بل ابقَ قليلًا فإني أظنه مشغولًا مع ضيفه في أمر هام، ولا ترفع صوتك لئلا يسمعنا.

– إذن اسمحي لي أن أنتظر في المَنظَرة تحت؛ فإننا نسمع حديثهما واضحًا جليًّا.

– بل إني أُريدك أن تسمعه فهو حديث يهُمك.

– ولكن هذا ليس من الخلق الطيِّب؛ فقد لا يُريد الأمير أن نسمع حديثه.

– إن الأمر لكَما تقول، ولكن هذا الحديث يتعلق بمستقبل البلد، وواجبٌ عليك كمصري أن تعرفه، وإني لا أخشى أن تنقله إلى أحد؛ فإنك يا سيدي خير من يُؤتمن على الأسرار.

فقال عبد الرحمن في دهشة: ما هذا؟! إن هذا صوت الكامل بن شاور.

– نعم إنه هو. استمع الآن للحديث.

وهنا سمعا الأمير شمس الخلافة يقول لضيفه: يا كامل، إن عندي أمرًا لا يُمكِنني أن أُفضي إليك به إلا إذا أقسمت أنك لا تُطلِع أباك عليه.

– أُقسِم بالله ألا أُفضي إليه به. قُل ما هو؟

– أنت تعلم أن أباك عقد النية على الصبر والمُكافَحة وحدَه ضد الفرنج، وأنت تعلم أيضًا أنه لا يقوى على هذا الكفاح ويبدو إليَّ أنه سيُسلِّم البلد أخيرًا للأعداء، ولا يُكاتِب نور الدين.

– أعلم هذا.

– وأظنك تُدرِك معي أن هذا رأي خاطئ.

– أُوافِقك.

– إذن لا مَخرج لنا إلا الكتابة إلى نور الدين؛ ولهذا أرجو أن تذهب بنفسك إلى الخليفة، فتطلب منه أن يكتب هو إلى نور الدين يطلب النجدة.

أطرق الكامل طويلًا، وأنشأ يُفكِّر، وتنازَعته عواطف كثيرة، واحتدمت المعركة في نفسه. إن هذا الذي يطلبه شمس الخلافة يُوافِق هوًى في نفسه؛ فهو يُؤمِن معه بخطر الفرنج على البلد، وهو يُؤمِن معه أن جيش أبيه قد لا يصمد طويلًا أمام جيش الفرنج، فإذا انهزم كان لهزيمته نتائج جِد خطيرة، وضاعت مصر حصن الإسلام القوي، وانتقلت إلى أيدي الفرنج، ولكنه يعلم في نفس الوقت أن أباه يكره أسد الدين كرهًا شديدًا، ويأبى

كل الإباء أن يستعين بنور الدين؛ لأنه أدرك تمامًا — من التجربتين السابقتين — أن أسد الدين يطمع في مُلك مصر، وأنه إذا أتى هذه المرة وجد تعضيدًا من المصريين وترحيبًا من الخليفة، وتأييدًا من رجال الدولة.

وإذا أتى أسد الدين وملك مصر، أليس في هذا نهاية لدولة أبيه وضياع لَمجده ومَجد أسرته؟ وماذا يكون مصير أبيه ومصير أسرته، بل ومصيره هو؟ أقربُ الظن أن يكون مصيرهم جميعًا الأَسْر إن لم يكُن القتل؛ فإن أسد الدين لا يُمكِن أن يكون قد نسي لأبيه غدره المُتكرِّر وحنثه في وُعوده.

جالت كل هذه الأفكار بخاطر الكامل، وقامت في نفسه ثورة عنيفة؛ أيَقبل ما عرضه عليه شمس الخلافة ويشترك معه في تنفيذ خُطته، فيكون في هذا خيانة لأبيه وأُسرته وقضاء على مَجدهما ومَجده وإن كان يُؤدِّي بذلك خدمة لمصر وللإسلام؟ أم يعتذر ويترك الأمور تجري في أعِنَّتها، فيكون بذلك وفيًّا لأبيه؟ أيهما أحق أن يتبع، وأيهما أحق أن يفوز بولائه ووفائه؟!

طال بالكامل التفكير ولجَّ به الألم واشتد به الحرج، ولكنه كان رجلًا مُؤمِنًا شديد الإيمان؛ فآثر أن يُوافِق شمس الخلافة على رأيه، راجيًا أن يُقدِّر له أسد الدين سعيه هذا إذا جاء فيعفو عن أبيه. ولم يشَأ أن يُفضي لمُحدِّثه بما جاش في نفسه، وإنما رفع رأسه بعد قليل وقال: إن أبي يخشى أن يملك أسد الدين مصر إذا حضر هذه المرة، ولكنني أُفضِّل أن يملِك البلدَ المسلمون على أن يملكها الفرنج. سأذهب أيها الأمير، وفي يقيني أن الخليفة سيُرحِّب بهذا الرأي؛ فهو أشد كرهًا للفرنج منا. ولكن …

– ولكن ماذا؟

– من الذي سيحمل الكتب إلى الشام؟!

سمعت فاطمة هذا الحديث كما سمعه عبد الرحمن؛ أما هي فكانت تعلم مُقدِّماته فلمْ تَعجَب له، أما عبد الرحمن فقد أخذته الدهشة، فكان يُتابِع الحديث بجميع حواسه، ولم يكَد يسمع هذا السؤال الأخير حتى وقف ونظر إلى فاطمة وهمَّ بالكلام، غير أن فاطمة سبقته فقالت: لقد كنت أذكُر قبل حضورك كلامك عن نساء المسلمين في عهد النبي، وما كُن يُؤدِّينه من خدمات في الحروب، وكنت أتمنى أن تُتاح لي فرصة أُؤدِّي فيها خدمة لديني في هذه الظروف العصيبة، وهذا أبي يُريد من يحمل رسالة الخليفة إلى نور الدين، وكم أتمنى لو كنت أنا هذا الرسول؛ فإني أُجِيد ركوب الخيل ويُمكِنني أن أتنكر في زي شاب.

فضحك عبد الرحمن مُعجَبًا بهذه الروح الوثابة وقال: بارك الله فيكِ وفي هذه الروح القوية. ليت كل نساء المسلمين كُن فاطمة! إنني أفخر بك الآن. ولكن هذه رحلة طويلة شاقة، ولقد هممت إذ وقفت الآن أن أذهب أنا للأمير فأعرض عليه نفسي لأكون رسوله إلى الشام. أتَأذَنين لي؟

وتركها وطرَق باب الغرفة المُجاوِرة ودخل مُحيِّيًا، فدُهِش الأمير شمس الخلافة وقال: أهلًا بالشيخ عبد الرحمن. متى وصلت؟ حمدًا لله على السلامة، وكيف صحة الوالد؟

فقال عبد الرحمن: شكرًا جزيلًا أيها الأمير، والحمد لله، فقد منَّ على والدي بالشفاء بعد أن قاسى آلام الحُمَّى مُدة ليست بالقصيرة، ولكن ليغفر لي سيدي الأمير جرأتي؛ فإني أعتقد أنني جئت في وقت غير مناسب، وليغفر لي جرأتي مرة ثانية؛ لأنني تطفَّلت فسمعت حديثكما الآن وأنا في المكتبة، وقد جئت أعرض نفسي على سيدي الأمير لأكون حامل رسالة الخليفة إلى نور الدين.

فعجِب الكامل ونظر إلى هذا الشيخ الجريء، ونظر إلى شمس الخلافة مُستفهِمًا، فقال شمس الخلافة: هذا الشيخ عبد الرحمن مُعلِّم ابنتي فاطمة، وهو من أفاضل الناس علمًا ودينًا وشهامة، وها أنت ذا تراه يُقدِّم نفسه لهذه السفارة الخطيرة في الوقت الذي يتردد فيه كبار رجال الجيش عن القيام بها لو سألتهم ذلك.

ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال: إنني أثق بك يا شيخ عبد الرحمن، وأعلم مبلغ إخلاصك، وستكون سفيرنا إلى نور الدين إن لم نجد سفيرًا.

وذهب الكامل بن شاور في اليوم التالي إلى القصر الكبير، وطلب الإذن لمُقابَلة الخليفة. فلما مثَل بين يديه خلع سيفه وقبَّل الأرض ثلاثًا، ثم أفضى إليه برغبته فوجد منه أُذنًا صاغية، ولكنه تردَّد قليلًا قبل أن يُعلِن مُوافَقته؛ فقد تسرَّب الشك إلى نفسه، وأخذ يتساءل: أحقٌّ ما يقول الكامل؟ أجادٌّ هو في عرضه؟ ألا يُمكِن أن تكون هذه خدعة من شاور أراد بها أن يتعرف رأيه فيه، وحقيقة ميوله نحو أسد الدين؟ لقد كان من المُمكِن أن يتقدم إليه بهذا الاقتراح أي رجل من رجالات الدولة غير الكامل بن شاور، أما أن يتقدم هو فهذا أمر يُثير الشكوك.

لقد كانت هذه رغبته، ولقد بات ليلته يُفكِّر فيها ويلتمس السبيل إلى تنفيذها، وخاصة بعد أن أحس نساء القصر معه بالحيرة والقلق، وبعد أن شاهَد في أعيُنهن علائم الألم المكبوت وصُوَر الاستغاثة الصامتة كلما تحدَّث إليهن، غير أن حرصه وشكَّه دفعاه إلى إنكار هذا الاقتراح أولًا ليعرف مبلغ صدق مُحدِّثه، فنظر إلى الكامل نظرة طويلة ثم

قال: قد يكون لهذا الاقتراح وجاهته، بل لعله الحل العملي الوحيد، ولكنني لا أستطيع المُوافَقة عليه؛ فأنت تعلم أن دولتنا قامت لتدعو إلى المذهب الشيعي وتُدافِع عنه، وقد بذل جدودي الجهود المُضنية في هذا السبيل. فهل أتقدَّم أنا الآن إلى الاستعانة بنور الدين، وهو رجل سُنِّي مُغالٍ في سُنِّيته، يَدين بالولاء لمُنافِسي الخليفة العباسي؟ إن معنى هذا زوال مذهبنا بل ودولتنا.

وسكت العاضد قليلًا ثم تنهَّد طويلًا وقال يُخاطِب نفسه: ربَّاه، هل قُدِّر لي أن أهدم بيدي ما بناه أبناء فاطمة في هذه القرون الطويلة؟

وأدرك الكامل صدق دعواه وحرج موقفه؛ فإنه كان يُعاني نفس الحرج والضيق، وإن اختلفت الأسباب. ولكنه أراد أن يُقنِعه بصواب رأيه، فقال: إن مولاي أمير المؤمنين مُسم قبلَ أن يكون شيعيًّا، وإنه ليعلم أن الفرنج قد قدِموا هذه المرة في عُدة وعتاد لا قِبَل لنا بهما، فهل يُؤثِر أن تنتقل مصر إلى أيدي المسيحيين مُحافَظةً على المذهب؟ وهل يُحافِظ المسيحيون على المذهب إذا هم ملكوا مصر؟ أما أسد الدين فقائد من قُواد الإسلام؛ فهو إن انتصر كان في نصره العزة والمَجد للإسلام، ولا أظن أنه يسعى لتغيير المذهب، ثم إنكم يا مولاي تستطيعون أن تصطنعوه وتُقرِّبوه إليكم بشيء من المال والجاه.

عجِب العاضد من هذا الحماس وهذا الصدق يشيعان في حديث الكامل، فأراد أن يتأكد من إخلاصه، فسأله: وهل حدَّثت أباك في هذا الموضوع؟

– لا يا مولاي، فأنا أعلم مبلغ الكُره الذي بينه وبين أسد الدين، وأنه يرى الاتفاق مع الفرنج خيرًا من الاستنجاد بنور الدين.

فاشتد العجب بالخليفة وسأل الكامل مرة ثانية: ألا ترى أن في انتصار أسد الدين — لو قدِم — خطرًا على أبيك؟

فأجاب الكامل بقوله: مولاي، لقد فكَّرت في هذا الأمر طويلًا، وترددت في الإقدام كثيرًا، وعانيت من نزاع نفسي وثورتها الشيء الكثير، ولكنني فضَّلت في النهاية سلامة الإسلام والدولة على سلامة أبي. ومن يدري؟ فقد نستطيع في المستقبل أن نُزيل ما بين أبي وبين أسد الدين من أسباب العَداء.

عند ذلك أدرك العاضد صدق مُحدِّثه وإخلاصه، وأكبَر فيه هذه الروح الطيبة؛ فأعلن إليه مُوافَقته. ولكنه عاد يُسائله: ولكن أتَرى نور الدين يُلبِّي نداءنا، ويُغيث لهفتنا؟

– على المرء أن يسعى يا مولاي، وليس عليه تحقيق الأمل.

– صدقت. على المرء أن يسعى، وليس عليه تحقيق الأمل.

سأُنادي القاضي الفاضل ليكتب الخطاب، واللهَ أسأل أن يكتب لنا التوفيق.

واستأذن الكامل وخرج، وترك الخليفة الشاب في لُجة من أحزانه، وغمرة من آلامه، يستعيد في نفسه هذا الحديث، ويدرُس الموقف ومُلابَساته. لقد قرأ تاريخ أجداده، ورأى في هذا التاريخ صفحات المَجد واضحة جلية. إنه ليَذكُر الآن ما قرأه عن حياة جَده الأعلى مُؤسِّس الأُسرة عبيد الله المهدي، وإنه ليستعيد أمام ناظرَيه صُوَر النضال القوي الذي خاض غماره، حتى استطاع أن يضع أوَّل لَبِنة في هذا الصرح المَشيد. فلما نجح وأقام دولته في المغرب لم يهدأ له بال حتى أسَّس لدولته عاصمة جديدة — هي المهدية — وافتنَّ في تحصينها؛ فأحاطها بالأسوار القوية والقلاع المتينة. فلما تم له ذلك قال قولته المأثورة: «الآن أَمِنت على الفاطميات.» أجل الفاطميات، بناته وزوجاته ونساء أسرته. إن من خُلُق العربي أن يفتخر دائمًا بحمايته لوطنه وحريمه. وقد ورِث هو مُلك الفاطميين، وفي حِماه الآن فاطميات يُهدِّدهن خطرٌ داهم. إنه خطر مسيحي، ومن واجبه أن يحميهن ويُدافِع عنهن، ولكن هذا الرجل شاور يملك قُوى البلد؛ فليس أمامه إذنْ إلا أن يستنجد بنور الدين، ولعله يستطيع أن يضرب شاور بأسد الدين؛ فإذا تخلَّص منه أمكنه — كما يقول الكامل — أن يصطنع أسد الدين ويُقرِّبه إليه.

وقد يستطيع أن يُغريه حتى ينقلب داعية لدولته ويُحارِب به نور الدين والخليفة العباسي. إن في تاريخ أسلافه سابقةً مُشابِهة؛ فقد استطاع الخليفة المُستنصِر الفاطمي أن يستميل إليه البساسيري — أحد قُواد العباسيين — بالمال والعطاء، حتى انقلب الرجل داعية له، ودخل بغداد عاصمة العباسيين وخطب له فيها.

وهكذا انفسحت الآمال أمامه، وهدأت في نفسه ثورة النزاع، فنادى قهرمانة القصر وطلب إليها أن تأتيه بذوائب من شعور نسائه.

وأرسل فاستدعى القاضي الفاضل، وأمره فكتب له الرسائل إلى نور الدين بأسلوبه البليغ، وسخَّم أعالِيها بالمِداد الأسود، ثم أخرج العاضد ذوائب الشَّعر ونظر إليها قليلًا، ولبث لحظة يُحاوِل أن يمُد يده بها إلى الفاضل ثم يُحجِم، وتندَّت عيناه بالدموع، ولكنه أسرع فقدَّمها إليه وهو يقول: خُذ يا عبد الرحيم هذه فارفقْها بالرسائل. هكذا أراد الله ولا رادَّ لقضائه.

وحمل القاضي الفاضل الرسائل إلى شمس الخلافة في داره، واتفق الرَّجلان على أن يكون عبد الرحمن هو رسولهما إلى نور الدين.

وكان عبد الرحمن في المكتبة مع تلميذته فاطمة، فناداه الأمير شمس الخلافة وقال: يا شيخ عبد الرحمن، إنني لا أشُك في إخلاصك لوطنك ودينك؛ ولهذا وافقتُ على أن تكون

أنت حامل الرسائل إلى نور الدين، وهذه هي. ولكنك تعرف جيدًا أن مستقبل هذا البلد وأهلِيه يتوقف على نجاحك ووصول هذه الكتب إلى نور الدين نفسه، فكُن حريصًا عليها حرصَك على حياتك.

– لا تخَف أيها الأمير. سأجعلها في ثنايا قميصي اللاصق بجسمي، وسأصونها من أي مُعتدٍ إلى أن أُسلِّمها لنور الدين بيدي. والله يُوفِّقنا جميعًا لما فيه خير مصر والإسلام.

فقال شمس الخلافة: سِر على بَركة الله. وسأخرج أنا على جوادي إلى صحراء عين شمس، وأنتظرك حتى تُوافِيني فأُعطيك الجواد لتبدأ رحلتك محروسًا بعناية الله ورعايته.

حريق الفسطاط

كان شاور يعتقد أنه يستطيع أن يُخرِج الفرنج من مصر وحدَه؛ إذ كان يطمع أن يُغري مَلكهم بالمال، فأرسل جُباته وجهابذته إلى الأقاليم يجمعون المال من الفلاحين والتجار، واستعمل هؤلاء كل صنوف القسوة وألوان العذاب حتى سخط الشعب عليهم وعلى شاور. غيْرَ أن مري لم تخدعه رسائل شاور المُتتابِعة، ووعوده المُتتالِية؛ فتقدَّم بجيشه وعسكرَ عند بِركة الحبش قِبلي الفسطاط، واتخذ الأُهْبة لمُهاجَمة العاصمتَين؛ القديمة والجديدة. فذُعِر شاور وقرَّر أن يحرق الفسطاط بما فيها كي لا يملكها العدُو، فأرسل المُنادين يجوبون خِطَطها وحواريها وأزِقَّتها، يُنذِرون سُكانها كي يحملوا مَتاعهم ويُسرِعوا بإخلائها.

ارتاع سكان الفسطاط وبلغ الذُّعر في نفوسهم أقصاه؛ فكان كلٌّ منهم يحمل ما خفَّ وزنه وغلا ثمنه، ويُحاوِل أن يفرَّ بنفسه وأولاده، وزاد الإقبال على الدواب لحمل الناس والمتاع حتى بلغت أجرة الجَمل إلى القاهرة ثلاثين دينارًا، وتشتَّت الناس أيديَ سَبَأ؛ فرحل البعض إلى القاهرة والبعض إلى الصعيد أو إلى مدن الدلتا وقُراها وهم يبكون مساكنهم ومتاعهم ومدينتهم الجميلة بأسواقها ومساجدها، الغنِيَّة بتجارتها وصناعتها، العظيمة بآثارها ودُور عِلمها.

وفي اليوم التاسع من صفر سنة ٤٦٥ فرَّق شاور رجاله ومعهم عشرون ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مَشعَل، فأشعلوا النار في جميع أنحاء المدينة.

ووقف شاور على جبل المقطم يرقُب مدينة عمرو بن العاص العظيمة وهي تحترق، والنار تأكلها وتأكل معها تراثًا جليلًا ظل المصريون يُقيمون صَرْحه ويشيدون أركانه ويبنون عُمُده خمسة قرون ونصف قرن، وكان كل لسان من ألسِنة النيران يتصاعد مُترنِّحًا، ويندلع في صوت صارخ أجَش، يبكي المدينة الجميلة ويلعن شاور.

وفي الوقت نفسه كان الفقيه زين الدين المصري يقِف إلى جانب القاضي الفاضل في داره التي هاجر إليها بالقاهرة، ليُشرِفا من إحدى النوافذ على هذه المدينة الأثيرة لديهما العزيزة إلى نفسَيهما، ويبكيان فيها أوقاتًا جميلة قضَياها في المسجد الجامع، أو في دارَيهما، أو دور أصحابهما، وينقمان على هذا الرجل شاور فِعلَته النَّكراء، ويرثيان لسكان المدينة، ويأسفان لما حلَّ بهم من ذعر وخوف وضياع أنفُس وأموال، وكان الرَّجلان يدعوان الله مُخلِصين له الدعاء بقلبَين عامرين بالإيمان أن يدفع عن أهل مصر هذا البلاء، ويُغيثهم برحمة من عنده، ولم يلبثا أن وجدا شوارع القاهرة تزدحم بالفقراء من الناس، وقد علا عَويلهم واشتد بكاؤهم؛ فقال القاضي الفاضل: لا حول ولا قوة إلا بالله. لا حول ولا قوة إلا بالله.

انظر. انظر يا زين الدين.

ثم غطَّى عينَيه بيده لئلا يرى. ونظر زين الدين فرأى فقراء الفسطاط ومُعوِزيها الذين لم يجدوا أجْر الدابة التي تحملهم، وقد طارَدتهم النار فلجئوا إلى القاهرة يتدافعون بالمناكب في حالٍ تُبكي أقسى القلوب وأغلظها؛ فهذا شابٌّ مسكين يحمل أباه المريض على ظهره، وخلفه زوجه وأولاده يتعلقون بأذياله، وهذه صبيَّة شاردة تبكي وتصرخ صُراخًا يُقطِّع نِياط القلوب تُنادي أُمها ولا مُجيب، وهذه امرأة ضعيفة لا رَجل لها تحمل طفلها الرضيع ويتبعها ولدانِ وطفلة، وخلفها عجوز تحمل حصيرًا بالية وقُلة ماءٍ هما كل ما تملك من حُطام الدنيا، وهي تتعثر في مِشيتها تكبو ثم تقِف لتكبو ثانية، والجميع يتزاحمون ويتدافعون لا يجدُون دُورًا تُؤْويهم أو رَجلًا يُطعِمهم.

رأى زين الدين هذا كله فترَك النافذة وهو يقول: اللهم الطُف بعبادك، وأغِثهم برحمتك.

وخرج القاضي الفاضل فدعا جماعة من هؤلاء اللاجئين إلى داره وأعطاهم بعض الطعام، وترك صديقه زين الدين ليُعنى بأمرهم، وخرج على بغلته فالتفَّ الناس حوْله وهم يصرخون ويُولوِلون ويطلبون منه العون والنجدة، فطيَّب خاطرهم ووعدهم أنه سيسعى لدى الخليفة والأمراء ليُوجِدوا لهم مأوًى وطعامًا، فصاحوا جميعًا يُحيُّونه ويدعون له، وتقدَّم شابَّان عن الجميع فأخذا بزمام البغلة يشُقان للقاضي الطريق وسط الزحام الشديد، إلى أن وصل إلى قصر الخليفة فطلب الإذن ودخل، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد مسَّ شعبَك الضرُّ والجوع بعد أن أشعل الوزير شاور النار في الفسطاط، وها هم سكان المدينة الفقراء يملئون شوارع القاهرة وأزِقتها لا تكاد تُغطِّيهم الملابس البالية،

ولا يكاد يُمسِك جوعَهم شيء وهم يئنُّون ويبكون، ويضِجون بالعويل والصراخ. وأنتم يا مولاي مَلاذُ الجميع وكهفهم ونصيرهم، فجُد لهم بما يُطعِمهم من جوع، وما يُكسيهم من عُرِي، وهؤلاء أمراء الدولة قد امتلأت خزائنهم بالمال والطعام، فليأمرْهم مولاي أمير المؤمنين أن يُفسِحوا لهؤلاء اللاجئين الضالين أمكنة في دُورهم، ويُعنَوا بأمورهم. أغِثْنا يا مولاي من هذا الفزع الأكبر! أغثنا!

فتأثَّر الخليفة العاضد، وتندَّت عيناه بالدموع. ولا غَرْو فهو شاب في السابعة عشرة من عمره، أُلقِيت إليه مقاليد الأمور في بلدٍ تعقَّدت أمورها، فهاجَمهما العدُو واستبدَّ بها رجل لا يسعى إلا لَمجده وإن جاع الناس واحترقت البلد. ومسح الخليفة الدموع من عينيه وقال: أيها القاضي، مُر المُشرِفين على مطبخ القصر أن يُوزِّعوا ما عندهم من طعام على هؤلاء المساكين. وسأدعو الأمراء الآن وأحثُّهم على العناية باللاجئين وإيوائهم وإطعامهم. والله يُقوِّينا على فعل الخير، ويُؤيِّدنا بروح من عنده، ويُنقِذنا من هذا الشر الذي يُحيط بنا من كل مكان.

وذهب القاضي الفاضل إلى مطبخ القصر، فجمع ما به من طعام وحمله مع الحاملين، وخرج لتوزيعه على أولئك الفقراء المساكين؛ فتكالبوا عليه وعلى من معه يتدافعون ويخطفون ما يُقدَّم إليهم، ويضِجون فرحًا وسرورًا، ويهتفون في صوت واحد: حفظ الله سيدنا القاضي! نصر الله مولانا القاضي! فتركهم وأخذ يشُق طريقه إلى منزله، وعيونه تملؤها العَبَرات وهو يُناجي ربه في سريرته أن يُغيث هذا الشعب المسكين ويُنقِذه من أيدي ظالِميه وأعدائه.

صلاح الدين يخرج إلى مصر كارهًا

ظلَّ أسد الدين مُدةً بعد عودته من مصر يطلب من نور الدين أن يُزوِّده بجيش جديد ليعود إليها فيملكها، ونور الدين يُزهِّده فيها، ويزيد في إقطاعه ليرُده عنها. فلما لم يجد فائدة من الرجاء ذهب إلى إقطاعه حمص في شمال الشام، ومعه أبو الحسن الذي لم ينِ عن قصده لحظة؛ فكان لا يفتأ يُذكِّر صديقه أسد الدين بمصر، وبما يُقاسيه أَهْلُوها من مكروه.

وكان نور الدين وقتذاك في حلب يخرج للغزو والجهاد ثم يعود إليها، وهناك وصَلته الأخبار بمسير الفرنج إلى مصر، فندِم أن لم يُوافِق أسد الدين على رأيه، وأخذ يُعيد التفكير في مصر من جديد، ويستشير قُواد جيشه علَّه يصِل إلى رأي أخير يطمئن إليه.

وفي أحد أيام ربيع الأول كان نور الدين يجلس في قلعة حلب، ومعه خاصَّته ورجال دولته يعرض عليهم ما وصله من أخبار مصر، فدخل أحد الجند يطلب الإذن لرجل غريب يُريد المُقابَلة.

وكان القادم الشيخَ عبد الرحمن، فحيًّا المَلك العادل وقال: لقد جئت من مصر أحمل رسالة الخليفة العاضد إلى مولانا المَلك العادل نور الدين، فذهبت إلى دمشق، ولكنني علمت بوجود مولاي في حلب، فجئت إليها مسرعًا.

فقال نور الدين: وكيف حال مصر؟ لعلها في خير، فإنا في همٍّ شديد من أجلها.

– إن مصر يا مولاي في كَرب وبلاء؛ فتدارَكْها بالنجدة قبل أن يملكها الفرنج.

– وأين وصل الفرنج الآن؟

– خرجت من مصر وهم على أبواب الفسطاط.

فصاح نور الدين غاضبًا وقال في لهجة النادم: على أبواب الفسطاط؟ لقد تهاوَنَّا ونسِينا حق المسلمين علينا. أين الرسائل أيها الشيخ؟

فمدَّ عبد الرحمن يده إلى القميص الداخلي، وأخذ يفتق بعض أجزائه، ثم أخرج الكتب من بين ثنايا القميص، وناوَلها لنور الدين ففضَّها، وإذا بذوائب الشعر تتساقط

من طياتها، فالتقطها عبد الرحمن وقدَّمها إليه، وبدأ نور الدين يقرأ، والقُواد حوْله يرقُبون حركاته وينظرون إلى وجهه، وعلائم الغضب والسخط والحمية تَتابَع على مُحيَّاه واضحة قوية، وما إن انتهى من القراءة حتى تندَّت عيناه بالدموع ونظر إلى خُصَل الشعر في يده، وأخذ يُردِّد بعض كلمات ورَدت في خطاب العاضد: «هذه شعور نسائي من قصري يستغِثْن بك لتُنقِذهن من الفرنج.» ثم التفت إلى قُواده وقال: لقد كان أسد الدين أصوَب مني رأيًا. لا بد من عمل سريع لنتدارك ما فاتنا ونُصلِح خطأنا.

ونظر إلى صلاح الدين وقال: اذهب الآن إلى عمك في حمص، فاذكُر له خبر هذه الرسائل، وادعُه ليأتي على جناح السرعة.

وركب صلاح الدين جواده، وخرج من حلب مُسرِعًا نحو حمص، فلمْ يكد يبعد عن المدينة نحو ميل حتى رأى عمه وبعض رجالٍ يُسرِعون نحو حمص، فحيَّاه وبلَّغه رسالة نور الدين. فقال أسد الدين: لقد وصلتني رسائل مُشابِهة من مصر، فجئت مُسرِعًا لأعرضها على مولانا المَلك العادل.

وعاد أسد الدين وابن أخيه إلى قلعة حلب، فقال نور الدين: عفوًا يا أسد الدين! لقد أخطأنا في فهم قصدك، ولم نقدُر رأيك حق قدره، وكانت النتيجة ما أصاب المسلمين في مصر من ضر ومكروه؛ فتجهَّزْ واستعِدَّ للمسير بأقصى ما تستطيع من سرعة.

فقال أسد الدين: إنني خرجت في المرتين السالفتين ومعي جند قليل وعتاد أقل، ولا يُمكِنني أن أخرج هذه المرة إلا إذا زوَّدتني بما يضمن النجاح في مَهمَّتي.

– لك ما تطلب، فاختَر من جندك ألفَي فارس، ومن التُّركمان ستة آلاف. وسأُعطيك مائتَي ألف دينار للنفقة، ولكل فارس عشرين دينارًا نفقة خاصة، وسأُزوِّدك بما تُريد من ثياب ودواب وآلات وأسلحة. هل هذا يُرضيك؟ وتردَّد أسد الدين ثم قال: والقُواد؟!

– إنك تُكثِر من الشروط يا أسد الدين. والله إن تأخَّرت أنت عن المسير إلى مصر لأَسيرَن إليها بنفسي، فإننا إن أهملنا أمرها مَلكَها الفرنج.

– عفوًا يا مولاي، إنني لم أقصد إلى هذا، ولكنني لمستُ بنفسي أسباب الفشل في الغزوتين الماضيتين، وأُريد ألا تتكرَّر المأساة هذه المرة.

فقال نور الدين: سأبعث معك خير قُوادي، ورجال جيشي. سيصحبك عز الدين جرديك، وغرس الدين قلج، وشرف الدين برغش، وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة بن الياروقي، وقطب الدين ينال، وغيرهم ممن تُريد. فهل يُرضيك هذا؟

– شكرًا جزيلًا يا مولاي. ففي هؤلاء الكفاية.

ثم نظر إلى ابن أخيه وقال: تجهَّز يا يوسف للمسير معي.

فغضب صلاح الدين وقال: والله لو أُعطِيت مُلْك مصر ما سِرتُ إليها، فلقد قاسَيت بالإسكندرية من المَشاق ما لا أنساه أبدًا.

فالتفت أسد الدين إلى نور الدين وقال: لا بد من مسيره معي يا مولاي.

فنظر نور الدين إليه وقال: لا بد من مسيرك مع عمك يا صلاح الدين، فهو يُريد أن يشُد أَزْره بك وأنت ابن أخيه.

فقال صلاح الدين: لقد قاسيت الشدائد يا مولاي في السفرة الأخيرة من قِلة النفقة والدواب.

– سأُزوِّدك بما تُريد، فاعقِد العزم ولا تتردد.

فسكت صلاح الدين لحظة وقال: اترُكني للغد يا مولاي أستخير الله.

وخرج أسد الدين ليعُد العُدة للمسير العاجل، فقابَل الشيخ أبا الحسن، وأفضى إليه بخبر الحملة الجديدة، وذكر له أن ابن أخيه صلاح الدين لا يُريد السفر معه. فقال أبو الحسن: عليك بالشاعر حسان العرقلة؛ فهو صديق صدوق لصلاح الدين، وقد اختص به يُجالِسه ويُنادِمه، ويمدحه كثيرًا بشِعره.

فأرسل أسد الدين فدعاه، وطلب إليه أن يذهب إلى صلاح الدين، فيُحرِّضه على المسير معه إلى مصر. وأعدَّ العرقلة أبياتًا في نفسه، وذهب إلى دار صلاح الدين.

أما صلاح الدين فقد خرج من لدُن نور الدين مهمومًا محزونًا، وسار إلى داره فتوضَّأ وصلَّى، وتناوَل المصحف وفتحه، وبدأ يقرأ سورة البقرة، وقرأ، وقرأ، إلى أن وصل إلى قوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

وتابَع القراءة إلى أن قرأ:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

واطمأنَّت نفسه ورضيت، واستمر في القراءة، ودخل عليه العرقلة وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فقال العرقلة: صدق الله العظيم: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾.

وبدأ يُنشِد صلاح الدين أبياته حاثًّا ومُحرِّضًا:

وهل أخشى من الأنواء بخلًا	إذا ما يوسفٌ بالمال جادا
فتًى للدين لم يبرح صلاحا	وللأعداء لم يبرح فسادا
لئن أعطاه نور الدين حصنًا	فإن الله يُعطيه البلادا
إلى كم ذا التَّواني في دمشق	وقد جاءتكمُ مصر تهادى
عروسٌ بَعلُها أسد هزبر	يصيد المُعتدِين ولن يُصادا
ألا يا معشر الأجناد سيروا	وراء لوائه تلقَوا رشادا
فما كل امرئٍ صلَّى مع النا	س مأمومًا كمن صلَّى فُرادا

فضحك صلاح الدين وقال: لقد اطمأنَّت نفسي يا عرقلة بعد قراءة القرآن، وسأسير إلى مصر.

– وسيكون لك مُلْكها، كما مَلكَها يوسف بن يعقوب.

– لست أسعى لهذا يا عرقلة. إننا نُجاهِد من أجل المسلمين.

– وإن مَلكتَها فكَم تُعطيني؟

– والله لئن ملكتُ مصر لأُعطينك ألف دينار.

وأرسل نور الدين الفقيهَ عيسى الهكاري برسالة إلى الخليفة العاضد، يُخبِره بقُرْب وصول النجدة، وسار مع جيش أسد الدين إلى دمشق ليُودِّعه قبل رحيله إلى مصر.

القلب الذهبي

خرج جيش أسد الدين من دمشق في طريقه إلى مصر، وفي صحبته أبو الحسن وعبد الرحمن. وقد فرِح كلٌّ منهما بلقاء صاحبه، فكانا يقضيان الوقت معًا في حديث مُستمِر، وأبو الحسن يسأل عن أحوال مصر وأخبارها، وعن أصدقائه واحدًا واحدًا، وعبد الرحمن يُجيب ويُسهِب في الإجابة. فإذا أمسى المساء، وأناخ الجند للراحة والنوم، جلس عبد الرحمن وحدَه خارج الخيمة ينظر إلى السماء، ويتذكر مصر ويحنُّ إلى من فيها، وصورة فاطمة تُرافِقه في كل آن وحين، في حِلِّه وتَرحاله، في نومه ويقظته. إنه يتذكر دائمًا مَوقفها أمامه في المكتبة وهي تُودِّعه قبل سفره وتُوصيه بنفسه، وبالرسالة خيرًا، ووجهها الملائكي ينظر إليه بكُله؛ بعينَيه البرَّاقتَين ووجنتَيه الحمراوَين، وأنْفها المستقيم الدقيق، وفمها الصغير، وجبهتها المُشرِقة، ثم يذكُر كيف مدَّت يدها إليه تُقدِّم له القلب الذهبي المسطور عليه آية الكرسي، وتطلب منه أن يحمله معه في سفره ليكون رُقية تحفظه من كل شر وسوء، وتسأله أن يحتفظ به، ويُحسِن حراسته؛ فهو أعز ما تملك في الحياة، فيمُد يده إلى جيبٍ يُلاصِق قلبه فيُخرِج القلب، وينظر إليه طويلًا، ثم يُقبِّله قُبلة خافتة وهو يتلفت حوله، ويُعيده إلى مكانه الأمين لصقَ قلبه.

وكان كلما قرُب الجيش من مصر زاد حنينه إلى وطنه، واشتد فرحه لقُرْب رؤيته لفاطمة. فلما وصلوا إلى بلبيس دخل على القائد أسد الدين، وطلب الإذن منه ليُسرِع هو إلى القاهرة ليحمل إلى من فيها البُشرى بقُرْب مَجيء النجدة، فأذِن له. وامتطى صهوة جواده يُسابِق الريح، وهو يُحِس أن قلبه يكاد يقفز من صدره فيسبقه إلى القاهرة، ووصل إلى قصر الأمير شمس الخلافة، ودخل إلى الحديقة، فرأى فاطمة في ثوب أحمر فاتح جالسةً إلى جانبِ فَسْقية هناك، تُلقي فُتات الخبز إلى السَّمك، فوقف لحظة يتأملها،

ثم خطا نحوَها في احتراس، فلما وقف خلفها قال يُخاطِب السمك: كم أنت سعيد أيها السمك!

فجفلت فاطمة، وهمَّت واقفة، وقد وضعت يدها على صدرها من أثر المفاجأة، وقالت: الشيخ عبد الرحمن! حمدًا لله على السلامة. متى وصلت؟

– الآن فقط، وكان من حظي أن كنتِ أوَّل من قابلت.

فأطرقت، وقالت: أرجو أن تكون قد وُفِّقت في رحلتك وسفارتك.

– الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى، فقد كان التوفيق يُلازِمني في كل خطوة أخطوها.

ثم سكت لحظة وقال: والفضل في ذلك كله لقلبك.

فارتبكت فاطمة وقالت: قلبي أنا؟

فأخرج القلب الذهبي من جيبه وقال: أجل، قلبك الذهبي.

فضحكت فاطمة ووضعت يدها على قلبها، وقالت: لقد أفزعتني! وظننت أني كنت أحيا هنا مدةَ غيابك بلا قلب.

فضحك عبد الرحمن، وقال: لا، لم أعنِ هذا. عشتِ وعاش قلبك. ولكن مهمتي لم تنتهِ. أين الأمير شمس الخلافة؟

– إنه في غرفته.

– سأذهب لأحمل إليه البشرى. إن جيش أسد الدين في طريقه من بلبيس إلى هنا.

وأسرع عبد الرحمن فدخل على الأمير شمس الخلافة، فلمْ يكد يراه حتى وقف، وصاح: عبد الرحمن! أهلًا وسهلًا وحمدًا لله على سلامتك.

وتقدَّم فعانَقه وقبَّله، وقال: ما وراءك؟

– ورائي جيش أسد الدين في طريقه من بلبيس إلى هنا، وقد جئت أحمل إليك البشرى.

– الحمد لله. يا ليْتنا لم نُهادِن هذا المَلك. ولكن فليُعوِّضنا الله خيرًا في هذه المائة ألف دينار.

– مائة ألف دينار؟

– أجل، لقد اتفقنا مع الفرنج أن ندفع لهم أربعمائة ألف دينار، على أن ينسحبوا من مصر، وقد دفعنا لهم منها مائة ألف دينار. ثم أطرق لحظة، وقال: ولكن البلد خرِبت، وأفلست خِزانتها. والله لا يُمكِن أن أترك هذا المال لهم، سأحتال حتى أستردَّه. والآن سأتركك قليلًا، فانتظِرني حتى أعود لنتناول طعام الغذاء معًا، وسأذهب إلى الخليفة وأُبلِّغه خبر مَجيء النجدة. إن القاضي الفاضل سيكون أشدنا فرحًا بهذا النبأ.

وذهب الأمير شمس الخلافة إلى قصر الخليفة، وأخبره بوصول أسد الدين بجيشه إلى بلبيس. وبيْنا هو خارج من باب القصر إذا به يُقابِل الوزير شاور داخلًا، فحيَّاه وقال: أيها الوزير، إن لدي أنباءً سارَّة تهُمك.

فقال شاور: أخبار سارة! هاتِها فإن الأيام الأخيرة عوَّدتنا ألا نسمع أنباءً سارة.

فانتحى به شمس الخلافة جانبًا، وقال: لقد وصل أسد الدين بجيشه إلى بلبيس.

فأحس شاور كأن عقربًا لدغته، وقال: وهل هذه أنباء سارة يا شمس الخلافة؟

– أجل إنها لَسارة؛ فإن حضور أسد الدين معناه سرعة خروج الفرنج من مصر.

– ولكن أسد الدين طامع في مُلْكها.

– لا أعتقد أنه جاء طامعًا، ولكنه جاء مُنجِدًا ومُعينًا. وهَبْه جاء طامعًا يا صديقي، أليس الخير أيها الوزير أن يملك البلدَ المسلمون حتى لا تقع في أيدي الفرنج.

فبُهِت شاور من هذه الصراحة، واشتد به الضيق من هذه النغمة التي يسمعها في كل حين، ومن كل إنسان؛ المسلمون خير من الفرنج المسلمون خير من الفرنج. قد يكون هذا صحيحًا، ولكن معناه زوال مَجده هو، وأُفول نجمه، وماذا يعنيه هو، بل إنه ليُفضِّل أن يكون وزيرًا والبلد في أيدي الفرنج على أن يملكها المسلمون فيفقد سلطانه وجبروته، ولكنه عاد يُفكِّر في أسد الدين، وما يتطلبه جيشه من نفقات، فقال: إن أنباءك السارة يا شمس الخلافة ستُربِك البلد كله؛ فأنت تَعلم أننا لا نجد المال الذي اتفقنا على تقديمه للفرنج كي يسرعوا الخروج من مصر. فأنَّى لنا بمال جديد ندفعه لأسد الدين وجيشه؟!

فقال شمس الخلافة: دَع هذا لي فإني سأُدبِّر المال بنفسي.

– وكيف؟

– سأذهب فأطلب من المَلك مري بعض ما دفعنا له من مال.

فضحك شاور ضحكًا عاليًا، وقال: تطلب مالًا من مَلك الفرنج! إننا لم ندفع له إلا ربع ما طلب. فهل يُعطيك ما أخذ وهو يُلِح كل يوم في طلب ما بقي له لدَينا؟

فقال شمس الخلافة: إنها فكرتي وسأعمل على تنفيذها. والله يُوفِّقني.

ثم استأذن منه، وخرج من القصر، ثم من القاهرة مُتجِهًا إلى معسكر الفرنج جنوب الفسطاط. وما إن رآه مَلك الفرنج حتى ابتدره قائلًا: ما لك واجمًا مُقطَّب الجَبِين أيها الأمير؟! فليس هذا عهدنا بك.

فقال شمس الخلافة: إننا في أزمة شديدة، وموقف حرِج أيها المَلك.

– وماذا عساه أن يكون ذلك الموقف الحرج يا شمس الخلافة؟ لقد اتفقنا على الهدنة وها نحن أولاء نحزم أمتِعتنا، ونتأهب للعودة. فماذا يُحزِنكم بعد؟

– لقد قَل عندنا المال أيها الملك، فنحن في حاجة إلى من يُعيننا ببعضه.

فدُهِش المَلك، واعتقد أن وراء هذا الكلام حادثًا خطيرًا، فقال: لقد غدَونا أصدقاء كما كُنا، فاطلب ما تشاء أُعطِك.

فعجِب شمس الخلافة من هذا العرض، ولكنه خشي إن طلب كل المبلغ الذي دفع أن يرفض طلبه، فقال: لقد قلت حقًّا أيها المَلك الحكيم، فإنني لم أُفكِّر أن ألجأ لأحد غيرك لما بيننا من ود وإخاء، وإني لأشتهي أن تهَب لنا نصف ما أخذت.

فقال مري: لقد فعلنا.

فازداد العجَب بشمس الخلافة؛ فقد أجابه المَلك إلى طلبه دون لجاج أو نقاش، وخشي أن يكون وراء هذه المَوافَقة السريعة الكريمة شيء، فنظر إلى الملك طويلًا، ولم يملك أن يكتم ما في نفسه، فقال: أيها المَلك، إنني لأعجب في نفسي من هذا الكرم؛ إذ لم يحدث أن مَلِكًا في مثل حالك وقدرتك علينا وهب مثل هذه الهِبة لقوم هم في مثل حالنا.

فقال الملك: ليس فيما فعلت شيء غريب يُثير عجبك أو دهشتك؛ فأنا أعلم أنك رجل عاقل حازم، وأن شاور مِثلك، وأنكما ما سألتماني هذا المال العظيم إلا لأمر قد حدث.

فلمْ يرَ شمس الخلافة بدًّا من أن يُفضي للملك بسِر الموقف؛ ليُبرِّر طلبه أولًا، وليدفع الملك إلى التعجيل بالسفر ثانيًا، فقال: صدقت أيها الملك، فإن أسد الدين في طريقه إلى القاهرة، ولا مال عندنا، وقد راعَينا ما بيننا من ود وصداقة، فأرسَلني الوزير شاور لأُخبِركم أنه «ما بقي لكم مُقام» في مصر الآن، فالخير أن تُسرِع بالرحيل، ونحن باقون على الهدنة مُحافِظون على شروطها، وسندفع بعض المال لأسد الدين عند وصوله لنُرضِيه؛ فإذا عاد للشام، أرسلنا إليكم ما بقي لكم من مال.

كان مَلك بيت المقدس قد علِم بخروج أسد الدين، وكان يُدرِك أنه قد أُحيط به؛ فرأى من الحكمة أن يُوافِق على كل ما يطلبه شمس الخلافة من شروط؛ لأنه لم ينسَ ما لقِيه وما لقِيه جيشه من جند أسد الدين الأشداء في المرتين المُنصرِمتين، فقال: أنا راضٍ بما ذكرت، وإذا احتجتم لمبلغ آخر فاطلبوه أدفعْه لكم، حتى يسهل عليكم إقناع هذا الرجل أسد الدين، وسأعُد العُدة للرحيل السريع.

فأحس شمس الخلافة بعض ما في نفس الملك من ذعر وخوف، فأراد أن يكسب منه أكثر ما يستطيع كسبه، فقال: هذا ما كنت أتوقعه من حَزمك وحسن تدبيرك وأصالة رأيك أيها الملك، ولكنني أرى أن هناك أشياء صغيرة، قد يكون لها أثر خطير، وقد تُسهِّل لك سبيل العودة الآمنة إلى بلادك.

– وما هي؟

– أرى أنك في حاجة لكسب عطف المصريين حتى لا يُقيموا العقبات في طريق عودتك. فهل ترى مانعًا من إطلاق سراح الأسرى المصريين؟ ثم سكت لحظة، وقال: وأظن أنك لو أطلقت سراح طي بن شاور لكان هذا جميلًا تُطوِّق به عنق صديقك الوزير، يجعله يبذل الجهد لإبعاد أسد الدين عن مصر، وأعتقد أن هذا لو تم لكان كسبًا عظيمًا لكم.

فقال الملك: ولك هذا أيضًا يا صديقي، سنطلق سراح طي بن شاور، وجميع الأسرى المصريين. فهل من مزيد؟

– كلا أيها الملك، لقد كنت دائمًا كريمًا معنا. إنك ستعود إلى مُلكك، ولكنني سأذكر دائمًا حَزم المَلك مري، ورجاحة عقله، وصداقته وإخلاصه.

شاور يمكر مكرًا

أحس مَلِك بيت المقدس وقُواده بالفزع الأكبر، عندما علِموا بمجيء أسد الدين؛ فقضَوا ليلهم كله واليوم التالي وهم يحزمون أمتعتهم ويعُدون العُدة للرحيل. فلما تم استعدادهم غادروا المعسكر إلى الصحراء الشرقية وهم يتجنبون أن يُقابِلوا جيش أسد الدين.

ووصل أسد الدين بعد رحيلهم بأيام إلى القاهرة، فعسكر بأرض اللوق خارجها، ووجد شاور أنه لا سبيل إلى المُقاوَمة؛ فآثَر أن يُصانِعه ويُصادِقه، فما كاد يعلم بوصوله حتى أرسل إليه الهدايا والإقامات، ثم صحِب الأمير شمس الخلافة وذهب في اليوم التالي لزيارته في معسكره. فلما دخل في خيمته وقف وحيًّا الأمير شمس الخلافة تحية الصديق المَشوق لرؤية صديقه، ولكنه تردَّد في أن يمد يده لشاور، ووقف الرجلان لحظة ينظر كل منهما لرفيقه نظرة تملؤها المعاني المُتضارِبة المُتعارِضة. ورأى شمس الخلافة حرج الموقف، فتقدَّم لإنقاذ شاور وقال: أيها القائد الجليل القدر، عفا الله عما سلف، وقد جاء الوزير شاور لزيارتكم بعد أن ترك خلفه الماضي بجميع ما فيه من إحَن وخلاف.

ثم أخذ بيد كل منهما، ووضعها في يد الآخر، وتصافَح الرجلان وتعاهدا على أن ينسى كل منهما ما كان بينهما من أسباب النزاع، وجلس الثلاثة يتحدثون حديث ود وصفاء ومَحبة وإخاء. وأراد شاور أن يُزيل ما في نفس عدُوه بالأمس من أثر سيِّئ، وأن يُبرِهن له على صدق توبته، فقال: إن مصر تُرحِّب بكم اليوم بعد أن عانت من الفرنج ما عانت، وإني لأذكُر الآن سابق مشورتكم أن نتَّحد معًا فنُهاجِم الفرنج هنا لنقضي عليهم. فهل لديك مانع اليوم من أن نُجدِّد هذا العزم؛ فهم لا يزالون في صحراء مصر لم يُغادِروها بعد؟

فعجِب أسد الدين من هذا الرأي، يتقدم به شاور اليوم، وقد رفضه بالأمس والفرصة سانحة، فأجابه بلهجة الواثق من نفسه المُستخِف برأيه، وقال: لقد كان هذا رأيي أيها

الوزير والفرنج على البَر الغربي، وليس لهم وَزَر، أما الآن فلا؛ لأنهم على البَر المُتصِل ببلادهم، وقد وصل جندي إلى هنا بعد أن أنهكهم التعب وأكَدهم السير، فوجدنا الله سبحانه وتعالى قد كفانا شرهم، فنحن اليوم في حاجة إلى الراحة والاستجمام.

فاغتمَّ شاور لهذا الرد، وأيقن أن أساليبه المُلتوِية لا تُجدي مع هذا الرجل الصريح، وأيقن أيضًا أن أسد الدين قد أتى هذه المرة وفي نيته البقاء في مصر، وزاد في يقينه ما رآه من كثرة الجند والعتاد وهو مُقبِل على المعسكر مما لم يرَه في المرتَين السابقتَين؛ فخرج حزينًا كاسف البال، مُضطرِب الفكر، يسمع لشمس الخلافة ولا يكاد يُجيب إلا بلا أو بنعم، بل كثُر ما استعاد ما ألقى إليه مما لفت نظر رفيقه، فالتفت إليه وقال: لقد انتهى الأمر يا صديقي، وأصبح النضال أمرًا مستحيلًا، وقد يجُر عليك شرًّا كثيرًا لو حاولته، وأسد الدين رجل صريح وكريم، فما يضيرك أن تُصافيه وتُهادِنه لتُحافِظ على ما بقي لك من سلطان؟ فذلك خير لك وللبلد، وها أنت ذا قد لاحظت بنفسك طيب قلب الرجل؛ فإنه صفح وعفا بعد كلمات قليلة قلتها.

فتظاهَر شاور بأنه يُوافِق شمس الخلافة على رأيه وإن كانت نفسه حينذاك كالبركان المُضطرِم تكاد تنفجر، فتُصيب بحُمَمها وغضبها هذا القائد الوافد المُنذِر بزوال مُلكه وختام حياته، فقال: صدقت يا شمس الخلافة، إن أسد الدين رجل كريم وطيِّب القلب، وسيكون جيشه الكبير الشجاع خير حصن لمصر، يرُد عنها عادية الفرنج إن أزمعوا عودة.

ثم سكت لحظة وقال: ولكنني لا أخشى إلا هذا الفتى صلاح الدين. إن له لَنظراتٍ نفاذة قوية لا أطمئن إليها؛ لأني أُحِس كلما نظر إلي أنه يكشف خبيئة نفسي، ويدري كل ما يجول فيها.

وكان الرَّجلان قد قرُبا من منزل شمس الخلافة، فاستأذن من الوزير ودخل، واستمر شاور في طريقه حتى وصل دار الوزارة، وصعد إلى غرفته الخاصة وخلع ملابسه، وأطرق يُفكِّر طويلًا، ويستعيد ما مرَّ به طولَ أيام حياته من مِحَن وخطوب ومن عز ومَجد، ومضت الساعة تلو الساعة، وخيَّم الظلام وهو غارق في أفكاره، لم يُنبِّهه إلا أشعة القمر تدخل من فتحات النافذة في خيوط مُتفرِّقة، فتُنير بعض ظلام الغرفة، فترك الأريكة التي يضطجع عليها، وقام إلى النافذة ينظر من خلالها، فرأى القمر يُشرِق بدرًا كاملًا، وقد سطع نوره فملأ الأرجاء، وأضفى على قصور القاهرة المُتفرِّقة وحدائقها حُلَّة من نور بهي وضَّاء، ونفذ بعض هذا النور إلى نفسه فرفعها قليلًا عن عالم الحُكم وشهواته، ورأى نفسه إنسانًا ضعيفًا لا صديق له يُشارِكه رأيه أو يحنو عليه في محنته، وتذكَّر كيف

قضى عمره الطويل في نضال مُتلاحِق في سبيل شهوة زائلة ومَجد زائف، وأخذ يُفكِّر في هذا الكون المُتسِق العجيب الاتساق؛ يُولَد الناس ويدبُّون في الحياة يُلاحِق بعضهم بعضًا يشقَون ويسعدون، وتشملهم آيات الحزن أحيانًا طوالًا، وقد يمسُّهم الفرح لحظاتٍ فيُزيل ما علِق بنفوسهم من هذه الآيات، وساءل نفسه وهو ينظر إلى هذا البدر المُنير: كم أشرق هذا البدر بنوره على أقوام صفَت لهم الأيام فنعِموا وقطفوا من أزهار الحياة وثمارها! وكم أشرق وهو في رحلته أيضًا على أقوام آخرين، أصابتهم الأقدار بمحنها وويلاتها، والبدر كما هو يسير سيرته، ويرتحل رحلته! يجد فيه البعض لونًا من ألوان الجمال، ويُسامِره البعض فيُفضون إليه بما يقضُّ مَضاجعهم، ويخِز نفوسهم من آلام. ونظر أيضًا وأطال النظر فوجد سماء مصر الصافية، وقد انتثرتْ في جميع أرجائها النجوم اللوامع تُحيط بهذا القمر الساطع، وكأنها الحاشية أو الجند يسيرون في حراسته وحمايته، يتضاءل نورها إذا سطع بدرًا فلا تلتفت إليها الأنظار، ويلمع ضوءُها فتتباهى إذا اختفى، فلا يُنير العالم غيرها. وترك هذا العالم إلى نفسه، وراح يتساءل: تُرى أتكون حياته كحياة هذا القمر؟ لقد بدأ حياته جنديًّا صغيرًا، كما بدأ هذا البدر فكان هلالًا، ثم ارتقى وارتقى حتى أصبح وزيرًا فكان ملأ السمع والبصر، كما يبدو هذا البدر الآن يجذب إليه الأنفُس والأنظار، وستمضي الأيام فيُصبِح البدر محاقًا لا يكاد يُضيء. تُرى أوَصل هو إلى محاقه أم قرُب من هذا المحاق؟

ولم يكد يصِل في تفكيره إلى هذه النهاية حتى اتجه بعقله ونفسه إلى معسكر أسد الدين يستعرض ثانية مَجلسه ذلك اليوم هناك، وما دار بينه وبين أسد الدين أولًا، وبينه وبين شمس الخلافة ثانيًا من حديث؛ فعادت إليه الهموم تتكالب، وما درى أن شخصًا مُتخفِّيًا كان يدبُّ في ذلك الحين في طريقه إلى معسكر أسد الدين. فلما وصل قاده الجند إلى خيمة القائد، ولشَدَّ ما كانت دهشته عندما خلع الزائر رداءه، وأزال تنكُّره؛ فإذا به الخليفة العاضد نفسه، ذهب ليُرحِّب بأسد الدين. فلما استقر به المُقام تحدَّث إليه في شئون كثيرة، ثم أسرَّ إليه برغبته الشديدة أن يسعى لقتل الوزير شاور؛ لأنه لا يثق به، ولا يأمنه على نفسه، وعلى أسد الدين نفسه، وأبان له أن وجوده بلاء وشر على البلد وأهله، فمن الخير أن يقضي عليه.

لم يدرِ شاور من أمر هذه الزيارة شيئًا؛ لأنه كان غارقًا في أحلامه وتأمُّلاته التي أقضَّت مَضجعه تلك الليلة، فلمْ ينَم إلا قُبَيل الفجر، ولم يكُن في نومه أحسن حالًا منه في يقظته؛ إذ لاحَقته الأحلام المُزعِجة المُفزِعة، فاستيقظ مقبوض النفس، تعلو وجهَه غبرة،

وترهقه قترة. إن حُلمًا من بين الأحلام التي رآها أفزعه وأرعبه؛ فقد رأى أنه دخل دار الوزارة، فوجد على سرير مُلكه رَجلًا وبين يدَيه دواة الوزارة وهو يُوقِّع منها بأقلامه، فسأل عنه، فقيل هذا رسول الله ﷺ، وهو يعلم علم اليقين أن الأحلام جميعًا تحتمل أكثر من تأويل واحد إلا الحلم يظهر فيه رسول الله، فإنه حلم صادق بظاهره وباطنه لا تأويل له ولا تفسير، وتداعت الذكريات في نفسه فتذكَّر حلمه الذي رآه وهو نائم تحت النخيل في العريش، الحلم الذي رأى فيه الرجل ذا وجه الأسد يزوره في بِيعته ثلاث مرات، فإذا كانت الزيارة الثالثة انقلب أسدًا ثم انقض عليه فصرَعه، تذكَّر هذا فثارت به آلامه وشجونه وأحزانه، وراح يُدبِّر في نفسه أمرًا، ويمكر مكرًا. والله أشد مكرًا، وأجل تدبيرًا.

قتل شاور

قضى شاور مُعظَم ليلته ساهرًا، وكذلك فعل أسد الدين؛ فقد مكث ساعات بعد خروج العاضد من خيمته، وهو يُفكِّر في هذا البلد الغريب الذي يستبدُّ به وزير مُخاتِل مُخادِع كشاور، ظلَّ ست سنوات يستبد بالشعب فيه ويحرم الخليفة السُّلطة، فيستأثر بها لنفسه، ويلعب بقوتَين خارجيتَين مُعاديتَين؛ قوته هو أسد الدين، وقوة الفرنج. وظل يُدبِّر الأمر في نفسه، فهذا البلد خيرُ مَهد لقوة عظيمة يعتز بها الإسلام وهو في نضاله وجهاده ضد الفرنج، ولكن كيف السبيل إلى ذلك، والأمر فيه فوضى لا يطمئن إنسان لصاحبه، ولا يثق صديق بصديقه؟ لقد مضى عليه يومان أو ثلاثة منذ نزل بأرض اللوق خارج القاهرة، ووفود المصريين من سراتهم وفقهائهم وتجارهم تفِد على معسكره، وحديثها كله ترحيب به وبقدومه واستغاثة خافتة مكتومة من هذا الرجل المُستبِد بالحكم فيهم، وفي الليل يأتي خليفتهم مُتنكِّرًا فيدُس لوزيره، ويطلب منه أن يقتله.

قضى أسد الدين ليله يُفكِّر في هذا كله، ولكنه لا يجد السبيل إلى الغدر بشاور. لقد زاره الرجل وصافَحه وصافاه، فكيف يخون العهد ويفتِك به؟ لقد غدر به شاور أكثر من مرة، وناوأه وكافحه، واستعان بالفرنج ضده، ولكنه اعتذر عن الماضي، وسعى إليه راغبًا في صداقته.

كان أسد الدين رجل حرب وجهاد، سريع الكره، سريع الصفح، لا يحمل ضغنًا أو كراهية، ولا يُبيِّت الشر في خفاء، فهو أبعد الناس عن السياسة، قضى حياته كلها مُشهِرًا سيفه في الميادين يُجالِد عدُوه ويُناهِضه حتى ينتصر عليه، فإذا أقرَّ العدُو بضعفه وطلب الهدنة والأمان هادَنه وأمَّنه؛ ولهذا لم يشَأ أسد الدين أن يُسرِع بقتل شاور، بل ترك الأقدار تجري في أعِنتها، وغفر للرجل ما سلف. وشعَر شاور بصفح أسد الدين فتقرَّب إليه، ودأب على الركوب كل يوم إلى معسكره، فيقضي معه بعض الوقت، أو يركبان فيسيران

سويًّا يتجاذبان أطراف الحديث، فيمُد له شاور بالوعود مدًّا، ويُمنِّيه الأماني الطيبة، فإذا عاد إلى داره خلا بنفسه، وظل يُعمِل فكره، ويُدبِّر المكيدة للإيقاع بأسد الدين ورجاله؛ فهو يرى الخليفة يُسبِل عليه عطفه كل يوم، فيُرسِل له ولرجاله الخُلَع والهدايا والإقامات، وهو يرى جند أسد الدين ينبثُّون بين الشعب فيلقَون حبًّا وإكرامًا، بينما هو إذا سار هذه الأيام في مَوكبه لقي وجومًا وإعراضًا، ولم يُحِس علامات التَّجِلة والاحترام التي كان يُقابِله بها المصريون من قبل، بل كان كلما مر بينهم سمِعهم يهمسون، ورآهم يشيحون بأوجههم عنه حتى لا يرَونه ولا يراهم؛ فكان يُحِس أن دولته قاربت أن تدول، وأن نجمه كاد يأفل، فثارت نفسه، ورأى أن المعركة الآن أصبحت بينه وبين أسد الدين. إن أُبَّهة المُلك لا تحتملهما معًا، بل لا بد لأحدهما أن يُفسِح الطريق للآخر، واعتقد أنه إن لم يُبادِر فيُزيل أسد الدين، فلا بد أن يسعى أسد الدين إلى إزالته، فقرَّر أن يدعوه ورجاله إلى وليمة خاصة ليفتِك بهم وهم في ضيافته، ولم يجد من خاصته ورجال دولته من يثق به فيفضي إليه بنِيَّته إلا ابنه الكامل، فاستدعاه وحدَّثه حديثًا لينًا وأطال في الحديث ليُمهِّد للخبر، وليُبيِّن لابنه خطر أسد الدين، وحكمة هذا القرار الذي يُريد تنفيذه، ولكن الكامل لم يكُن ليُوافِق أباه على رأيه وهو ممن عملوا الحيلة لاستدعاء أسد الدين والاستنجاد به ضد الفرنج؛ فلمْ يكد يسمع قول أبيه حتى صاح مُعارِضًا.

– ما هذا يا أبَت؟! «والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعرِّفن أسد الدين.»

فغضب شاور من جرأة ابنه، ولكنه أراد أن يُقنِعه ليكسبه إلى جانبه، فقال: يا كامل تدبَّر في الأمر بعين اليقظة. «والله لئن لم أفعل هذا لنُقتَلن جميعًا.»

فلمْ يُبالِ الكامل بهذا الوعيد وقال: صدقت. و«لأن نُقتَل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نُقتَل وقد ملكها الفرنج؛ فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه. وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين بنفسه لما أجابه، ولما أرسل إليه فارسًا واحدًا؛ فيملك الفرنج البلد، وتزول دولة الإسلام.»

سمع شاور هذا الكلام من ابنه فأيقن أن لا فائدة من جداله، وقال في نفسه: «لئن كان هذا اعتقاد ولدي فكيف يكون اعتقاد غيره ممن لا يمتُّون إليَّ بصِلة؟» وسكت على مضض؛ إذ وجد أنه لم يعُد في جعبته إلا سهم واحد، وذلك أن يُصافي أسد الدين ويبذل له الود؛ ليبقى له بعض ما كان يتمتع به من سلطان. ولكن الخليفة العاضد كان يبعث الرسول بعد الرسول إلى أسد الدين، يُحرِّضه أن يُسرِع بالقضاء على شاور، فوجد أسد

الدين أن يجمع رجاله وقُواده ليستشيرهم في الأمر؛ فإنه لا زال يُحِس في نفسه التردد، ولا يستسيغ الإيقاع بالوزير.

وانتظم المجلس أسد الدين، وابن أخيه صلاح الدين، وجميع قُواد جيشه، وعرض عليهم أسد الدين الأمر، وتطارَحوا القول وتبادَلوا المشورة؛ فكان أشدهم مُهاجَمة لشاور صلاح الدين، إذ قال: أيها القُواد العظام، لقد شاهدتم غِنى هذه البلد وثروتها، وعلِمتم أن الفرنج كشفوا عورتها، وعرفوا مَسالكها، فتأكَّدوا أننا إذا خرجنا منها اليوم لأسرعوا إليها في الغد، وكلكم تعلمون كيف كان يلعب بنا وبالفرنج ذلك الرجل شاور، وكيف كان يُوقِع بيننا وبينهم ليُخلوا له الجو فينفرد بالسلطان فيها، وقد ضيَّع أموال مصر في غير وجهها، وقوَّى بها الفرنج علينا، وما كل وقت نُدرِك الفرنج ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قَل رجالها وهلكت أبطالها.

فقال أسد الدين: كل ما قلت صحيح. فماذا ترى؟

– أرى أن يُقتَل شاور؛ ففي قتله جلاء للموقف، واستقرار للأمور.

فصاح أبو الحسن، وكان حاضرًا مجلسهم يسمع ولا يتكلم، وقال: سلمتَ وغنمت يا صلاح الدين! والله لَهذا هو الحل، ولا حل غيره. اقتلوا رجلًا تُنقِذوا شعبًا ودينًا.

فلمْ يتمالك عز الدين جرديك أن قال: إن صوت الشعب من صوت الله، وهذا أيها القائد العظيم مصري ينطق بصوت المصريين، وقد استمعتَ بنفسك لوفودهم التي جاءت تُرحِّب بك، وكلهم يشكُون هذه الشكوى، ويئنُّون مما يجدون.

وكان أسد الدين يُحِب أن يُدافِع عن شاور، فهو رجل نبيل يُقدِّر قيمة كلمته التي قالها لشاور، ووعده أن ينسى الماضي، ويبدأ صفحة جديدة كلها صدق وصداقة وإخاء، فقال: ولكنني وَعدتُ الرجل.

فقال عز الدين جرديك: اترك هذا الأمر لنا.

وقال صلاح الدين: أجل، اترك هذا الأمر لنا.

وأمَّن الجمع على هذا الرأي، واتفقوا على أن يتولى صلاح الدين وعز الدين جرديك القبض على شاور، واضطر أسد الدين أن يخضع لرأيهم.

وكان شاور قد دأب أن يركب كل يوم عند الأصيل في أُبَّهة المُلك والعُدة الحسنة، والآلة الجميلة، والطبول والأبواق تسبق مَوكبه، فيذهب إلى معسكر أسد الدين ليقضي بعض الوقت في حديث وسمر. ومضت على أسد الدين سبعة عشر يومًا وهو ينتظر من الخليفة الوفاء بالوعد، والخليفة يُقِر أنه لا يستطيع وفاءً وشاور وزير. وشاور يعِد ويُمنِّي ويُماطِل.

وفي اليوم الثامن عشر خرج شاور في مَوكبه المُعتاد، وامتطى صهوة جواده الحبيب إلى نفسه «منصور» والطبول أمامه تُدَق، والأبواق تُنفَخ، والجند يُحيطون به ويتبعونه. وكان يُحِس ضيقًا في صدره، فتثاقَل في مِشيته، وأحس الجواد بعض ما يُحِس سيده من ضيق وقلق واضطراب، فمشى الهُوَينا مُطرِقًا حتى وصل الركب إلى معسكر أسد الدين، فخرج صلاح الدين للقائه، ورحَّب به، ودعاه للإقامة حتى يحضر عمه؛ فقد خرج لزيارة قبر الإمام الشافعي ولما يعُد بعد، فاعتذر شاور وقال بأنه سيذهب للقاء أسد الدين عند قبر الإمام. فنادى صلاح الدين صديقه عز الدين جرديك، وقال: لقد حضر الوزير لزيارة عمي أسد الدين، فلما لم يجده رغب أن يلحق به عند قبر الإمام الشافعي. فهل لديك مانع أن نصحب الوزير إلى هناك؟

ففهم جرديك رغبة صلاح الدين وقال: لا مانع عندي. إن إكرام الوزير واجب من واجباتنا.

وركب القائدان وسارا إلى جانب الوزير حتى قرُبا من مقبرة السيدة نفيسة، فنظر صلاح الدين إلى الأرض الخالية المُمتدة أمامهم، وقال: إن هذا المكان يصلح ميدانًا جميلًا للعب. والله لقد اشتقت للعب.

فضحك شاور وقال: في الحق إنك لاعب ماهر يا صلاح الدين. لقد شاهدت لعبك عند زيارتي للمَلك العادل نور الدين منذ خمس سنوات، فأُعجِبت به أيَّما إعجاب.

فقال صلاح الدين: إن هذا المكان الفسيح يُغري بالعدْو والتسابق. فهل تُحِب أن نتسابق حتى نصِل إلى قبر الإمام؟

فقال شاور: لا مانع عندي.

ووقف الثلاثة في صف واحد، وأعطى جرديك علامة الابتداء، فانطلق كلٌّ منهم يُسابِق الريح بجواده. فلما بعدوا عن حرس شاور، أشار صلاح الدين لجرديك أن يُبطئ قليلًا، وقرُب هو بجواده من شاور، وضربه بكتفه ضربة قوية أفقدته توازُنه فمالَ يسارًا وكاد يسقط، فلحِق به عز الدين جرديك، وألقى عليه حبلًا فقيَّد به كتفَيه، وجرَّه إلى الأرض، وترك الجواد يعدو وحدَه، وحاوَل شاور أن يُقاوِم، وصرخ يستنجد ويستغيث تارة، ويُهدِّد ويتوعد تارة أخرى، ونظر إلى صلاح الدين بعينَين يتطاير منهما الشرر، وقال: فعلتها يا لئيم.

فتقدَّم صلاح الدين وكمَّه بمنديل في يده، وقال: اسكت يا غادر. والله لولا أنك أسيري الآن، ولا تستطيع الدفاع عن نفسك لَلطمتُك على فمك هذا الذي يجرؤ على شتمي.

ووقف صلاح الدين يحرس أسيره، وذهب عز الدين جرديك فأحضر خيمة أودع فيها شاور، وأسرع إلى قبر الإمام الشافعي، فوجد أسد الدين جالسًا يستمع إلى شيخ ذي عمامة كبيرة، وعينَين واسعتَين ولحية طويلة، فأشار إليه أسد الدين أن ينتظر. وعجِب عز الدين جرديك، تُرى من يكون ذلك الشيخ الذي يجلس أسد الدين في حضرته خاشعًا هكذا؟! وسأل عنه رجلًا يُصلِّي هناك، فقال له إنه الشيخ العابد الصالح نجم الدين الخبوشاني.

فلما انتهى أسد الدين من حديثه نادى عز الدين جرديك فذهب، وأسرَّ إليه الخبر، فدُهِش أسد الدين، ونظر إلى الشيخ نجم الدين، وقال: هذا تأويل ما رأيتُ يا مولانا، وقد صدق تفسيرك.

فسأل جرديك: وماذا رأيت؟

– رأيت ليلة أمس كأن شاور دخل داري وناوَلني سيفه وعمامته، فجئت أستفسر مولانا الشيخ عن معنى هذا الحلم فأخبرني أني أقبض على شاور وأقتله، وأكون وزيرًا مكانه.

ولم يكد يُتِم حديثه حتى أقبل عليه جندي من جنود الخليفة مُسرِعًا يلهث، فحيًّا وقبَّل الأرض، وقدَّم رسالة معه لأسد الدين. فتحها وقرأها، ثم نظر إلى صاحبَيه، وقال: يُخيَّل إليَّ أن أجل هذا الرجل قد حان، فهذه رسالة أمير المؤمنين يحثُّني على قتل شاور، ومُوافاته برأسه.

فبدَت الدهشة على وجه عز الدين جرديك، وقال: عجيب أمر هذا البلد! أبِهذه السرعة تصِل الأخبار إلى الخليفة ويأتي رسوله يطلب قتل شاور؟! لقد قبضنا عليه منذ لحظات، وأتيتُ بعدها مُسرِعًا لأخبر سيدي القائد. يُخيَّل إليَّ أن وراء كل فرد هنا جاسوسًا يُحصي عليه خطواته.

ولم يُلقِ أسد الدين بالًا لكلام جرديك، بل نظر إلى الشيخ نجم الدين وكأنه يسأله رأيه: أيُجيب دعوة الخليفة فيُبادِر بقتل شاور، أم يكتفي بسجنه؟

وفهم الشيخ مقصده، فقرأ قوله تعالى:

﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

فأدرك أسد الدين ما يرمي إليه الشيخ، وانتحى بعز الدين جرديك ناحية، وأمره أن يذهب فيحتال هو وصلاح الدين لقتل شاور، وأن يصحب معه رسول الخليفة ليُحمِله رأس القتيل.

وعاد الرسول بعد قليل إلى الخليفة يحمل رأس شاور على طبق من فضة، فمُلِئت نفسه فرحًا، وأحس كأن كابوسًا كان يجثم على صدره فرُفِع عنه. وشاع الخبر بين أهل

القاهرة وعامة الشعب، فخرجوا جماعاتٍ وتجمهروا فرِحِين يحمدون الله أن نجَّاهم من شر هذا الرجل وظلمه. وعاد أسد الدين بعد قليل إلى القاهرة في طريقه إلى المعسكر، فرأى الناس عن بعدٍ وهم يُقبِلون نحوه جماعات، فظنَّ أنهم غضبوا لقتل وزيرهم، وأنهم يقصدون به شرًّا، فقرُب منهم، وقال: أمير المؤمنين يأمركم أن تذهبوا فتنهبوا دار شاور.

فعلا صياحهم، وهلَّلوا فرِحِين، وتركوه مُسرِعين نحو دار شاور.

الوزير أسد الدين

تدافَع سكان القاهرة مُسرِعين نحو دار الوزارة. فلما أحس بهم الكامل بن شاور، فرَّ بأهله من باب خلفي، واتجهوا نحو قصر الخليفة في حال شديدة من الذعر، وانقضَّ العامة على دار الوزارة فحطَّموا أبوابها، وانبثُّوا في حجراتها، وأبهائها يسلبون تُحَفها، وينهبون طِرفها، ويحملون أثاثها ورياشها، ويُزيلون آيات زينتها، ولم يتركوها إلا قاعًا صفصفًا، وخرجوا في مُظاهَرة قوية فرِحةٍ يشقُّون شوارع القاهرة حتى وصلوا إلى باب القنطرة، فنفَذوا منه مُتجِهين إلى معسكر أسد الدين وهم يهتفون بحياته، ويلوحون بأيديهم التي تحمل ما نهبوا من غنائم، كالكراسي الجميلة المُطعَّمة بالأبنوس والعاج، والأرائك المُكفَّتة بالفضة والنحاس، والأواني الخزفية الرائعة المنقوش، والملابس والحلى والجواهر. فخرج إليهم أسد الدين على جواده يُحيط به قواده وحاشيته، فحيَّاهم ورحَّب بهم.

وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، وبدأ الظلام ينتشر، وزاد الظلام حُلوكة طبقات السُّحب الكثيفة تُغطِّي صفحة السماء من ناحية الغرب، ولم تلبث الأمطار أن تساقطت رذاذًا فهلَّل المُتظاهِرون واعتبروا ذلك فألًا حسنًا، ثم تتابَع المطر، وانهمر غزيرًا فلمْ يُطيقوا وقوفًا، وكرُّوا راجعِين، وهم يرقصون ويُغنُّون مُتخِذين من الأواني النحاسية التي في أيديهم دفوفًا وطبولًا.

وكان الحُراس قد انتشروا فوق سور القاهرة وأبوابها، وبيدهم المَشاعِل، فأرسلوا صيحاتهم عالية تُنادي العامة بالإسراع قبل أن تُقفَل الأبواب. فلما دخل آخرهم، صدرت الأوامر للحُراس، فتعاوَنوا على جر الأبواب الضخمة، ثم جذبوا قضبان الحديد خلفها وأحكموا إرتاجها، ووقفوا يحرسون هذه المدينة التي آوَت إلى فراشها بعد أن أكدَّها

النضال وهدَّها التعب، ويرقُبونها وهي تغتسل بذلك الماء السماوي من آفات تلك العصبة المُتتابِعة من الوزراء المُتكالِبين على الوزارة.

وكان خمسون حارسًا يطوفون في ذلك الحين بقصر الخليفة الكبير، وعلى رأسهم أميرهم «سنان الدولة». فلما سمعوا المُؤذِّنِين يدعون للصلاة من قاعة الذهب داخل القصر، وقفوا يرقُبون الإشارة بانتهاء الصلاة. فلما وصلتهم أخذت الطبول تُدَق، والأبواق تُنفَخ بنغم جميل هادئ كعادتهم كل ليلة تحيةً للخليفة، ثم خرج أحد الأستاذِين من القصر فتقدَّم نحو أمير الحرس، وقال: «أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام.»

فأمر سنان الدولة بغلق أبواب القصر، ودار حوله سبع دورات، ووقف البوَّابون لحراسة الأبواب، وصدرت الأوامر بمنع الناس من المرور قربَ القصر.

فلما أحس الخليفة بالهدوء ينشر ألويته على القصر والمدينة، التفَّ في عباءة وتلثَّم بمنديل، وخرج إلى فَناء القصر، وركب حمارة فصعد بها زلاقة تُؤدِّي إلى بهو في الجهة الخلفية من القصر، فاجتازه إلى مَنظَرة تُشرِف على المدينة، فتقدَّم إلى دولاب خشبي كبير في الحائط، فخلع بعض أجزائه، فظهر من خلفه مَمر طويل، فترك الدابة ودخله، واجتازه حتى انتهى إلى سُلَّم صغير، فنزل فوجد سردابًا طويلًا، فسار فيه مُدة، وإذا به يرى ضوءًا خافتًا في نهاية السرداب، وسمع صوتًا يقول: من القادم؟

فنطق الخليفة بكلمة السر. فلما وصل حيث يقف الحارس خلع لثامه، فركع الرجل وقبَّل الأرض ثلاثًا، وقال: السلام على أمير المؤمنين.

فرد الخليفة السلام وسأله: أين آل شاور؟

– إنهم في الغرفة العاشرة من السرداب التالي يا أمير المؤمنين.

– وأين رئيس السجَّانِين؟

– قائم على حراستهم هناك يا أمير المؤمنين.

– ادعُه لأُكلِّمه.

فلما أتى أسرَّ إليه الخليفة أمرًا، ثم عاد في طريقه إلى غرفته الخاصة.

ظلَّت السماء تسكب دموعها غزارًا طول الليل حتى خفَّ عنها ما بها، وأحسَّت بعض الراحة مما كانت تُعاني، فانقطع وابِلها وصفَت وزالت سُحبها، وبدَت بعض النجوم في ضوء ضعيف ترنو نحو المدينة وساكنيها حانية عليها وعليهم، وكان القمر في نهاية رحلته الشهرية، فأشرق هلالًا صغيرًا قبل الفجر، ولم يلبث إلا قليلًا حتى مال نحو الغروب، وبدَت تباشير الفجر أضواءً باهتة؛ فنفخ حُراس القصر في الأبواق مُعلِنِين نهاية الليل

وقرب الصباح، فانكمش حُراس المدينة ناحيةً يُغفون إغفاءة قصيرة تُريحهم من عناء السهر، وأخذت مَشاعِلهم تُقلِّل من نورها بعد أن ظلَّت الليل كله تحترق لتُنير، وتُقاوِم ما يهبُّ عليها من ريح الشتاء، وما يتساقط عليها من قطرات الماء.

واستمع سكان القاهرة لأبواق القصر تُعلِن اقتراب الفجر، فتقلَّبوا في فُرُشهم وهم يُطارِدون النوم عن أعيُنهم، وسلطان النوم يغلبهم، وأجسامهم تتراخى طالبةً المزيد من النعاس بعد تعب اليوم السابق.

وخرج المُؤذِّنون — كالأشباح — نحو مساجدهم، وارتقَوا المآذن يدعون الناس للصلاة، فترك الناس دُورهم وأسرعوا يُجيبون الدعوة، وانتهوا من صلاتهم وعادوا إلى منازلهم، وقد انتشر نور الصباح، وشاع في المدينة ذات القِباب والمآذن والقصور.

وأطفأ الحراس مشاعلهم وتركوا الأبواب لحُراس النهار، وفُتِحت الأبواب ليدخل الوافدون ويُغادِرها الخارجون، وكان أوَّلَ الخارجين من باب القنطرة جنديان من جنود الخليفة، يحملان أواني من الفضة مُغطَّاة بقطع من الحرير.

كانت هذه الأواني تحمل رءوس الكامل بن شاور وآل بيته هديةً إلى أسد الدين من الخليفة العاضد.

وعند الضحى وصَلت رُسُل آخرون على رأسهم الأمير شمس الخلافة، يحملون إلى أسد الدين خُلَع الوزارة، وتقدَّم شمس الخلافة يعرض الخُلَع على أسد الدين ويُجلُّوها إليه قطعةً قطعة، وهو ينظر إليها مشدوهًا مُعجَبًا بجمالها ونفاستها، والقواد حوله أشد إعجابًا وأعظم شوقًا لرؤيتها، يتدافعون لمُشاهَدتها ويتبادلونها ويُمسِكون أطرافها ويمُرون بأيديهم على زخارفها، وشمس الخلافة مشغول بتقديمها ووصفها، وهو يقول: هذه عمامة الوزير البيضاء المُطرَّزة بالذهب من صنع تِنِّيس، وهذا ثوب الوزارة بِطِرازَين من ذهب صُنع في دَبيق، وهذه جُبَّة تحتها سَقْلاطون ومعها الطيلسان، والجميع يُزيِّنها طراز دقيق من الذهب، وقد صُنعت أيضًا في دبيق، وهذا عقد يُحلِّي الوزير به جِيده، كله من الجوهر الخالص وقيمته عشرة آلاف دينار، وهذا سيف الوزارة مُحلًّى مُجوهَر وقيمته خمسة آلاف دينار.

ثم ترك أسد الدين وصحبه فاغِري أفواههم فاتِحِي أعيُنهم، وبعُد قليلًا فقاد فرس الوزير فمشت إلى جانبه تتهادى، وتحني رأسها ثم ترفعها مُتعاجِبة، والذهب والجوهر يُحلِّي عُدتها وأجزاء جسمها، فيخطف لألاؤها الأبصار، وقدَّمها شمس الخلافة إلى أسد الدين، وهو يقول: هذه الفرس بما يُزيِّنها هدية مولانا أمين المؤمنين إلى وزيره القائد الباسل أسد الدين.

وارتدى أسد الدين ما أُرسِل إليه من خُلَع، وراح ينظر إلى نفسه مُعجَبًا بملابسه الجديدة، وأحس في نفسه بزهو وكبرياء لم يعهدهما من قبل، فقال في سريرته: إني أعذر الآن شاور على تفانيه في سبيل هذه الأُبَّهة والخُيَلاء وما يتبعهما من عز وسلطان.

وخرج فامتطى الفرس وخلفه صلاح الدين والأمير شمس الخلافة وقُواد الجيش الآخرون، وسار المَوكب مُخترِقًا شوارع القاهرة، وقد اصطف الناس على جانبَي الطريق لرؤية الوزير الجديد، والترحيب به، ووصل الموكب إلى القصر فدُقَّت الطبول والكوسات ونُفِخ في الأبواق، ووقف الجند في أجمل زينتهم تلمع سيوفهم ودروعهم لتحية الوزير الجديد، ودخل أسد الدين، وظل يجتاز غُرَف القصر وأبهاءه وهو لا يكاد يُصدِّق عينَيه: ما هذه الروعة، وما هذا الجمال، وما هذه الزينة، وما هذا الترَف؟!

وانتهى به السير إلى قاعة الذهب، فوجد في صدرها ستور الديباج تُخفي وراءها سرير المُلك. فلما انتظم المكان جميع الحاضرين تقدَّم أحد الأستاذِين المُحنَّكِين الخواص، فوضع دواة الخليفة في مكانها المُعَد لها، ووقف الوزير الجديد أسد الدين — كما جرت العادة أن يقِف كل وزير من قبل — إلى جانب باب المجلس وعن يمينه زمام القصر، وعن يساره زمام بيت المال، وحوالَيه الأمراء المُطوَّقون أرباب الخِدَم الجليلة، ويليهم قُراء الحضرة، ثم أشار صاحب المجلس إلى الأستاذِين، فرفع كلٌّ منهم جانب الستر المُذهَّب الجميل، المُحلَّى بنحو ألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر ذات ألوان مُختلِفة مُتباينة، وظهر الخليفة جالسًا على المرتبة المُؤهَّلة لجلوسه في هيئة جليلة على سرير المُلك المُذهَّب.

وبدأ قُراء الحضرة بقراءة بعض آي القرآن الكريم، وأحسنوا الاختيار، فقرءوا قوله تعالى:

﴿قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم تقدَّم الوزير فحيَّا الخليفة وقبَّل يدَيه، وتأخَّر قليلًا وجلس على مِخَدة مُزركَشة مُذهَّبة طُرِحت على الأرض، ووقف الأمراء في أماكنهم المُقرَّرة، فانتحى صاحب الباب وقائد العساكر ناحيتَي الباب يمينًا ويسارًا، وتلاهم من الخارج عند عتبة الباب زمامَا الفرقتَين الآمرية والحافظية، ثم من دونهم من الأمراء والقُواد والأجناد إلى آخر السُّرادق المُؤدِّي إلى قاعة الذهب، وتقدَّم قاضي القضاة، فرفع يده اليمنى مُشيرًا بسُبحته علامة التحية، وقال بصوت مسموع: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.» وتقدَّم بعده الأشراف

أقارب الخليفة ومعهم زمامهم، والأشراف الطالبيون وعلى رأسهم شيخهم، فحيَّوا الخليفة، ثم قدَّم العاضد منشور الوزارة إلى صاحب الباب، ففضَّه وبدأ يقرأ:

«هذا عهدٌ لا عهد لوزير بمثله، من عبد الله ووليِّه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجلِّ المنصور سلطان الجيوش وليِّ الأئمة مُجير الأمير أسد الدين أبي الحارث شيركوه العاضدي، عضَّد الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته وأعلى كلمته، سلامٌ عليك، فإنه يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يُصلِّي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليمًا، تقلَّدْ أمانةً رآك أمير المؤمنين أهلًا لحملها، فخُذ كتاب أمير المؤمنين بقوة، واسحب ذيل الفخَار بأن اعتزَتْ خدمتك إلى نبوة النبوة، واتخِذه سبيلًا للفوز سبيلًا.»

فلما أتم قراءة المنشور لفَّه بشريط من حرير، وناوَله الوزير فقبَّله، وتقدَّم فقبَّل يدَي الخليفة العاضد، وشكره على هذا الإنعام، ووعده أن يبذل الجهد في خدمة أمير المؤمنين وخدمة مصر وأهلها والدفاع عن بلاد الإسلام، ثم تقدَّم الحاضرون فئةً بعد فئة لتهنئة الوزير.

وصدر الأمر للحاضرين بالخروج، فخرجوا واحدًا بعد الآخر ووجوههم إلى الخليفة حتى يصلوا إلى الباب فينحنون ثلاثًا ويرفعون أيديهم إلى رءوسهم وينصرفون، وكان آخر الخارجين الوزير أسد الدين، فترك القصر وعاد في موكب جليل من جنوده وجنود مصر إلى أن وصل إلى دار الوزارة، ولشَدَّ ما كانت دهشته عندما رأى الدار خاوية خالية من جميع أثاثها وزينتها، حتى إنه لم يعثر على أريكة أو كرسي يجلس عليه، فنظر إلى صحبه وقال: لقد أطاع العامة الأمر طاعة عمياء، فنظَّفوا الدار من كل ما كان يشوبها أو يزينها. إن هذا ولا شك فألٌ حسن، فلنبدأ عهدًا جديدًا أو لنُعِد أثاثًا جديدًا.

القاضي الفاضل

استيقظ عبد الرحمن مع الفجر، فترك فراشه وقام إلى نافذة غرفته ففتحها، وراح يُطِل منها على أطلال الفسطاط حول كوخه الصغير، فيُحِس بعض الوحشة الممزوجة بالحنين. لقد فرَّ من المدينة عندما احترقت، ولجأ إلى منزل صديق له بالقاهرة، ولكنه لم يكد يسمع الوزير أسد الدين يدعو الناس للعودة إلى الفسطاط حتى كان أول العائدين يدفعه الحنين إلى هذه المدينة الحبيبة إلى نفسه ويسوقه الشوق إليها.

وإنه لَيذكُر الآن موكب أسد الدين يمُر في طُرُق المدينة وخِططها منذ أيام ليُشاهِد ما فعلت النيران بمبانيها ومساجدها، وإنه لَيذكُر أيضًا كيف كان يدعو الناس للعودة إلى مساكنهم، ويُشجِّعهم بالمال يُعطيه لهم، ويعِدهم أنه سيُعنى بإصلاح ما أفسدته النيران، وما أتلفه النهابة.

وعاد مع العائدين صديقه أبو الحسن، وبدأ حياته القديمة يجلس إلى صبيان المدينة في الصباح يُحفِّظهم القرآن، ويقصد إلى تاج الجوامع بعد الظهر فيُصلِّي العصر، ويُسقي الماء المُزهَّر، ويستمع لوعظ الوعاظ ودروس الفقهاء.

وكان نسيم الربيع المُنعِش الجميل يهُب على وجهه، فيُحِس بالحياة تملأ نواحي نفسه، والأمل يشيع في جنباتها، وراح ينظر إلى الدُّور حوله وقد علاها السواد من أثر الحريق فبدَت كالأشباح الحزينة، واستعاد في نفسه صورة المدينة الزاهرة الزاخرة قبل أن تُشوِّه جمالَها ألسِنة النار، واستعاد ما يحفظ من شعر قاله الشعراء يتغنَّون بمدحها ويفتنُّون في وصفها، وأخذ يُغنِّي بعض هذا الشعر بصوت خفيض، ويُعيد الغناء:

مَن شاهَد الدنيا وأقطارَها   والناس أنواعًا وأجناسا
وما رأى مصر ولا أهلها   فما رأى الدنيا ولا الناسا

وبدَت تباشير الفجر، وسمع بعض الديكة تصيح في دار قريبة، ثم سمع صوت المُؤذِّن ينبعث من ناحية مسجد عمرو يدعو الناس للصلاة، فأسرع فتوضأ وخرج يُهرول نحو المسجد وأدَّى الفريضة، وفي عودته قابَل صديقه أبا الحسن فصحِبه إلى داره، غير أن عبد الرحمن لاحَظ أن صاحبه يُكثِر من الصمت والتفكير، فسأله: ما لك مُكتئبًا يا أبا الحسن؟

فقال أبو الحسن والدموع تترقرق في عينَيه: إن أسد الدين يحتضر.

فارتاع عبد الرحمن وذُعِر لهذا الخبر، فقد رأى أسد الدين منذ أيام قليلة في الفسطاط يجوب أنحاءها، ويتفقد مَبانيها وتجديد الأجزاء التي أكلتها النار من مسجد عمرو، وكان أسد الدين يومذاك صحيحًا قويًّا؛ فلمْ يُصدِّق عبد الرحمن ما سمع، وأعاد جملة أبي الحسن مُستفسِرًا: تقول إن أسد الدين يحتضر؟!

– أجل، فقد أصابه الخناق الليلة، فعادَه ابن السديد طبيب الخليفة، وأنبأنا أنه لا فائدة من العلاج فسيُوافيه الحِمام بعد ساعات.

فأحس عبد الرحمن بالحزن يملك عليه نفسه، ويطغى على قلبه، وقال: مسكين أسد الدين. لقد ناضل كثيرًا، ولم يكد يصل إلى مُبتغاه حتى أدركه الموت. إنه لم يمضِ عليه في الوزارة غير شهرَين.

– ليس المسكين هو أسد الدين؛ فقد أدى واجبه. المسكينة مصر يا عبد الرحمن. من يدري كيف تمُر بهذه المحنة؟ والله لو عاد الأمر للخليفة لتحكَّم رجال القصر وعادت الفوضى إلى البلد.

وسكت الرَّجلان وطال بهما السكوت، ثم نظر أبو الحسن إلى صديقه، وقال: هيا بنا يا عبد الرحمن إلى القاهرة، إني لا أُطيق الانتظار هنا.

وخرج الصديقان وسارا يُسرِعان الخُطى في طريقهما إلى القاهرة، واجتازا باب زويلة وقرُبا من دار الوزارة وإذا بهما يسمعان صراخًا داويًا، وأصوات النعي تملأ الجو حولهما، فوقف أبو الحسن وقال وعبد الرحمن في صوت باكٍ: لا حول ولا قوة إلا بالله. إنا لله وإنا إليه راجعون.

وقال أبو الحسن: رحم الله أسد الدين. فلقد كان والله عفيفًا ديِّنًا كثير الخير شجاعًا جَلدًا شديدًا على الكفار.

وقصدا إلى دار الوزارة فوجدا الكل يبكون الفقيد بعيونٍ تملؤها الدموع، وقلوبٍ يملؤها الحزن والألم لموت الوزير الشهم والقائد البطل، ولبِست المدينة كلها عليه الحداد،

وخرج سكان القاهرة والفسطاط جميعًا وراء نعشه يُودِّعونه الوداع الأخير، وكان أشد الناس بكاءً عليه الفقراء والمساكين؛ لما غمرهم به من عطف وبِر وإحسان.

وُورِي الرجل في التراب، وعاد الناس جماعاتٍ يتحدثون عن فقيدهم البطل، ويروون أحاديثه، ويعُدون مَناقبه، ويطلبون له المغفرة والرحمة من ربه، وعاد معهم القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وحيدًا يذرف الدمع سخينًا على صديقه أسد الدين، وخلا بنفسه في داره حزين النفس مُنقبِض الصدر يُفكِّر ويُقدِّر، ويُعيد التفكير والتقدير، وتذكَّر ماضيه البعيد منذ وفد على مصر؛ تذكَّر أنه أتاها في عهد الخليفة الفاطمي الظاهر يطلب العلم والعمل والرزق، فعمِل أوَّلَ ما عمل في ديوان الإسكندرية، واتصل هناك بكاتب إنشائها الرشيد بن الزبير الأسواني، وكانت تصِل الكتب من الإسكندرية إلى القاهرة مُدبَّجة بيَراعه الصَّنَاع، مما أثار نفوس الكُتاب بديوان الإنشاء في القاهرة؛ فراحوا يدسُّون له لدى الخليفة ويتهمونه بالتقصير، ولكن الرشيد بن الزبير دافَع عنه في إخلاص حتى طلب إليه الخليفة الظافر أن يُرسِله ليكون أحد كُتابه.

وتذكَّر القاضي الفاضل أيضًا أنه اتصل بعد قُدومه إلى القاهرة بكاتب الإنشاء الفذِّ ابن قادوس الدمياطي، فتتلمذ عليه وأخذ عنه طريقته، وكان يُعجَب بشِعره ونثره، وظلَّ يُؤدِّي عمله الحكومي وهو يرقُب الحوادث في مصر دون أن يُدلي فيها بدَلوه، غير أنه كان يتألم أشدَّ الألم للنزاع الدائب المُستمِر بين رجال الدولة ووزرائها.

لقد رأى كيف يقتل بعضهم بعضًا في سبيل السيادة؛ فقتل طي بن شاور العادل رزيك، ثم ملك شاور، فاختصه الكامل ابنه بالرعاية وجعله كاتبه، وقد جرَّت عليه هذه الرعاية الويل والثبور؛ فكانت السبب في سجنه تسعة أشهر مدةَ وزارة ضرغام، فلما عاد شاور أفرج عنه، غير أنه ظل يُقيم في ديوان الإنشاء بين أشواك من الغيرة والحسد والدسائس يُدبِّرها له إخوانه من كتاب الديوان؛ فقد كانوا يتألمون لتفوُّقه عليهم في فن الكتابة، ولتقدُّمه عليهم لدى الخليفة والوزراء، وكان يُحِس في كل لحظة قُربَ أجله؛ لما كان يراه من قتل شاور لرجالات الدولة وزعمائها لاتصالهم بأسد الدين وجيشه، ولولا اتصاله بالكامل لكانت قد وافَته المَنِية منذ سنوات، أجلْ الكامل، رحمه الله وغفر له وكتب له الجنة؛ لقد كان نِعم الرجل، لم يكُن جشِعًا كأبيه، كان أبوه يُفضِّل الفرنج على المسلمين ولكنه كان يُعارِض أباه ويُناضِله كثيرًا في سبيل هذه الفكرة، وإن القاضي الفاضل لَيذكُر لهذا الشاب سعيه المَجيد معه للاستنجاد بنور الدين عندما وصل الفرنج

إلى جنوب الفسطاط، وإنه لَيذكُر له ما يتناقله الناس من أطراف الحديث الذي دار بينه وبين أبيه، إذ كان أبوه يُدبِّر المكيدة للقضاء على أسد الدين ورجاله، والكامل يُحذِّره ألا يفعل، ويُنذِره أن يُبلِّغ أسد الدين لو فعل، ويقول ليُقنِع أباه: «لَأن نُقتَل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين، خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج.» مسكين هذا الشاب، لقد كان يستحق كل إكرام وإعزاز، ولكن الخليفة جازاه جزاء سِنِمار، فقتله وهو الذي يستحق أن يُمجَّد ويُخلَّد ذِكره.

كانت هذه الصُّوَر تَتابَع على رأس القاضي الفاضل سريعةً يدعو بعضها البعض الآخر، فهي سلسلة تجاريبه ومُشاهَداته ومعرفته بالرجال منذ وفد إلى هذا البلد الطيب، وانتهت به الذكريات إلى يوم أن تولَّى أسد الدين الوزارة فتذكَّره، وقد استدعاه إلى دار الوزارة ليلًا وجلس يستعرض وإياه أحوال مصر ومشروعات الإصلاح التي ينوي تنفيذها، فلما انتهى بهما السمر قال له أسد الدين: إنني أُقدِّر لك أيها القاضي الجليل حسن بلائك في سبيل مصر والإسلام، وقد أطراك عندي كثيرًا صديقي وصديقك الفقيه عيسى الهكاري؛ ولهذا فقد عوَّلتُ على أن أطلبك من الخليفة لتكون كاتب إنشائي.

ولكنه خشي إن طلبه أسد الدين بالاسم أن يشُك الخليفة في أمره فيمتنع أو يكيد له، فقال: أنا شاكر لسيدي القائد حسن ظنه وجميل ثقته، غير أنني أرجو ألا تنُص على اختياري، بل اطلب من الخليفة كاتبًا للإنشاء، وأنا على يقين أنني سأكون كاتبك.

وقد صدق ظنه؛ فإن الخليفة أرسل طلب أسد الدين إلى ديوان الإنشاء، ففرح به كُتاب الديوان أيما فرح، واتفقوا جميعًا على اختيار القاضي الفاضل عبد الرحيم مُحتجِين بأنه أسلسُهم عبارة وأبلغهم قولًا وأجلهم إنشاءً، غير أنهم كانوا يتبادلون القول سرًا: «لِيذهب عبد الرحيم؛ فإنا لَنرى أن أجَلَ هذا الوزير قصير، كآجال الوزراء الذين سبقوه، ولو أنه قُتِل في الغد لقُتِل معه كاتب إنشائه؛ فنستريح منه ومن لجاجه ومُناقَشته.»

واليوم قد تحقَّق ظنهم، فقضى أسد الدين نَحبه وإن كان لم يُقتَل، ولكنه كان يُقيم في داره حينذاك على خوف، يخشى جيش مصر ورجال القصر وأن يثوروا بجيش أسد الدين ويستنجدوا ثانية بالفرنج، ويخشى أن يدِب النزاع في نفوس جند أسد الدين؛ فيختلفون ويتفرق شَمْلهم، ويخشى دسَّ من يحسدونه ويُدبِّرون له المكائد، واستعاد أمام ناظرَيه صُوَر الرجال في مصر وأخذ يُخمِّن: تُرى من يخلُف أسد الدين في الوزارة؟ إن قُواد الجيش المصري مُعظَمهم من العبيد السود ولا فضل فيهم، وقُواد أسد الدين كثيرون، ولكن ليس فيهم غير رجل واحد هو صلاح الدين؛ فإنه يُبشِّر بمستقبل عظيم، فهو شجاع

جسور، وهو صريح جريء، وفيه الكثير من صفات وأخلاق أستاذه نور الدين وعمه أسد الدين، ولكن صلاح الدين شابٌّ، وأنداده من القُواد رجال يفوقونه سنًّا وتجارب. فكيف يرضَون به وزيرًا وزعيمًا عليهم؟

ظلَّ القاضي الفاضل يُفكِّر ويُطيل التفكير في هذه الأمور جميعًا، ولم يُوقِظه من هذا التفكير إلا صوت جنديٍّ جاء يدعوه لمقابلة الخليفة العاضد؛ فذُعِر وعاد إليه خوفه ولكنه سرعان ما استعاد شجاعته وعادت إليه رباطة جأشه، وخرج مع الرسول وهو يقول في سريرته: اللهم أعِني بقوة من عندك، ووفِّقني لما فيه الخير لهذا البلد الطيب.

ولشَدَّ ما طغى السرور على نفسه عندما أنبأه الخليفة أنه استدعاه ليستشيره فيمن يراه أهلًا لأن يخلف أسد الدين في الوزارة بحكم اتصاله بجند أسد الدين وقُواده الشهرَين الفائتَين.

ولم يتردد القاضي الفاضل في إعلان رأيه بصراحة وتأييده بقوة وحرص غريبَين، فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا الجند الوافد قوتُك وعتادك، فاركَن إليهم واختَر منهم وزيرك وعضدك، وكفى ما قاسَيتَ وقاست البلاد من الوزراء الفائتِين، وفي هذا الجند قُواد عظام ذوو بأس وشدة وشجاعة وحسن رأي وإحكام وتدبير، غير أنني أختار لك ابن أخي أسدِ الدين صلاحَ الدين؛ فهو شابٌّ صغير تستطيع أن تصطنعه لنفسك، وتُوحي إليه برأيك، فيكون لك كيمينك تُحرِّكها بإرادتك لتُنفِّذ بها رغباتك، أما من عداه فرجال مُكتمِلو الرجولة كبار السن مُعتدُّون بشجاعتهم وأنفسهم، وما أخشاه إن وُزِّر أحدهم أن يُعيد سيرة ضرغام وشاور، فيستبد بالأمور دون مولاي أمير المؤمنين.

وحاز هذا القول القبول لدى العاضد ورضي عنه كل الرضاء؛ فقد وافَق رغبات نفسه، فقال: رأيك الرأي يا عبد الرحيم، وصلاح الدين هو من كنت أُعد العُدة لاختياره.

ثم أطرق لحظة وقال: ولكنني أخشى يا عبد الرحيم …

وسكت ففطِن عبد الرحيم ما يقصده وقال: أعلم ما تخشاه يا أمير المؤمنين، ولكن دع هذا الأمر لي؛ فإني سأستعين برجل من رجالهم لإقناع قُوادهم بأفضلية هذا الاختيار.

– ومن يكون الرجل؟

– إنه الفقيه عيسى الهكاري؛ فهو قائد منهم يُحِبونه لشجاعته، وهو فقيههم وإمام أسد الدين، فهم يُقدِّرونه لفضله ودينه وتقواه وإحكام تدبيره.

– إنك تُحسِن اختيار الرجال أيها القاضي، إني أعرف هذا الرجل. ألا تذكُر أنه هو الذي حمل رسالة نور الدين إلينا واعدًا بإرسال النجدة الأخيرة؟ إني تحدَّثت إليه، واستمعت منه، وقدَّرته منذ ذلك الحين كل التقدير.

ووقف الخليفة إيذانًا بانتهاء المُقابَلة، وقال: سأُرسِل في الغد إلى صلاح الدين، فأخلع عليه، وأُولِّيه الوزارة، وعليك أنت أن تسعى سعيك لينجح تدبيرك. والله يُوفِّقنا ويرعانا.

أبو الحسن يعود إلى وَكرِه بعد طول الجهاد

وسعى القاضي الفاضل إلى الفقيه عيسى، وانفرد به فأسرَّ إليه بما كان بينه وبين الخليفة العاضد، فوجد منه أُذنًا صاغية ونفسًا راضية بما تم الاتفاق عليه، ووعده الفقيه عيسى أن ينفرد بالقُواد في غده قائدًا قائدًا ليُقنِع كلًّا منهم بأحقية صلاح الدين، وأفضلية اختياره على أن يُوافيه في المساء ليُدلي إليه بنتيجة سعيه.

وتركه القاضي الفاضل فذهب إلى داره، وظلَّ طولَ يومه ينتظر صديقه وهو على أحَر من الجمر، يُقدِّر، ويأمل، ويخشى. فلما انقضى من الليل بعضه دُق باب داره وفتح، وكان القادم الفقيه عيسى، فأقبل عليه الفاضل يسأله في لهفة: أهلًا صديقي، طمئن قلبي، هل نجحت في سعيك؟

فجلس الفقيه عيسى وقال: نجحت والحمد لله، ولكن ...

– ولكن ماذا؟ إنني لا أطمئن لهذا اللفظ.

– لا، لا تخَف. إنني أُريد أن أقول إنني نجحت ولكن بعد مجهود مُضنٍ مُتعِب.

فاعتدل القاضي الفاضل في جلسته، وانفرجت أسارير وجهه، وشاع السرور في نفسه، وبدأ في ضحكة عريضة وقورةٍ ضحكها.

وقال: لا بد للعسل من إبر النحل يا صديقي. اروِ لي ما حدث بالتفصيل.

– كان المجهود الأكبر هو الذي بذلته لامتناع صلاح الدين نفسه؛ فقد أبى أن يَلي الوزارة وأصرَّ على إبائه؛ لأنه كان يخشى أنداده القُواد، وكان يتهيَّب أن يحمل العبء الذي ناءت به العصبة ذوو البأس من الرجال قبله، ولكنني ما زلت به أُحاوِره وأُداوِره حتى رضي واقتنع، والحق أقول إن الفضل كل الفضل في إقناعه يرجع لذلك الرجل الغريب أبي الحسن المصري، إن هذا الشيخ غريب الأطوار يختفي أيامًا فلا تراه، ثم

إذا به كالنجم الثاقب أو البدر المُضيء يظهر في أشد الليالي ظلامًا وأعظم الأوقات عسرًا، فيُبدِّد الظلام وينشر النور، ويُبدِّل العسر يسرًا؛ فقد وجدته عند صلاح الدين يُعزِّيه في عمه، فلمْ أتردد أن أُدلي للصلاح برغبة الخليفة وهو موجود لأستعين به، فلمْ يكَد يسمع قولي ومُعارَضة صلاح الدين، حتى انبرى يُفنِّد أقواله ويرُد حُجَجه ويسوق إليه الدليل تِلوَ الدليل والبرهان إثر البرهان، في حصافة وفصاحة وقوة بيان؛ حتى لانَ صلاح الدين وخضع واقتنع وخرجتُ من لدُنه أسعى، وقد اتسعت أمامي آفاق القول بعد ما سمعت، فقصدت إلى سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب، فقلت له: «أظنك لا تُعارِض في أن يكون صلاح الدين خلفًا لعمه في الوزارة؛ لأنني أعتقد أن هذا الأمر لا يكون لك مع وجود عين الدولة بن الياروقي، وشهاب الدين الحارمي. وصلاح الدين شابٌّ صغير قليل التجارب يُقدِّرك ويُجِلك، وأظن أنه لا يستبد بالأمور استبداد هذَين لو وُزِّر أحدهما.» فأعجبه قولي، ووافَقني على رأيي.

وتركته إلى شهاب الدين الحارمي خالِ صلاح الدين وأكثر القُواد أعوانًا وأنصارًا، فذكرتُ له أن العاضد هو الذي اختار صلاح الدين ليكون وزيره، «وصلاح الدين ابن أختك، ومُلكُه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكُن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصِل إليك.» وما زلت به أُناقِشه وأُقارِعه الحُجة بالحجة، حتى أحضرته عند صلاح الدين فحلف له.

وذهبت إلى قطب الدين ينال، فمهَّدت له في الحديث تمهيدًا ليُحسِن استقبال رأيي. فلما لان قلبه قلت له: «لقد دان الجميع بالولاء لصلاح الدين وحلفوا له، ولم يبقَ إلا أنت وعين الدولة الياورقي، وأُراك لا تنسى أنك كردي وصلاح الدين كردي مِثلك، فخير لك أن يكون الوزير من جنسك؛ حتى لا تنتقل الوزارة إلى قائد من الترك.» فصدَّق على قولي وأعجبته حجتي، فخضع وأطاع.

وسكت الفقيه قليلًا، ومدَّ يده إلى وردة جميلةٍ تُطِل من بين أزهار مختلفة، تضُمها زَهرية من الصيني المنقوش، وُضِعت على كرسي قريب منه، ورفع الوردة إلى أنفه، وأنشأ يستنشق شَذاه العبِق مرات، ثم قال: لقد اقتنعوا جميعًا ودانوا بالولاء لصالح الدين إلا ذلك الرجل المُعتَد بنفسه وأعوانه.

– ومن هو؟

– عين الدولة الياورقي. إنني طرَقت جميع الأبواب، واستعنت بجميع الآراء لأكسب هذا الرجل إلى جانبنا، فهو أكبر الجماعة، وأكثرها جمعًا، ولكنه أبى واستكبر وقال: «أنا لا أحترم

يوسف أبدًا.» فلما قلت له: «لقد خضع الجميع وأطاعوا.» أجاب: «ليخضعوا وليطيعوا، أما أنا فسأعود برجالي إلى نور الدين.»

فقال القاضي الفاضل: لقد أحسن صنعًا بهذا العزم؛ لأنه لو بقي ولم يدِن لصلاح الدين، لأُعِيدت الرواية القديمة ولَظلَّ النزاع بين الرَّجلَين، وقد سئمنا نزاعًا ونضالًا في سبيل الوزارة.

ثم نظر إلى صديقه نظرةً كلها إكبار وإجلال وتقدير، وقال: إن هذه يدٌ لك يا عيسى، وجميلٌ سيذكره لك المصريون، وسيذكره لك الإسلام، وسيذكره لك صلاح الدين.

فخجل الفقيه عيسى لهذا الإطراء، وقال في تواضُع الفقهاء: أستغفر الله. إنك وأبا الحسن صاحبا الفضل الأكبر؛ فإنه لولا اختيار العاضد لصلاح الدين اتباعًا لمشورتك، ولولا إقناع أبي الحسن لصلاح الدين حتى قبِل الوزارة، لما كان لَسعاي قيمة.

أُرسِلت الخُلَع إلى صلاح الدين ورجاله في اليوم التالي، فارتدَاها وركب الحجر التي أهداه إياها الخليفة العاضد، وهي من مراكبه الخاصة، وقيمتها ثمانية آلاف دينار، ولم يكُن بالديار المصرية أسبق منها، وخرج من دار الوزارة في موكب عظيم في مُقدِّمته جنوده وقُواده، وفي مُؤخِّرته جنود المصريين وقُوادهم، والجميع يحملون أسلحتهم من سيوف قواطع، ودبابيس، ورماح، وسهام، وأصحاب الطبول يدقُّونها والمُنفِّرون ينفخون في الأبواق، وزُيِّنت البلد زينة جميلة، وافتنَّ الشعب في إظهار فرحه باختيار الوزير الشاب الجديد؛ فزيَّنوا الدُّور والدكاكين بالأعلام والأزهار، واصطفُّوا على جانبَي الطريق لرؤية الموكب والترحيب بالشاب الصغير الشجاع وقد أصبح وزيرًا، ووصل الموكب إلى القصر الكبير، واتجه صلاح الدين وخاصته إلى الديوان، حيث حظي بمقابلة الخليفة العاضد، وتناوَل المنشور بتوليته الوزارة، ثم عاد في موكبه، وأفراد الشعب يُلِحون في إعلان فرحهم وسرورهم، وقد انتشروا جماعاتٍ يُغنُّون ويرقصون ويلعبون.

وهو ينثر عليهم الدراهم والدنانير ليزيدهم فرحًا ويُدخِل السرور على قلوبهم بعد أن رانَ عليها الحزن، وطال بهم الضنك أيامًا وسنين، ووصل إلى دار الوزارة، فجلس يستقبل الوفود والمُهنِّئين، ويستمع إليهم وهو لا يكاد يعي أكثر ما يقولون؛ فقد بهرته أبهة المُلك وزينة الوزارة، وأثَّر في نفسه أشد التأثير هذا الشعور الفيَّاض الذي قابلَه به المصريون، وكان يتهيَّب ما هو مُقدِم عليه، وما أُلقِي على عاتقه من عبء ثقيلٍ ناءت به رجال ورجال هو دونهم سنًّا وتجارب؛ فإنه الآن شابٌّ في الحادية والثلاثين من عمره،

لم يبلُ من الحياة إلا بعض نواحِيها، ولم يخُض من معاركها إلا ما كان صريحًا واضحًا في الميدان بين الجندي والجندي، ولكنه الآن مُقبِل على معارك أُخَر من نوع جديد لم يألفه؛ فهي معارك قوامها السياسة وتدبير أمور المملكة ورعاية شعبٍ يستحق الرعاية، فأنَّى له العلم ببواطن هذا الفن كله؟ إن حوله رجالًا أشتاتًا يختلفون عناصرَ وأجناسًا ومشارب وغايات، ويتباينون نشأةً وتربية ونفوسًا واستعدادًا، وعليه أن يُرضيهم جميعًا؛ فالخليفة سيِّد البلاد وصاحبها وهو شابٌّ صغير يجتاز دورًا خطيرًا تحكمه فيه عواطفه وأهواؤه، وقد عاش عمره حبيس جدران القصر، يُسيطِر عليه رجال هذا القصر، ويستبد بأموره وزراء مُتتابِعون مُتناضِلون كانت تحكمهم وتُسيِّرهم أطباعهم البشرية الدنيا، ولهذا الخليفة جيشٌ بعضه من المصريين وأكثره من المغاربة ذوي الصلَف والسودانيين الهوَج، وقد أفنى الوزراء في نضالهم خِيرة رجاله وأبطاله، وتحت أمره جيش من الأتراك والأكراد، وفيه قُواد بواسل وجنود أشاوس، ولكنهم رضوا به اليوم وزيرًا على كره منهم؛ ففيهم من يرى نفسه أحق منه وأولى بهذا المنصب، ووراء هؤلاء جميعًا شعب مُكِد كادح، يعيش في أطراف القُرى وأقاصي الريف وفي المدن الكبيرة، يسعى لرزقه ويبني حضارته وتاريخه لَبِنة لبنة، قد أضْنَته الحوادث الأخيرة، وأنهكه الوزراء فسلبوه خيراته وأمواله، وامتصوا دمه ودماء حياته؛ فهو عطِشٌ إلى جرعة وجرعات من العدل، ويتمنى أن يُوفِّقه الله إلى حاكمٍ بارٍّ يرفُق به ويُزيل هذه الغشاوة عن عينَيه، ويُمهِّد له حياة راضية مرضية تسودها الطمأنينة ويشملها الأمن والسلام، ليُقدِّم له أرواح شبابه وما يملك من قوة ومال عتاد وتأييد؛ ليقوده نحو النصر والفوز ويسود به، فهو يعشق السؤدد.

كانت هذه الصُّوَر المُتباينة تمُر أمام صلاح الدين، فتشغله عن المَجد الذي سعى إليه سعيًا، وعن وفود المُهنِّئِين الذين يكيلون له آي المديح والتهنئة نثرًا وشعرًا؛ فإذا أفاق من غيبوبته إثر حركة قادم أو خارج وأنصت لبعض ما يقال تبرَّم به واشمأز، فإنه يعتقد أن هذا الكلام بعينه قيل لعمه أسد الدين منه نحو شهرَين، ولا بد أنه قيل لشاور ولضرغام ولرزيك ومن سبقهم من الوزراء؛ لأن رجال الدولة يُجيدون القول ويُحسِنون التعبير، ولكنهم لا يُخلِصون ولا يفُون. إن هذا الشعب الذي يصيح في الخارج مُهنِّئًا فرِحًا هو أصدق منهم قولًا وعواطف وأوفى منهم عهدًا لمن يُخلِص له من الحكام، وودَّ صلاح الدين حينذاك لو أُتيحت له الفرصة فترك هؤلاء القوم من كبار الرجال يلوكون أقوالهم الجوفاء، وخرج إلى هذا الشعب، وسار في مُقدِّمة مواكبه الزاهرة، يُحدِّث أفراده ويستمع إليهم وإلى شكواهم ويعِدهم ويُمنِّيهم، ولكن التقاليد ورسوم الحكم منعته؛ فبقي وأعاد النظر إلى من

حوله وفحصهم رجلًا رجلًا، فكان يمُر بهم مرَّ الكرام، إذ يجدهم كالخيل المَسوقة تُزيِّنهم الملابس المُزركَشة ولا قيمة لهم بدونها؛ إلى أن استقر نظره على جماعة قليلة انزوَت في ركن قصِي بعيد من أركان الغرفة يتحدثون في همس، وهم القاضي الفاضل والفقيهان عيسى الهكاري وزين الدين المصري وأبو الحسن المصري، فعاد إلى نفسه بعض ما فقد من ثقة، واطمأن قلبه وعلا السرور وجهه؛ فقد رضي بهذه الفئة من الرجال تُعينه على أمره، وتُرشِده إذا تشعَّبت به السُّبل أو أظلم الطريق، وانتظر حتى انصرف الجمع وعاد إلى الغرفة هدوءها، فأشار على هؤلاء الصحب بالبقاء، وأنشأ يُحدِّثهم ويستمع إليهم، والوقت يمضي وهم لا يُحِسون به، إلى أن قال أبو الحسن: سيدي الوزير، أنا أُريد أن أقول، وأن أُهنِّئ، ولكن السرور إذا طغى على النفس أصبح اللسان عيِّيًا فلا يستطيع بيانًا.

فنظر إليه صلاح الدين نظرةً تنطق بالشكر، وقال: شكرًا يا أبا الحسن. أنا أعلمُ الناس بقلبك، وإني أُريد أن أفِيك بعض حقِّك، وهيهات أن أستطيع. فهل لك من رغبة فأقضيها؟

– أجل يا بُني، واسمح لي أن أُناديك بهذا النداء العزيز لديَّ، والذي لم أُنادِ به أحدًا منذ سنين.

وخنقته العَبرات فسكت، وتساقطت دمعتان على خدَّيه، وانحدرتا على شعر لحيته؛ فعجِب الحاضرون، وتألَّم صلاح الدين، وقال: ما هذا؟ أتبكي يا أبا الحسن؟! أرجو ألا أكون قد أسَأتك بكلماتي. ومسح أبو الحسن الدمعتَين بيده، ومرَّ بأصابعه خلال شعرات لحيته، وقال: كلا يا بُني — وإني لأُعيدها؛ فقد ذقتُ عذوبتها بعد أن حُرِمت قولها هذه المدة الطويلة — إنك لم تُسِئني حفظك الله من كل سوء، ولكنني تذكَّرت فبكيت، تذكَّرت ابنًا لي مات وهو شابٌّ في مِثل سنك، بعد أن كان كالزهرة العبِقة الشميم، وخلَّاني وحيدًا أمضغ حزني وآكله.

ثم سكت لحظة وقال: وتذكَّرت أيضًا عمك البطل أسد الدين، وقد قضى بالأمس أحوجَ ما نكون إليه.

فبكى الحاضرون لبكاء أبي الحسن، وتندَّت عينا صلاح الدين بالدموع، وقال: ما كنا نعلم شيئًا عن حزنك يا أبا الحسن. آجرك الله وأحسن عزاءك. ولكن ما هذه الحاجة يا والدي؟

– إنها حاجة يسيرة، فإني أرجو أن تسمح لي بالسفر إلى بلدي دمياط؛ لأقضي هناك ما بقي لي من أيام، فإنك ترى أنني قد وهن مني العظم واشتعل الرأس شيبًا، وأني أُحِس

أن نهايتي قد قرُبت، ولقد تركت دمياط مَسقط رأسي وأنا لا أنوي العودة إليها، ولكن الله أكرمني وحقَّق لي الكثير مما كنت أرجو، فشعرت بالحنين يُناديني أن أعود إلى بلدي.

– ولكنني في حاجة إليك يا أبا الحسن وإلى أصالة رأيك وحسن توجيهك وإخلاصك، فالبلد بلدك، أهله أهلك، وأنت أعرف برغباتهم وشِكاياتهم منا.

– إن شكاياتهم تصرخ من الظلم، وإن رغباتهم تطلب العدل، فارضِهم وأعِد السكينة إلى نفوسهم يُؤيِّدوك بخلاصة أرواحهم.

– وما السبيل إلى إرضاء المصريين يا أبا الحسن؟

– إنني أرى أن أول ما يجب عليك يا بُني أن تسعى لإطلاق سراح من أُسِر منهم؛ فإن الفرنج أسَروا في غارتهم الأخيرة أهل بلبيس وغيرهم من المصريين، وقد عادوا بهم إلى بلادهم.

– هذا صحيح، وسأُخصِّص مُغل بلبيس على كثرته لفكاك هؤلاء الأسرى، وسأُعفي أهل هذه البلدة من دفع الخراج مدة حياتي.

– نِعم ما تفعل أيها الوزير؛ فإنك بذلك تملك قلوب الأهليِّين، وهناك أيضًا مكوس كثيرة تبهَظ المصريين، وحبذا لو أعَدتم النظر فيها، فأبطلتم بعضها، وأنقصتم البعض الآخر.

فقال صلاح الدين: هذا ما عقدت العزم عليه؛ فقد شكا الناس إلى عمي أسد الدين — رحمه الله — أمر هذه المكوس، وكان قد أعَد العُدة لوضع مائة ألف دينار مما يُستخرَج من المكوس بديوان الصناعة بمصر، ومائة ألف دينار أخرى مما يُستخرَج من بعض الجهات القِبلية والبحرية. ثم نظر إلى القاضي الفاضل وقال: وإني أرجو أيها القاضي أن تكتب في الغد سِجلًّا بوضع هذه المبالغ؛ لنُرسِله إلى جميع بلاد مصر ليُقرَأ على المنابر.

وتقدَّم عند ذاك الفقيه زين الدين، وقال: إنني أشكر الله الذي وهَبك هذا المُلك، وأتوقَّع أن نرى الخير جميعًا وهو يغمرنا في عهدكم الزاهر إن شاء الله، ولا غَروَ فإن هذه بداية طيبة، والكتاب يُقرَأ من عنوانه، ولكن هل يسمح لي سيدي الوزير أن أُطلِعه على مَظلمة لو رفعها لكسب الأجرَين في الدنيا والآخرة؟

– قُل أيها الفقيه؛ فإني عاهدت الله أن أفعل كل ما فيه الخير لهذا البلد وأهله.

– إن هذا الخير بعضه لأهل مصر، ومُعظَمه للمسلمين عامة؛ فقد جرَت العادة أن يُؤخَذ من الحُجاج في عيذاب مُكس مُقرَّر وضريبة مفروضة منهم، يُلاقون من الضغط في استيفائها عنتًا جمًّا، ويُسامون خسفًا وعسفًا، وربما وردَ منهم من لا فضل لديه على

نفقته أو لا نفقة عنده، فيُلزَم أداء الضريبة المعلومة وقدرها سبعة دنانير ونصف دينار، فإذا عجز عن الأداء تناوَله الجُباة في عيذاب بأليم العذاب.

فعجِب صلاح الدين لهذا الأمر، وسأل الفقيه: وفي أي الوجوه تُصرَف هذه الضريبة؟!

فقال زين الدين: إنها تُجمَع لِميرة مكة والمدينة.

فزاد عجَب صلاح الدين، ونظر إلى صديقه عيسى الهكاري وقال: أتَرى يا سيد عيسى؟ إن هذا لهو العجَب! يجمعون الأموال ممن لا مال معهم من حُجاج بيت الله الحرام؛ ليَميروا به مكة والمدينة. هل ترى هذا من الصواب في شيء؟

فأحس الفقيه بأن صلاح الدين يستشيره ويطلب رأيه، فقال: لا أيها الوزير، إن هذا لهو الخطأ بعينه، والرأي أن تُقدِموا على إلغاء هذه الضريبة، ومن المُمكِن أن تُوقِفوا ما يُجبى من جهة من الجهات على مِيرة هاتَين المدينتَين المُقدَّستَين.

وأمَّن القاضي الفاضل على رأي الفقيه عيسى، وقال: نِعم الرأي ما رأى يا سيدي الوزير؛ فبِه يُرفَع الظلم عن الحاج، ويصِل الخير إلى سكان المدينتَين، وتُجزَون على هذا وذاك الأجر من الله، والدعاء من الرعية.

فاغتبط صلاح الدين لهذا القول، وقال: أنت سلاحنا لرفع المظالم يا سيد عبد الرحيم، فاكتب بهذا أيضًا منشورًا في الغد.

ونظر إلى أبي الحسن فوجد البِشر يعلو وجهه، والفرح يبدو في بريق عينَيه الباهت من فعل السنين، وقال: وبعد، أمَا من حاجة أخرى فنُسرِع لقضائها يا أبا الحسن؟ فإنك تُرشِدني إلى الخير، وتجلب لي رضاء الله.

فتردَّد أبو الحسن قليلًا، ولكنه أقدم فقال: لتغفر لي جرأتي يا بُني إن قسوتُ في القول. إنك ستَلِي حكم هذا البلد وهذا الشعب، وستجد حولك أعوانًا ورجالًا، وستُحِس نشوة الحكم ولذته، وستستمع إلى أقوال وآراءٍ مُعظمَها غثٌّ وقليل منها السمين الذي يُفيد، فنصيحتي إن كان لي أن أتقدَّم بها أن يكون اعتمادك على هذا الشعب، وأن تُوفِّر جهودك لخدمته؛ فإنك تلقى العون كل العون. لقد مَلكَ هذا البلد ملوك وملوك، ومنهم من غرَّته الأماني فاستبد وظلم وطغى وتجبَّر، فلما أفاق وجد هذي الأماني سرابًا ظلَّ يخدعه وهو لا يدري، ووجد مَجده قد صار إلى زوال.

وكان صلاح الدين وهو يستمع إلى أبي الحسن، يُحِس أنه يرتفع عن هذه الأرض وأوشابها إلى طبقات رفيعة من الأثير، تحوي كل عالٍ وتضُم كل جميل، فنظر إلى أبي الحسن نظرة التلميذ المأخوذ بآراء أستاذه، وقال: إن كلماتك يا والدي تنفُذ إلى حنايا

قلبي وشِعاب نفسي، فأُحِس لوقعها بردًا وسلامًا، وإني لأذكُر أوقاتًا كانت تمُر عليَّ حينما أخلو لنفسي أو أخرج إلى الصحراء، فأُفكِّر وأُطيل التفكير، فإني كنت أستصغر حينذاك شأن هذه الحياة وشأن هذا المَجد الذي يُثير الأفراد ضد الأفراد والشعوب ضد الشعوب، وكنت أرى أن الحياة أهون شأنًا وأيسر أمرًا مما نظن فيها العذاب أصنافًا وألوانًا، وفيها البكاء والدموع والحزن، والدهر العاتِ ذو جعبة ملأى بالسهام يُصوِّبها يمينًا وشمالًا وفي كل مكان، فتُخلِّف وراءها ضحايا كثيرين.

فابتسم أبو الحسن ابتسامة خفيفة، وقال: هذه النظرة الصادقة تُبدي استعدادكم الطيِّب، ولكن دع ما في قولك من يأس، وانظر إلى الحياة نظرة باسمة، ولا تنسَ أن نِعم الله حولنا تغمرنا وتفيض علينا، والسبيل إلى شكره أن نُجاهِد في سبيله، وإرضاءُ عبيده نوع من الجهاد، وهناك الجهاد الأكبر ينتظرك، جهاد الفرنج أعداء الدين.

فأطرق صلاح الدين لحظة، وقال: صدقت أيها الوالد الرشيد. إن الجهاد الأكبر ينتظرني، ولكنك تعلم أن يدًا وحدها لا تُصفِّق، والأصدقاء في الدنيا قليل.

– إن الحق ما تقول أيها الوزير، ولا تظنَّن أن الأمر قد مُهِّد لك، فأمامك صعاب من فوقها صعاب، فلا تنسَ الخليفة ولا تنسَ جنده ورجال قصره، ولا تنسَ رجالك كذلك.

ثم أشار إلى رفاقه الجالسِين إلى جانبه، وقال: ولكن يكفيك هؤلاء الصحاب الثلاثة؛ فهم عونك بعد هذا الشعب، وكلهم بحمد الله صاحب رأي وصاحب عقل. هيه، لقد طال بنا الحديث فلأعُدْ إلى طلبي، فهل يسمح لي سيدي الوزير بالسفر؟

– والله ما دامت هذه رغبتك فإنا لا نُمانِع، ولكننا سنفتقدك يا أبا الحسن، فلا تُطِل الغَيبة، فتعالَ لزيارتنا كلما استطعت.

– سأُحاوِل، وأرجو أن أراك في خير إن شاء الله. استودعتك الله.

وحيَّاه الوزير والدموع تملأ عينَيه، وودَّع الحاضرون وخرجوا مع أبي الحسن، وصلاح الدين يتبعهم بناظرَيه، والدموع تتساقط منها وهو يقول: بُورِكتَ من رجل! وبُورِك الوطن الذي أنبتك! والله لَأنت خير عندي من كل من حولي.

المؤامرة الأولى

مضَت الأيام وصلاح الدين يتصل بأهل مصر، ويتودد إليهم، ويستمع إلى شكاياتهم، ويُحاوِل جهدَه أن يُنصِف المظلوم، ويمُد يد المُساعَدة للفقراء والمُعوِزين، وكان يجلس كل يوم إلى القاضي الفاضل فيدرس وإياه نُظُم الحكم المختلفة، ويُحاوِل وإياه رَتقَ الفُتوق وجَبر الكسور، وكثر تنقُّله في القُرى والأقاليم يبذل المال للمُستحِقِّين بسخاء حتى أحبَّه العامة، وأصبح اسمه رمز المَجد والبطولة والسخاء، وغدَت أعماله حديث الناس في الأسواق والمجتمعات، يذكُرونها فتهتزُّ أعطافهم افتخارًا بوزيرهم الشهم البطل.

وكان صلاح الدين يُحِس حرارة الفرح والرضاء كلما أنصف مظلومًا أو أعان مُحتاجًا، وكان يرى بعينَيه علامات السرور في وجوه المصريين وعيونهم كلما خرج بموكبه يمُر في شوارع القاهرة أو الفسطاط، وكلما ذهب للصلاة مع العامة في مسجد من مساجد هاتَين المدينتَين، فكانوا يستقبلونه استقبال الفاتح، ويهتفون بحياته، ويدعون له بالنصر والفوز المُبين.

وكان صلاح الدين يُحاوِل أن يعرض على الخليفة مُعظَم شئون الحكم قبل أن يُقرِّر فيها شيئًا، فأحبَّه العاضد وأقبل على صحبته وقرَّبه إليه، وبلغ من مَحبته له أن كان يدعوه ليُقيم معه في القصر اليومَ واليومَين والعشرة أيام في سرور وصفاء وصداقة وإخاء.

وهدأت فورة القُواد الترك والأكراد من جيشه، فاعترفوا بالأمر الواقع، ورضوا بصلاح الدين وزيرًا، وخدموه وأخلصوا له، وهكذا استطاع صلاح الدين بلباقته وحسن سياسته أن يكسب الموقف ويُخضِع الجميع لطاعته، فتفرَّغ لخدمة البلد وأهالِيه، غير أن البستان الجميل تنتثر في أنحائه الأشجار الباسقة تتدلَّى منها الفواكه من نخيل وأعناب ورمان، وتُزيِّن أطرافَه الزهورُ الجميلة من ورد ونرجس وريحان يضيع شذاها فيُعطِّر الجو،

وتنساب الأمواه في جداوله وتنتقل من مكان إلى مكان. هذا البستان يشيع الجمال في حناياه، وتتفجر الروعة في نواحِيه، لا يخلو من حيَّة تسعى بين الأغصان.

وكذلك كان رجال القصر الخليفي يُحِسون منذ تولَّى صلاح الدين الوزارة أن سلطانهم يضمحل وحولهم ينكمش وجبروتهم ينضمر، وغدَوا في القصر مشلولِي الحركة لا يستطيعون حَراكًا، وإن استطاعوا لا يُقدِمون؛ فراحوا يسعَون سعيهم في الخفاء كالحيَّات والثعابين، وصلاح الدين تشغله شواغل الحكم ومَهامُّه فلا يُقيم لهم اعتبارًا، وكل ما كان يُثير نفسه حنينه إلى أبيه وإخوته وأهله، إذ كان يذكُرهم كلما خلا بنفسه أو تعقَّدت أمامه المطالب، فيتمنَّى لو كانوا إلى جانبه في مصر يشدُّون أزره، ويحُل بهم عقدة من أمره.

وأرسل إلى أبيه يذكُر له شوقه إليه وإلى إخوته وأهله، وحنينه إلى مدن الشام وقُراه ومَلاعب صباه ومَراتع لهوه، ويطلب منه أن يسعى سعيه لدى المَلك العادل نور الدين ليأذن له أو لبعض إخوته بالحضور.

وجاء الرد أن نور الدين قد سمح لأخيه الأكبر شمس الدولة تورانشاه بالسفر إليه، ففرِح لخبر مَقدَمه، وخرج — عندما علِم بوصوله — لاستقباله في موكب حافل، وعاد وإياه إلى دار الوزارة، وجلس يُحدِّثه ويستمع إليه، ويُمطِره وابلًا من الأسئلة عن أبيه وبقية إخوته وأصدقائه، وتورانشاه يُجيبه في تفصيل شاملٍ يُرضيه بعض الرضاء، ولكنه يَزيد في شوقه وحنينه، فيسأل أخاه: ولمَ لم يأذن مولانا المَلك العادل لأبي بالحضور؟ فقال تورانشاه: إن مولانا الملك العادل يستعين بأبينا في المُلِمات، وهو في حاجة إلى مجهود كل رجل منا وهو في نضاله العنيف ضد الفرنج في الشام، وهو في نفس الوقت يُقدِّر كل التقدير ما قد يعترضك من عقبات أو ثورات نفوس وأنت في أول عهدك بالوزارة في هذا البلد.

ثم سكت لحظةً وابتسم ابتسامة خفيفة صافية، وقال: أتعرف يا صلاح الدين ماذا قال لي نور الدين قبل أن يأذن لي بالحضور إليك؟

– وماذا قال يا أخي؟

– قال: إن كنت تُريد أن تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تسِر؛ فإنك تُفسِد البلاد، وأُحضِرك حينئذٍ وأُعاقِبك بما تستحقه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مَقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسِرْ إليه وأشِدَّ أَزره وساعِده على ما هو بصدده. ففهمت قصده وقلت: سأسير إليه وأخدمه وأُطيعه وستعلم عني كل ما يُرضيك إن شاء الله.

فتأثَّر صلاح الدين لهذا الحديث، وشكر لنور الدين هذه النصيحة يُسديها لأخيه، وشكر لأخيه جميل وفائه وإخلاصه، وقال: إنك يا تورانشاه أخي الأكبر، وإن كانت تقاليد الحكم تُوجِب عليك طاعتي أمام الناس، فإنك مع هذا ستراني كما كنت تراني دائمًا أخاك الأصغر يوسف الذي يبذل الجهد لرضائكم، ويُطيعكم في كل ما تأمرون به.

ولم يكد يُتِم قوله حتى سمع أصواتًا وجلبة في الخارج، ثم فتح الباب ودخل أحد القُواد يقود رجلًا فقيرًا ذا خُلقانٍ مُهلهَلة، والرجل مُصفَرُّ الوجه يرتعد خوفًا، ويرتجف رعبًا، وتقدَّم القائد، فقال: سيديٍ الوزير، كنت أمُر اليوم خارج سور القاهرة، فرأيت هذا الرجل يرتدي هذه الخِرَق المُمزَّقة التي لا تكاد تُغطِّي أجزاء جسمه، ويحمل هذَين النعلَين الجديدَين ولا أثر بهما للمشي؛ فشككت في أمره، وجئت به لتستطلعوا حاله وتستخبروه عن سره.

وأمسك صلاح الدين بالنعلَين وقلَّبهما قليلًا ثم فتحهما، ولشَدَّ ما كانت دهشته عندما وجد بين ثناياهما رسالات مَطوية، فانتزعها وشرع يقرؤها، فلما أتم القراءة أعطاها إلى أخيه، وقال: اقرأ يا أخي.

وكانت الرسائل مُوجَّهة من بعض رجال القصر إلى الفرنج يستعدُونهم على صلاح الدين، فأثارت اهتمام شمس الدولة، وقال لأخيه: كنت أعتقد أن الأمور استتبَّت، وأن هؤلاء الفرنج قد آوَوا إلى أوكارهم، وأن مصر قد صفَت لك بعد قتل شاور وآله.

ثم نظر إلى الرجل الفقير وشرع يستجوبه، فيَلِين له في القول تارة، ويُهدِّده تارة أخرى، حتى علِم أن كاتب الرسائل رجل يهوديٌّ هواه مع رجال القصر، فأرسل من أحضره وما زال يُغريه ويُمنِّيه حتى أسرَّ إليه أن الذي أمَره بكتابة الرسائل زمامُ القصر الخليفي والمُتحكِّم فيه الخصي مُؤتمَن الخلافة، فأطلق سراحه وسراح الفقير، ولما خلَت الغرفة إلا منه ومن أخيه، التفت إليه وقال: أرأيت يا أخي؟ إن الحكم يحتاج عيونًا يَواقِظ وإلا أفلتَ الأمر من يدنا. والآن ماذا ترى؟

– أرى أن تقتل هذا الرجل مُؤتمَن الخلافة.

– لو فعلت الآن لَثارت بنا جنده السودانيون وهم كثرة غالبة.

– وهل تخشاهم؟

– كلا، وإنما أُحِب أن أحتال لقتله بعيدًا عن القصر؛ ولهذا فإني سأمد له مدًّا حتى ينسى أني أنوي الانتقام منه، فإذا سنحت الفرصة ضربته الضربة القاضية.

وعلِم مؤتمن الخلافة أن الرسائل وقعت في يد صلاح الدين، وأنه عرف مُحتوَياتها؛ فأيقن الهلاك، وانكمش في القصر لا يُغادِره إلا لمامًا. فلما انقضَت الأيام ومضى على هذا

الحادث نحو شهرَين وهو آمِن لا يرى عنتًا ولا يُحِس غدرًا، ظنَّ أن صلاح الدين قد نسي أو عفا، فخرج ذات يوم ليقضي نهاره في قصر له بقرية قريبة من قليوب، وعلِم صلاح الدين بتغيُّبه في تلك القرية، فأرسل إليه من قتله وأتاه برأسه.

وحدث ما توقَّعه صلاح الدين، وثار الجند السودانيون وهم أكثر من خمسين ألفًا، فأرسل إليهم صلاح الدين جيشًا قويًّا من جنوده وعلى رأسه أخوه البطل شمس الدولة تورانشاه، واجتمع الجيشان في الميدان بين القصرَين، ودارت رحى الحرب بينهما يومَين كاملَين، وكان الخليفة العاضد يَشرُف على الجيشَين من إحدى مَناظر القصر وهو مُوزَّع القلب والعواطف، لا يدري إلى أي الفريقَين يميل، ولمن منهما يتمنى النصر، وكلاهما قذًى في عينَيه وشجًى في حلقه، ولم يلبث أن رأى السهام والحجارة تترامى وتندفع من نوافذ القصر، فاضطرب وخشي أن يُثير هذا العَداء جنود أسد الدين ضده، وقد تحقَّق ظنه؛ فإن شمس الدولة تورانشاه غضب غضبة مُضَرية وأسرع، فأمر أحد الزراقِين بإحراق مَنظَرة العاضد، وهمَّ الرجل بتنفيذ أمر قائده، وإذا بالأمير شمس الخلافة يخرج من القصر، ويقول: أمير المؤمنين يُسلِّم على شمس الدولة، ويقول: «دونكم العبيد الكلاب فاقتلوهم أو أخرجوهم من البلد.»

وكان السودان يُهاجِمون في شدة وحماس، إذ كانوا يعتقدون بعد أن رأوا السهام والحجارة تُلقى من القصر أن الخليفة يُؤيِّدهم ويشدُّ أَزرهم، فلما سمعوا هذا القول فتَّ في أعضادهم، وتخاذَلوا وأدبَروا وانتهت المعركة بهزيمتهم، ففرُّوا إلى الجيزة وتتبَّعهم جند صلاح الدين، فكانوا يقتلونهم أنَّى ثِقفوهم.

وهكذا انتهت أول ثورة ضد صلاح الدين بالفشل، غير أنه غدا أشدَّ احتراسًا من ذي قبل؛ إذ كان يعلم أن هذه الدولة التي عاشت في مصر قرنين ونصف قرن، لا يُمكِن أن تزول آثارها في شهور.

نجم الدين أيوب في مصر

كانت الحوادث تَتابَع في مصر، ونور الدين دائم القلق على جيشه فيها، ويشغله الجهاد في الشام، والنضال ضد سلاجقة الروم وأمراء الجزيرة، فلا يستطيع السفر إليها على شدة شوقه إلى ذلك، غير أنه كان كلما أحرز نصرًا وكلما خطا قائده صلاح الدين خطوة في سبيل القضاء على الدولة الفاطمية في مصر، يُبادِر بالكتابة إلى الخليفة العباسي في بغداد مُبشِّرًا ومُهنِّئًا، وأدرك الخليفة أن الحوادث تخدمه من حيث لا يدري، فتأتي على بنيان الخلافة الفاطمية التي تُنافِس خلافته ولا تعترف بها، فأحبَّ أن يُعجِّل نور الدين فيقضي عليها وهي في سكرة الموت، قبل أن تُتاح لها فرصة جديدة فتصحو وتُفيق، فأنشأ يبعث الرسالة تِلو الرسالة يطلب من نور الدين ويُلِح في الطلب أن يُسرِع فيقطع الخُطبة لبني فاطمة ويُعيد الخُطبة في مصر لبني العباس، ووافَق هذا الطلب هوًى في نفس نور الدين؛ فقد كان سنيًّا مُغاليًا في سنيته، يكره الشيعة ويود لو استطاع أن يقضي على دولتهم، فأرسل إلى صلاح الدين يُبلِّغه هذه الرغبة ويحثُّه على تنفيذها، ولكن صلاح الدين كان حريصًا شديد الحرص، أدرك ببصيرته أن هذه الدولة المريضة وإن كانت تحتضر حقًّا، فإن لها أعوانًا ورجالًا؛ بعضهم يُخلِص لها حبًّا فيها، وبعضهم يُخلِص لها لما كانت تُدِر عليه من رزق، فتردَّد ولم يُقبِل، وأرسل إلى نور الدين يعِده ويستمهله.

ولكن نور الدين لم يقتنع، فدعا نجم الدين أيوب ورغِب إليه أن يسير إلى مصر، ليحمل ولده صلاح الدين على قطع الخُطبة للفاطميِّين والدعوة لبني العباس.

وخرج نجم الدين وأبناؤه وأهله من دمشق قاصدًا مصر، فلما وصلها خرج الخليفة العاضد بنفسه في موكبه الفخم يصحبه وزيره الشاب البطل صلاح الدين إلى خارج باب الفتوح لاستقبال نجم الدين، وخرجت العامة راجِلِين وراكِبِين بموسيقاهم وطبولهم،

وزُيِّنت القاهرة ورُفِعت الأعلام احتفاءً بقُدوم والد الوزير، فلما وصل رحَّب به الخليفة، وأنعم عليه، وأرسل إليه من القصر الألطاف والتُّحَف والهدايا ولقَّبه بالمَلك الأفضل.

ولما انتهت حفلات الاستقبال جلس صلاح الدين إلى والده وإخوته وأهل بيته جِلسةً عائلية هادئة، تسودها المحبة ويُرفرِف عليها الإخلاص، وكان البِشر يطفح على وجهه ويبدو في ابتساماته وحركات يدَيه، وكلمات الشوق التي يُردِّدها مُؤهِّلًا ومُرحِّبًا، وأهله فرِحون به وبما ساقه الله إليه من مَجد وسلطان، يُهنِّئونه ويُكرِّرون التهنئة. فلما مضى من الليل أكثره كان إخوة صلاح الدين وأهله قد آوَوا إلى مَضاجعهم يستريحون مما لاقَوا في سفرهم من نصَب، ولم يبقَ في المجلس غير نجم الدين وولده، فالتفت نجم الدين إلى ابنه وقال: والآن يا بُني، إن سلطاننا المَلك العادل نور الدين لم يُجِب رغبتك ويأذن لنا بالحضور إلا لغرض خاص.

– وما هو يا أبت؟

– أن تُعجِّل فتقطع الخُطبة لبني فاطمة وتُعيد الخُطبة لبني العباس.

فسكت صلاح الدين لحظة وقال: إن هذه رغبتي يا والدي قبل أن تكون رغبة نور الدين، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها، فهذه الدولة يُحِبها أهل مصر.

– ولكنك ذكرت لي مرة في الشام بعد أوبتك أن أهل مصر لا يُحِبونها.

– أجل إنهم يكرهونها ويُحِبونها.

– وكيف؟

– إنهم يكرهونها لمَذهبها ولما لاقَوا من عسف وزرائها، ويُحِبونها لجودها؛ فإن خلفاءها كانوا يبذلون المال دائمًا ويمُدون الموائد للعامة ويُشارِكونهم في مَباهجهم وأعيادهم، والعامة يُحِبون دائمًا أن يعيشوا في رخاء، ولا يَعنيهم بعد ذلك ماذا يعتنق خلفاؤهم.

– وهل تعتقد أنهم يثورون من أجل خليفتهم لو قُطِعت الخُطبة؟

– أنا لا أتوقَّع الشر أو الثورة من أهل مصر، وإنما أتوقَّعهما من حواشي الخليفة وأعوانه ورجال قصره، وقد علمتَ يا والدي ما كان من فتنة زمام القصر مؤتمن الخلافة والجند السودانيين.

– وقد وفَّقك الله ونصركم عليهم.

– أحمد الله أن وفَّقني، غير أنه لم يمضِ إلا شهور على هذه الفتنة حتى وصلتني رسالة من أبي الحسن المصري وهو يُقيم الآن في دمياط، أنه علِم بقُرب وصول الفرنج إلى دمياط وفاءً بوعدهم لمؤتمن الخلافة ورجاله.

– أعلم هذا أيضًا، وقد أسرع مولانا المَلك العادل، فأرسل إليك الأمداد يتلو بعضها البعض الآخر، وسار بمن معه من الجند فدخل بلاد الفرنج وأغار عليها ونهبها؛ ليُعجِّل بعودتهم من مصر.

– شكر الله له صنيعه؛ فإنه لولا هذه الخدمات ما انتصرنا على الفرنج في دمياط.

ثم أطرق صلاح الدين لحظة وقال: ولا يُمكِن أن أنسى أيضًا ما لقيته من الخليفة العاضد من مُساعَدة جليلة؛ فإني ما رأيت أكرم منه يومذاك، فقد أرسل إليَّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار سوى الثياب والعُدة والسلاح.

– ولهذا أنت لا تُريد أن تقطع الخُطبة باسمه.

فابتسم صلاح الدين وقال: في الحق يا أبت إن هذا الخليفة طيِّب الخُلق وفيه صفات حميدة، وإن كانت له أخطاء، فقد كان الباعث عليها ما أحسه من ظلم وضيق طولَ مدة حكمه وهو تحت سيطرة الوزراء المُتتابِعين، الصالح طلائع وابنه رزيك وضرغام وشاور.

لم يقتنع نجم الدين بهذا الدفاع، وأخرج من جيبه خطابًا قدَّمه إلى ابنه، وقال: ولكن مولانا المَلك العادل يطلب ويُلِح في الطلب إجابةً لرغبته ورغبة أمير المؤمنين المُستنجِد بالله الخليفة العباسي، وهاكَ خطابه فاقرأه. وتناول صلاح الدين الخطاب وأخذ يقرأ:

> «وهذا أمرٌ نُحِب المُبادَرة إليه؛ لنحظى بهذه الفضيلة الجليلة والمَنقبة النبيلة قبل هجوم الموت وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت مُستطلِع إلى ذلك بكليته، وهو عنده من أهم أُمنِيته.»

انتهى صلاح الدين من قراءة الخطاب، فطواه في حرص، وأطرق يُفكِّر ويُعيد للتفكير؛ لقد صفا له مُلك مصر بعد جهد أعوام، ونضال جيوش ورجال، وإنه لَيرى من الحكمة أن يحرص على إرضاء أهل مصر ليكسب عطفهم؛ فهو يخشى الآن إن أقدَم على هذا العمل أن يُثير سخطهم، أو يُتيح الفرصة لأعوان الدولة المُحتضَرة أن ينشطوا فينفثوا سمومهم، ويضطر حينذاك إلى بدء النضال من جديد. إنه يعرف أن عددًا كبيرًا من أهل مصر يعتنقون المذهب السني ويكتمونه، ولكنه يعلم أيضًا أن الكثيرين منهم شيعيون، وأن هناك دهاة الدعاة والقضاة ورجال القصر يتربَّصون به الدوائر، ويرقُبون أفعاله عن كثب؛ فإن بدرت منه بادرةٌ تسوء نشطوا إلى الدعوة ضده ونضاله، وربما جدَّدوا العهد مع الفرنج ودعَوهم لنصرتهم، ولكن الخليفة العباسي يُريد ويُشارِكه نور الدين في إرادته، فكيف يستطيع أن يُنفِّذ هذه الرغبة دون أن يُوقِظ الحيَّات التي تعمل في خفاء؟ لقد رأى

أن يستشير أعوانه الذين يثق بهم في مصر، فنظر إلى أبيه وقال: لنُؤجِّل هذا الأمر أيامًا يا أبت، حتى نجسَّ النبض ونستشير رَجلًا هنا كالقاضي الفاضل مثلًا.

– لك هذا يا بُني، وإني لأُقدِّر منك هذا الحرص وهذا الحذر. فضحك صلاح الدين وقال: هذا ما علَّمتْنيه مصر. والآن لقد كنت أُحِب أن أُحدِّثكم عن رغبة لي أرجو لو عملتم على تحقيقها يا والدي.

– قُل يا بُني.

– لقد أكرمني الله سبحانه وتعالى ووفَّقني لمُلك هذا البلد، ولكنني أرى أنني لا زلت صغيرًا قليل التجارب، والسيد الوالد قد خبر من الدهر أمورًا كثيرة، وله من حكمته ورجاحة عقله وأصالة رأيه ما يُؤهِّله لهذا المَنصب؛ ولهذا ألحِحتُ في الرجاء أن يأذن لكم مولانا المَلك العادل بالحضور، لكن مولانا الملك العادل بالحضور كي تتولَّوا هذا الأمر عني.

فأحس نجم الدين بالسرور يملأ عليه نفسه، ويُسيطِر على قلبه لهذا البِر من ولده، وقال: يا ولدي، إن الله لم يختَرك لهذا الأمر إلا وأنت كفء له، فما ينبغي أن نُغيِّر مَوقع السعادة، ولكنني أَعِدُك أنني سأكون عونًا لك على تذليل كل ما يعترضك من صعاب.

نهاية دولة

كانت الأيام تمُر سراعًا وصلاح الدين قلِقٌ لا يهدأ، مُضطرِب لا يستكين؛ فقد أهمَّه حديث والده ورسالة نور الدين التي أمره فيها بقطع الخُطبة للعاضد وجعلها للخليفة العباسي. إنه يُريد أن يُنفِّذ وصية مولاه نور الدين، ولكن الحوادث والمُؤامَرات التي مرَّت أمام ناظرَيه منذ ولي الوزارة، جعلته يتريَّث قليلًا حتى يُعِد عُدته ويتخذ للانقلاب الجديد أُهْبته؛ فقد كان للفاطميِّين أتباع مُنبثُّون في أنحاء مصر، وكانت هناك بقية من أمراء الجيش الفاطمي تَدين للعاضد بالولاء، وكان جنود الجيش من السودانيِّين والأرمن يعتبرون الدولة دولتهم، ويرَون فَناءهم في فنائها، وكانت ثغور الدولة وأسوارها وحصونها مُهدَّمة خرِبة لا تقِف أمام مُهاجِم ولا تصدُّ عدوان مُعتدٍ، وكان المذهب الفاطمي أخيرًا هو المذهب الرسمي، يُلقِّن الدعاة مَبادئه في المساجد.

استعرض صلاح الدين هذه الحالة كلها أمام عينَيه، ورأى بثاقب نظره أنْ يجبُ عليه أولًا أن يقضي على هذه المَظاهر، فإذا وُفِّق كان من اليسير عليه بعد ذلك أن يخطو الخطوة الأخيرة فيقطع الخُطبة للعاضد.

وكان أخوفَ ما يخافه صلاح الدين أن يُجدِّد أمراء الجيش وجنوده الثورة وأن يتصلوا بالفرنج في الشام يستعينون بهم ضده؛ ولهذا بدأ بتفقُّد سور القاهرة فوجده خرِبًا مُهدَّمًا، وقد أصبح كالطريق العام لا يرُد داخلًا ولا يمنع خارجًا، فاستدعى مولاه بهاء الدين قراقوش، ووكل إليه أمر ترميمه وتجديده، وكانت لبهاء الدين إرادة من حديد وعزمة صنديد؛ فجمع العُمال والأسرى والمساجين، ووكل بهم الجنود الأشِداء يعملون ليلَ نهار وهو يتنقل بينهم لا يهدأ أو لا يَني، فلمْ ينتهِ شهران حتى كان السور يُحيط

بالقاهرة والفسطاط عاليًا متينًا سليم الجدران قوي البنيان، تعمُر أبراجَه وقلاعه حامياتٌ من الأكراد والأتراك.

وذهب صلاح الدين بعد هذا إلى الإسكندرية، فخرج أهلوها لمُقابَلته والترحاب به، فكان لحفاوتهم أجمل الأثر في نفسه، وجاشَت في نفسه أحاسيس كثيرة مُتبايِنة وهو يمُر في شوارعها وموكبه يشقُّ الجموع المُتراصَّة الفرِحة برؤيته؛ فقد استعاد في تلك اللحظة الأيام السوداء التي قضاها مُحاصَرًا في الإسكندرية في قَدمته الثانية إلى مصر، وتذكَّر الصعاب التي عاناها والمَشاقَّ التي تحمَّلها وهو يُحارِب الفرنج في البحر وجيوش مري وشاور في البَر، ولولا ما لقيه من معونة أهالي الإسكندرية لقُضي عليه وعلى جيشه وقتذاك، وكان صلاح الدين ممن يذكُرون الجميل؛ فأكرم أهله الإسكندرية في زيارته هذه، ونثر عليهم الدراهم والدنانير، وأنعم على أعيانهم حتى انطلقت ألسِنة الناس تدعو له بالنصر والظفَر، وكان صلاح الدين منذ حُوصِر في ذلك الثغر أعرفَ الناس بقلاعه وحصونه وأسواره ونُقَط ضعفها، وما أصابها من إهمال أو وهن؛ ولذلك قضى أيامه في الإسكندرية يُشرِف على عمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها، حتى اطمأن إلى قوَّتها ثم عاد إلى القاهرة.

ولم يقُم صلاح الدين في القاهرة إلا أيامًا ريثما أُعِدت قِطَع السفن الجديدة التي أمر بإنشائها في دار الصناعة، ثم حُمِلت تلك الأجزاء على الجِمال، وتقدَّمها بفِرقة من جيشه حتى وصل إلى مدينة تالية، وكانت بها قلعة حصينة للفرنج يُهدِّدون منها الحدود الشرقية لمصر والملاحة في البحر الأحمر، ورُكِّبت السفن وأُنزِلت إلى البحر وشُحِنت بالمُقاتِلة، وهاجَم القلعة برًّا وبحرًا حتى خضعت وأُسِر جميع من فيها، فأمر بترميمها، وملأها بالأشِداء من رجاله، وعاد إلى القاهرة والأسرى في ركابه.

وما انتهى من تحصين العاصمة وتأمين الثغور والحدود حتى التفتَ إلى النواحي الدينية، وكانت سياسته ترمي إلى الفَل من حِدة المذهب الشيعي والحد من قوته؛ بإفساح المجال للمذهب السني ونشره بين الناس وتثقيفهم على أساسه، وكانت لدعاة المذهب الشيعي وشيوخه مَراكز قوية في مساجد الفسطاط والقاهرة، فوجد صلاح الدين أنه من الخَرق في الرأي أن يقتحم على هؤلاء الدعاة والشيوخ مَعاقلهم في تلك المساجد؛ خوفًا من أن تثور المُنازَعات بين أتباع المذهبَين، فيُؤدِّي هذا إلى اضطراب الحالة في مصر، ولكنه اقتدى بمولاه نور الدين ورأى أن يُنشئ في مصر المدارس، ولم تكُن مصر تعرفها من قبل، وبدأ بسجن المعونة القريب من مسجد عمرو بالفسطاط فأحاله مدرسةً للشافعية، ثم أتبعه بدار الغزل فأحالها مدرسةً للمالكية، وحذا حذوَه أقرباؤه؛ فاشترى ابن أخيه

تقي الدين عمر بن شاهنشاه مَنازل العز بالفسطاط وجعلها مدرسة للشافعية، وأُوقِفت الأوقاف الكثيرة للصرف على تلك المدارس، وأُجزِلت العطايا لمُدرِّسيها وفقهائها وطُلابها؛ فأقبل الناس عليها وبدءوا ينفضُّون عن المذهب الشيعي وأشياخه.

وثنى صلاح الدين بعد هذا فألغى شعار الإسماعيلية وأمر بإسقاط «حي على خير العمل» من الأذان، وكانت هذه التغييرات تحدُث في بطء وكياسة، فلمْ يُحِس بها عامة الناس، ومن أحس بها كان يستنكرها أولًا ثم لا يجد صدًى لاستنكاره فيلوذ بالصمت، والحياة تجرف الجميع في تيارها وتشغلهم بشئونها.

ولم يبقَ أمام صلاح الدين إلا رجال القصر وأعوانه، فبدأ بأمراء الجيش الفاطمي فعزلهم، واسترد منهم إقطاعاتهم، وأبعدهم عن مَنازلهم وقصورهم، وأسكنها قُواده وجنوده، ثم أمر أخاه تورانشاه فتتبَّع الجنود السودانيِّين في الصعيد حتى شتَّتهم؛ فلاذوا بأذيال الفرار وذهبوا إلى بلاد النوبة والسودان.

عند ذلك بدأ صلاح الدين يقصُّ جناحَي العاضد ويسلبه قُواه المادية؛ فقطع عنه إقطاعاته، واستولى على جميع ما كان بيده من البلاد، ثم استولى على القصور الفاطمية ووكل بها وبمن فيها قائده الجبَّار بهاء الدين قراقوش، فتولَّى حراستها بعين لا تغفل؛ فكان لا يخرج منها خارج ولا يدخل إليها داخل إلا بإذنه.

وكان العاضد يرقُب هذه التغييرات كلها دهِشًا مُتعجِّبًا؛ فقد خيَّب صلاح الدين ظنه. إنه اختاره من بين القُواد جميعًا ليكون وزيره؛ لأنه رآه شابًّا صغير السن، فحسِب أنه يكون في يده أداة طيِّعة، فإذا به قد فاق جميع الوزراء السابقين دهاءً ومكرًا، وقوة وجبروتًا. لقد كان له في عهد الوزراء السابقين أثارة من قوة، وها هو صلاح الدين قد قضى عليها وتركه سجينًا في قصره لا يستطيع حَراكًا إلا والعيون ترقُبه من كل مكان، لقد كان له في الماضي جيش وقُواد، وها هو صلاح الدين قد أبعد منهم من أبعد وشتَّت من شتَّت، وأصبح الجيش جيشه، كل قُواده وجنوده من الأكراد والأتراك، لقد كان له منذ ولي الحكم ماله الخاص، وهو سلاح نافع، وها هو صلاح الدين قد سلبه هذا السلاح الأخير، فلمْ يُبقِ له من أيام عِزه الغابرة إلا فرسًا واحدة، وحتى هذه الفرس الأخيرة لم يشَأ صلاح الدين أَن يتركها له، فأرسل بالأمس يطلبها، فأجابه العاضد إلى طلبته، ولم يتمالك نفسه بعد خروج الرسول وقد طغَت عليه الآلام وألَّت به الأحزان، فانفجر باكيًا، وظل على ذلك ساعة من الزمن وهو في بستانه، ثم أحس قُدوم قادم، فمسح دموعه وانقلب إلى غرفته وقفلها عليه، وقد أحس المرض يدبُّ في جسمه دبيبًا.

ونام العاضد في تلك الليلة نومًا مُتقطِّعًا تخلَّلته الأشباح والأحلام المُزعِجة، واستيقظ عند بزوغ الفجر وهو قلِق مُضطرِب مُنقبِض الصدر؛ فقد رأى فيما يرى النائم أنه ذهب إلى قبة الإمام الشافعي، فصلَّى وجلس، وإذا بعقربة مُخيفة قد سعت إليه فلدغته.

قام العاضد من سريره فتوضَّأ وصلَّى الفجر، وأحضر المصحف ولبث يقرأ فيه ساعة من الزمن، فلما هدأت نفسه قليلًا، استدعى أحد رجال قصره، وأرسله إلى قبة الشافعي وأمره أن يُحضِر من يجده بها من الرجال.

ذهب الرسول إلى القبة فلمْ يجد بها إلا رجلًا صوفيًّا غريبًا اسمه الشيخ نجم الدين الخبوشاني فأحضره معه.

وسأله العاضد عن حاله وأخباره، غير أنه وجده رجلًا فقيرًا لا يُنبئ حاله عن شر، فأكرمه وصرَفه.

كان صلاح الدين يتخذ طريقه إلى هدفه على هدًى من بصيرة نفَّاذة وتجربة حكيمة، غير أن نور الدين كان ثائرًا لا يهدأ؛ فهو يُرسِل إليه الرُّسل بعد الرُّسل يستعجلونه الضربة القاضية على هذه الدولة المُحتضَرة وهو يُبدي الأعذار ويستمهل حتى يستكمل عُدته ويُهيِّئ جميع الظروف. فلما أحس أن الظروف قد أصبحت مُواتِية جمع مجلسًا من أمراء جيشه وقُواده وفقهاء السنة ومُتصوِّفيها، وعرض عليهم رسائل نور الدين، وسألهم المشورة والنصيحة؛ فتردَّد البعض وأبدوا مَخاوفهم أن يثور الإسماعيليون وأنصارهم، وتحمَّس البعض الآخر للفكرة وأيَّدوها، ومن عجَبٍ أن أشد الناس مُهاجَمةً للعاضد وطعنًا فيه وذمًّا له، وتحبيذًا لقطع الخُطبة باسمه، كان هو ذلك المُتصوِّف نجم الدين الخبوشاني.

وكثر القول وطال النقاش، وانتهى الرأي أخيرًا إلى أن يترك صلاح الدين تنفيذ الخُطة لأبيه نجم الدين؛ حتى إذا فشلت تدارَك هو الأمر، واعتذر بأن القوم أقدموا دون علمه ومُوافَقته.

وفي يوم الجمعة الأول من المُحرَّم سنة ٥٦٧ ذهب نجم الدين أيوب ومعه جماعة من أصحابه وأمراء دولته إلى المسجد الجامع بالفسطاط، واستدعى إليه خطيب المسجد، فقال له: إن أنت ذكرت هذا المُقيم بالقصر في خُطبتك ضربت عنقك.

فشدَّه الخطيب وعجِب، ثم سأل: فلِمَن أخطب إذن؟

فقال نجم الدين: لمولانا الخليفة العباسي المُستضيء بالله.

وصعد الخطيب المنبر، وقد استولت عليه الحيرة، ونال منه الذعر. إنه إن أطاع أمر نجم الدين فلَرُبما ثار به المُصلُّون وقضَوا عليه، وإن لم يُطِعه عرَّض نفسه للقتل، وألقى

خُطبته مُضطرِبًا مُرتبِكًا على غير عادته، وهو لا يدري ما يقول، وأخيرًا هداه الموقف الشائك إلى أن دعا للأئمة المهديين ثم للسلطان المَلك الناصر صلاح الدين، ونزل فصلَّى بالناس وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الخوف، فلما انفضَّ الناس دعاه إليه نجم الدين وسأله: لمَ لم تفعل كما أمرت؟

فقال الخطيب مُعتذِرًا: إنني لم أعرف اسم المُستضيء ولا نعوته، فإذا علِمتها دعوت له في الجمعة القادمة إن شاء الله.

وآثَر نجم الدين العفو وخرج فجمع في داره جماعة من الفقهاء، وطلب إليهم أن يختاروا من بينهم واحدًا يتولَّى الخُطبة للخليفة العباسي في الجمعة القادمة؛ فتردَّد البعض، وتخوَّف البعض، وأخيرًا تقدَّم منهم رجل مَوصلي كفيف البصر اسمه الأمير العالم، وقال: أنا لها أيها الأمير.

وخرج به نجم الدين، فصافَحه وقال: بارك الله فيك أيها الشيخ.

ولكنه أدار وجهه وهو يقول في نفسه: «حقًّا إن كل ذي عاهة جبَّار».

وتناهَت هذه الأخبار إلى العاضد في مرضه؛ فأدرك أن الأمر جِد لا هزل، وأن هذه نهاية النهاية، فاشتد به المرض، فكانت تعتريه نَوبات من الغيبوبة، فإذا أفاق جمع إليه أهله وأولاده وطفِق يُقبِّلهم ويضمُّهم إليه وعَبراته تنهمر من عينَيه. لقد آمَن أن دولته ودولة الفاطميِّين قد انتهت، ولكنه أصبح يخشى على أهله وأولاده عَوادي الزمن. فماذا هو فاعل من أجلهم؟! ليس في الأُسرة رجل كبير رشيد يُوصيه بهم خيرًا، ولم يبقَ من أمراء الدولة وقُوادها أحد يعهد بهم إليه، وأخيرًا لجأ إلى ما يلجأ إليه المُضطَر، فأرسل يستدعي إليه صلاح الدين.

وحضر صلاح الدين واستمع إلى وصية العاضد إليه تخرج في كلمات مُتهالِكة مُتقطِّعة؛ أن يرعى أهله وأولاده من بعده، وتأثَّر صلاح الدين لقوله وبكى لبكائه، ووعده خيرًا وانصرف.

واشتدَّت وطأة المرض على العاضد حتى قام لبعض حاجته فعثر وسقط، وأرسل أهله في طلب طبيب القصر ابن السديد فتلكَّأ واعتذر، وعلِم العاضد باعتذاره، فاشتدَّ به الألم وقال: «لقد انفضَّ عني الجميع حتى الطبيب، لم يبقَ في الدنيا إذن خير.» ورفع خاتمًا مسمومًا في إصبعه كان قد أعدَّه لِمثل هذا اليوم، ومصَّه مصَّتَين فاسترخت أعضاؤه، وظلَّ طولَ الليل يتلوَّى من الألم.

وأشرقت شمس يوم عاشوراء على أصوات النعي وبكاء الباكين وصراخ الصارخات والنادبات، يُعلِنون جميعًا للملأ كله موت خليفة ونهاية دولة، دولة سمَت مصر في عهدها إلى أعلى مَراتب العِز والمَجد، وأسمى طبقات الرفاهية والسؤدد.

ريحانة تستغيث بفاطمة

وقفت السيدة أزهار زوج الأمير شمس الخلافة على باب غرفة فاطمة ترقُبها وهي جالسة جِلستَها الهادئة مُرتدِية رداءً أحمر، وتُغطِّي رأسَها عصابةٌ حمراء؛ فبدَت لها وكأنها وردة حمراء جميلة تفتَّحت في الصباح الباكر تدعو القاطِفِين بجمالها، وكانت فاطمة تحنو على عُودها وتُحرِّك أوتاره؛ فتنبعث لحركتها ألحان عذبةٌ فيها حنين، فتُجاوِبها بنغمات مُنسَّقة كاللحن.

وهاجَمت أزهارَ أفكارٌ مُتبايِنة سريعة كلها تدور حول فاطمة؛ فهي تراها منذ سنوات كالزهرة الجميلة حان قِطافها، وقد حدَّثت زوجها ليجد لها زوجًا كفئًا، وأقبل الخاطبون فكانت تُحدِّث فاطمة عنهم فلا تجد منها إلا رفضًا وإعراضًا، فإذا ألحَّت عليها أن تُبيِّن لها سبب الرفض كانت تُجيب في مكر دائمًا: إنني سعيدة معك ومع أبي يا أماه، ولا أُحِب أن أُغادِركما لمنزل لا أعرفه، ورجل لا أعرفه.

فتنظر أزهار وتسكت ولكن على مَضَض.

وقد جاءت اليوم تعرض على فاطمة خاطبًا جديدًا، ولكنها مكثت مدةً تُقدِّر وحدَها الحُجَج القوية والبراهين المُفحِمة التي ستهجم بها على فاطمة لتُقنِعها حتى تفوز منها بالقبول، فلما وقفت بالباب تستمع لأغانيها وتُراقِب وجهها المُشرِق وجسمها البَض النامي، ازدادت اقتناعًا بضرورة الإسراع بزواجها، فطرَقت الباب طَرقًا خفيفًا انتبهت له فاطمة، فرفعت رأسها ورأت زوج أبيها تُطِل عليها بوجه مُشرِق باسِم وتُحيِّيها تحية الصباح، فتركت العُود جانبًا وخفَّت إليه مُرحِّبة، وقبَّلت يدها، فمدَّت السيدة أزهار يدها اليسرى ومرَّت بها على شَعر فاطمة الأسود الناعم المُنسَّق، وقد تدلَّى في ضفيرتَين طويلتَين خلفَ ظهرها، وقالت: نَعِم صباحك يا ابنتي، ما هذا اللحن الجميل؟ لقد غدَوت موسيقية بارعة.

فأطرقت فاطمة حياءً، واحمرَّ وجهها من أثر هذا المرح ولم تُجِب، وسكتت السيدة أزهار لحظة، ثم قالت: أتعرفين فيمَ أُفكِّر الآن يا فاطمة؟

فرفعت فاطمة رأسها ونظرت إلى زوج أبيها نظرة سريعة، فلمْ تعرف فيما تُفكِّر، ولكنها خشيت أنها قد تكون أتت لتُحدِّثها عن خاطب جديد غيرِ مَن رفَضت، فقالت: نظراتك اليوم يا أمي لا تُظهِر ما في نفسك.

فضحكت أزهار وقالت: إنني أُفكِّر في وردة جميلة ذات لون أحمر قانٍ بديع، تُغطِّيها قطرات الندى اللؤلؤية الجميلة.

فقالت فاطمة: أنا أعلم يا أماه أنك تُحِبين الورود والرياحين، ولكن هل تُعوِزك الأزهار وبستان قصرنا مملوء بها ولله الحمد؟!

– نعم يا بُنَيتي، صدقتِ، بستان قصرنا مملوء بها ولله الحمد، ولكنني أُفكِّر في وردة فريدة هي خير ما في هذا القصر من ورود، بل أنا أعتقد أنها خير ما في قصور القاهرة من ورود.

فعجِبت فاطمة لهذا الوصف، وقالت: إنك تُبالِغين يا أمي؛ فليس في قصرنا وردة بهذا الجمال وإلا لَضاعت رائحتها، فملأت الأرجاء وعطَّرت الأنحاء.

واقتربت أزهار من فاطمة ووضعت يدها على كتفها، وقبَّلتها قُبلةً تُعبِّر بها عن حنان الأم وإعجابها، وقالت: لا تتغابَي يا فاطمة. إنك الوردة التي أعني والتي ضاع عبيرها — كما تقولين — فجذَب الأنفُس.

فعلا الدم في وجه فاطمة، وغطَّاه بحُمرة خفيفة جميلة، وأطرقت حياءً وقالت: إنك دائمًا تمدحين جمالي يا أمي، وهذا كرَمٌ منك، ولكنني أخشى أن يُداخِلني الغرور؛ فالعَذارى يغرُّهن الثناء.

فمدَّت أزهار يدها، وأمسكت ذقنَ فاطمة، ورفعت رأسها قليلًا، ونظرت إلى عينَيها السوداوَين، وقالت: إنني أصِفك بما فيك يا فاطمة، ولكنني أعجب حتَّامَ يظل هذا الجمال عاطلًا بعيدًا عن الأنظار، بعيدًا عن رَجل يُسعِده وتُسعِدينه؟!

فخجلت فاطمة وقالت: عُدنا إلى هذا الموضوع البغيض إلى نفسي. لقد قلت لك يا أمي إنني لا أرغب في الزواج الآن.

فشدَّدَت أزهار الضغط عليها بيدها، وضمَّتها إليها وقالت: إن الزهرة إذا تفتَّحت يا بُنَيتي وجب قِطافها وإلا ذبلت، وتناثرت أوراقها وضاع جمالها.

– ولكنني لا زلت صغيرة يا أمي.

– لست صغيرة يا فاطمة. كان يجب أن تكوني الآن أمًّا ذات أطفال.

فحارت فاطمة كيف تُجيب؟! وأرادت أن يُنقَل الحديث إلى موضوع آخر، فمدَّت يدها إلى العُود، وقالت: أتُحِبين أن تسمعي هذا اللحن الجديد؟ إنه لحن جميل سمعه والدي فأعجبه، وكنت أُكرِّره قبل مَجيئك؛ فإن ريحانة ستحضر الآن لتسمعه مني كاملًا لأول مرة، ولم تكَد تُتِم كلامها حتى دخلت الخادم تستأذن لريحانة. فوقفت السيدة أزهار، وقالت: فكِّري يا فاطمة في هذا الأمر ثانية؛ فإن الأمير كان هنا بالأمس ليسأل أباك عن رأيه، وأبوك يُريد أن يصِل إلى رأي حاسم قبل أن يُسافِر إلى عمله الجديد في قوص.

فدُهِشت فاطمة وفغَرت فاها، ونظرت إلى زوج أمها، وقالت مُستفسِرة: عمله الجديد في القوص؟!

– أجل، فقد أقطع صلاح الدين قوص لأخيه شمس الدولة تورانشاه، فأناب أباك عنه؛ لِيَلِي هذه الولاية، ويبقى هو هنا.

ودخلت ريحانة فانقطع الحديث بين أزهار وفاطمة، وحيَّت السيدة ضيفتها وخرجت، وتركت الفتاتَين معًا تبثُّ كل منهما همَّها لصاحبتها، ونظرت ريحانة فوجدت فاطمة مُطرِقة تنظر إلى العُود في يدها وإلى الأرض نظراتٍ ساهمةً شأنَ من يُفكِّر، فسألتها: فيمَ تُفكِّرين يا فاطمة؟

فرفعت فاطمة رأسها، وتكلَّفت الابتسام وقالت: لا شيء، كنت أستعيد اللحن الذي سأُسمِّعه اليوم.

فلمْ تشَأ ريحانة أن تُحرِجها، وقالت: إلى هذا الحد تشغُفِين بدروس الموسيقى؟ أسمعيني إذن. فأمسكت فاطمة بالعود وحنَت عليه تُداعِبه بريشتها وتُغنِّي:

يا منزل الأُنس الجميـ ـع ومَلعب الحي الأغَنْ
أين استقلَّت بالحبيـ ـب رِكابُه ومتى ظعَنْ
شوقي إلى زمن الحِمى سقي الغوادي من زمنْ
شوق المُغرَّب شرَّدتـ ـه يد البِعاد عن الوطنْ
ولقد عهدتُك والزما ن بشملنا بك ما فطنْ
وثراك ما اغبرَّتْ مَسا رحه وماؤك ما أسنْ
لامَ العَذول وما درى وجدي وبلبالي بمَنْ
ما ضرَّ من هو فتنتي لو كان يرحم ما فتنْ

ولم تكَد تنتهي من العزف حتى حُبِس صوتها وخنقتها العَبرات، ونظرت ريحانة فوجدت الدموع تترقرق في عينَي فاطمة؛ فعجِبت لها، وأبعدت العُود عنها، وأمسكت بيدَيها وقالت: ما هذا يا فاطمة؟ أتبكين؟ ولمَ؟

فأسرعت فاطمة وبلعت ريقها، ونظرت إلى ريحانة وابتسمت وهي تقول: لا شيء، لا شيء. إن هذا يحدث لي دائمًا إذا كنت مُتعَبة؛ فلا تُراعي.

فقالت ريحانة وهي لا تُصدِّق: لا، ليس هذا البكاء من أثر التعب.

وارتبكت فاطمة وحارَت ماذا تقول! إنها هي نفسها لا تعرف سببًا بعينه لبكائها؛ فقد كان اللحن جميلًا حنونًا يُثير الشجَن، وكانت نفسها ثائرة لأمور كثيرةٍ أهمُّها هذا الحديث من زوج أبيها تُعيده كل يوم على مَسامعها وهي حَيرَى لا تعرف كيف ولمن تُفضي بسِرها، وجاءت ريحانة والثورة مُضطرِمة في نفسها، فلمْ تكَد تبدأ اللحن وتُعيده حتى ثارت أحزانها وهاجَت شجونها، فوجدت الدموع تتساقط من عينَيها، ولكنها أرادت أن تنتحل عذرًا تُقنِع به ريحانة حتى لا تُثير شكوكها، فقالت: إنني أبكي هذا القصر الذي سنتركه بعد قليل؛ فإن الأمير شمس الدولة اختار أبي ليكون واليًا على قوص بدلًا عنه.

فقالت ريحانة: وهل في هذا ما يُثير أحزانك، ويبعثك على البكاء؟ إن قصر الأمير في قوص جميل كهذا القصر، ومن يدري؟ فقد يُفضِّل والدك أن يترككم ها هنا ويُسافِر إلى قوص وحده.

ففرحت فاطمة لهذا الرأي، وقالت: بوركت يا ريحانة. والله إن هذه لَفكرة جميلة، وسأطلب من أبي أن يتركنا هنا. ثم سكتت لحظة، وقالت: ولكن من يستطيع خدمته في قوص؟ لا، لا بد من أن أصحبه حتى لو رفض الجميع الذهاب، ولكن دَعينا من هذا.

ونظرت فاطمة فرأت رفيقتها تُخرِج منديلًا، فتمسح به دموعها وهي تقول: رحم الله الخليفة العاضد وطيَّب ثراه، وجعل الجنة مثواه. لقد لقِينا العز في عهده، وسنلقى الضَّيم من بعده.

فقالت فاطمة تُواسيها: لا يا ريحانة، لا تخافي ولا تحزني؛ فإنك ستنعمين بالعز الذي كنت تنعمين به أيام مولانا الخليفة العاضد، فإني أسمع أن صلاح الدين كريم النفس لا يظلم ولا يجور.

– إنه كريم النفس حقًّا، ولكن المُلك وسياسة الملك لا تعرفان كرمًا.

– وما لكِ أنت ولسياسة المُلك؟

– ألستِ من جواري القصر ونسائه؟

– بلى، وما بال جواري القصر ونسائه؟

– لقد سمعت اليوم أن صلاح الدين أمر بإبعاد رجال القصر عن نسائه، وحفظ كل فريق في سجن خاص؛ حتى لا يتصل الفريقان فيتزاوجوا فيلدوا وارِثِين للفاطميِّين ومُطالِبِين بالخلافة.

تألَّمت فاطمة لهذا الخبر وحزِنت لحزن صديقتها، ولكنها أرادت أن تُطيِّب خاطرها، فقالت: لا تخشَي شيئًا يا ريحانة؛ فإني سأُحدِّث أبي الليلةَ في أمرك، وسأطلب إليه أن يُبقيك هنا في مَنزلنا.

فقفزت ريحانة فرِحةً كمن أُنقِذ من شرٍّ يُحيط به، وأقبلت على فاطمة تُعانِقها وتُقبِّلها، وتقول: شكرًا لك يا فاطمة وألف شكر. والله لئن فعلتِيها ليكونن ذلك جميلًا لك أذكُره مَدى الحياة.

ولكنها ما لبثت أن وجمت وأطرقت، وراحت تُفكِّر في خشترين، خشترين المُختفي الذي يتوقَّع الموت في كل حين ولا صديق يتصل به ويرعاه، فنظرت إلى فاطمة، وقالت وهي تبكي ثانيةً: وخشترين يا فاطمة؟

– وخشترين؟! وهل هو لا يزال في مصر؟! إنني لم أسمعك تذكُرينه منذ جاء أسد الدين آخرَ مرة.

– أجل يا صديقتي إنه في مصر. فهل تحفظين سِري وسِره إن أنا أنبأتك عنه؟

– قولي يا ريحانة، ولا تخافي.

– علِم خشترين بمجيء أسد الدين، فأيقن أن أجَله قد دنا، ففرَّ إلى قرية البدرشين جنوبَي القاهرة، وتنكَّر في زِي فلاح، واستأجر أرضًا وكوخًا، وظل يعمل في هذه الأرض حتى الآن، وكنت أنتهز الفرص فأتنكَّر في زِي رَجل وأذهب لزيارته بين الحين والحين، فأجده يعيش على حذر لا يكاد يختلط بأحد من الناس، فهو يظن كل عين عالمة بسِره، وكنت أعُد العُدة ليصدر العفو عنه من صلاح الدين، وها أنت ذي ترَين كيف مات الخليفة، وكيف نقرُّ في القصر سجيناتٍ تحت حراسة قراقوش، وكيف سيكون مآلنا بعد أيام.

وبكت فاطمة لبكاء صديقتها، إلا أنها أخذت تُفكِّر في سبيلٍ تُساعِد به ريحانة في مُلِمتها، ورأت أول ما رأت أن تروي الحادث لأبيها وترجوه أن يسعى لدى صلاح الدين ليعفو عن خشترين، ولكنها قدَّرت أن يسألها أبوها وكيف عرفتِ هذا الرجل، ولا بد للإجابة عن هذا السؤال أن تُحدِّثه عن العلاقة بينه وبين ريحانة، وهي لا تجرؤ على هذا.

ثم فكَّرت في عبد الرحمن، ولكن كيف تتصل به وقد قطع أبوها دروسه؛ لكِبَر سِنها، وليحجبها عن أعيُن الرجال توطئةً لزواجها من أحد الأمراء، فهي تُعاني الآن من بُعده،

غير أنها امرأة وللنساء إحساس لا يُخطئ في هذه المواضيع، فقالت لريحانة: أتعرفين الشيخ عبد الرحمن القوصي؟

– أجل أعرفه.

– سأكتب له خطابًا أروي له الحادث، وأطلب منه أن يُؤوي خشترين عنده في داره، وتأكَّدي أنه يكون عنده في أمان، وعليك أنت أن تسعَي لدى خشترين لتُقنِعيه بهذا.

فقالت ريحانة: وبعد؟! إنه بهذا ينتقل من سجن إلى سجن.

– ولكنه سيجد من عبد الرحمن صديقًا، وقد نُوفَّق إلى استصدار العفو عنه بعد ذلك، فاترُكي الأمر للمقادير.

قرأ عبد الرحمن خطاب فاطمة فكاد يطير به فرحًا، ولكنه ما لبث أن عاد إليه يقرؤه ثانيةً بعد أن خفَّ ما به من نشوة السرور؛ فصدمته كلمة «خشترين»، ونظر إلى حاملة الخطاب وقال: خشترين لا زال حيًّا ومُختفيًا؟

– أجل.

– وتُريدينني أن أُووِيه في بيتي؟

– لو تكرَّمت.

فصاح مُستنكِرًا: لا، لا يُمكِن أن أفعل هذا أبدًا. وهل نسيتِ ما فعل؟!

فذُعِرت فاطمة وأحسَّت خيبة مَسعاها، فسألته: وماذا فعل؟

وكاد أن يُجيبها، ولكنه عاد فتذكَّر أن فاطمة ترجوه أن يُجيب طلبها إكرامًا لصديقتها العزيزة عليها، وتذكَّر أن هذه أول مرة يتلقَّى فيها خطابًا من فاطمة، وأول مرة تتقدم إليه فيه برجاء، وهي لم تفعل ما فعلت إلا لثقتها الكبيرة به، فهل يرفض رجاءها ولا يكون عند حسن ظنها به؟ ولكنه عاد فتذكَّر أيضًا كيف وشى هذا الرجل بصديقه أبي الحسن عند شاور، وكيف كادت هذه الوشاية أن تُودي بحياة هذا الشيخ المسكين، وهكذا ظل عبد الرحمن في صراع عنيف؛ يهمُّ بالرفض فيبدو له شبح فاطمة من بعيد يُشير إليه في استعطاف أن يقبل، ويُضيف الرجل عنده حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

ونظر عبد الرحمن فوجد ريحانة — هذه الفتاة الجميلة — تقِف أمامه، وتنظر إليه نظرات مُستكينة كلها رجاء وخوف، فاستيقظ في نفسه من يُدافِع عن الرجل والفتاتَين، وأحس كأن إنسانًا يقول له: إن هذا الرجل أصبح غير ذي خطر؛ فقد قُتل شاور الذي

كان يعتز خشترين بجاهه، ومات العاضد فانتهت الدولة بموته، فممَّ إذن تخاف؟ حقًّا إن الرجل أخطأ في الماضي وخطؤه جسيم، ولكن كل جسيم يهون في سبيل إرضاء فاطمة.

واقتنع عبد الرحمن بهذا الرأي، فنظر إلى ريحانة ثانية، وقال: سأنسى الماضي يا ريحانة إكرامًا لفاطمة ولك، فليأتِ خشترين، فسيكون هنا وكأنه في داره.

وفرِحت ريحانة وضحكت قائلة: إنني يا سيدي لا أعرف كيف أُوفِّيك حقك من الشكر، ولكنني أرجو أن أُوفَّق يومًا لرد هذا الجميل.

المؤامرة الثانية

ومرَّت شهور بعد ذلك وأهالي الفسطاط لا يرَون الشيخ عبد الرحمن إلا وفي صحبته شيخ غريب ذو لحية سوداء وبيده سبحة لا تُفارِقه، وتساءل الناس من يكون ذلك الشيخ؟ وأجاب البعض أن هذا شيخ جليل من علماء كردستان وفد على مصر زائرًا، وقد عرض عليه الشيخ عبد الرحمن أن يُضيفه في داره، فقبِل وهو الآن ضيفه، وكثرت الأقاويل، وتعدَّدت الروايات والكل يُبالِغون في وصف الشيخ وأخلاقه وعلمه الغزير.

ولم يكُن هذا الشيخ غير خشترين، فقد اختار له عبد الرحمن هذا الزِّي ليختفي وراءه، وأجاد خشترين تمثيل دور الفقيه؛ لما كان له من شغف قديم بالعلم والدراسة، ولكثرة ما كان يقرأ في كتب الفقه ويُجالِس الفقهاء ورجال الدين ويُناقِشهم ويُساجِلهم.

وكان عبد الرحمن يُلازِمه دائمًا في غُدُوه ورواحه أول الأمر، فلما اطمأن الناس إليه وقلَّ استغرابهم وتساؤلهم ترك له الحرية يخرج من المنزل أنَّى شاء ويذهب إلى حيث يُريد، ويعود وقتَ تحلو له العودة.

وعاد عبد الرحمن يومًا إلى داره، وفتح الباب ودخل إلى حديقة داره الصغيرة التي لا تحوي غير نخلتَين وشجرة ليمون وشجرة رمان وكَرمة عنب، فرأى خشترين جالسًا تحت شجرة الليمون وبيده خنجر يُقلِّبه بين يدَيه؛ فعجب له وتقدَّم فحيَّاه، ولكنه وجده مُطرِقًا ينظر إلى الخنجر؛ فلمْ يرفع وجهه، ولم يردَّ التحية، وأعاد السلام مرة ثانية وسأله قائلًا: ما بالك يا خشترين لا تردُّ تحيتي؟

ورفع خشترين رأسه، ونظر إلى عبد الرحمن بعينَين تملؤهما العبرات، وقال: لستُ جديرًا بسلامك يا شيخ عبد الرحمن؛ لا، ولست جديرًا أيضًا بالإقامة معك.

فتألَّم عبد الرحمن لرفيقه، وحسِب أنه يخضع الآن ليقظة من يقظات ضميره؛ فيتألم لما فعله مع أبي الحسن، فأراد أن يُخفِّف عنه بعض ما يُحِس، فابتسم وقال: إن الندم

يا صديقي نوع من الاعتراف بالذنب وطلب الاستغفار، غفر الله لك وسامحك، وتأكَّد أن أبا الحسن لو كان هنا الآن لعفا عنك. فضحك خشترين ضحكة مريرة، وقال: إن الأمر أخطر مما تظن، وأخطر مما فعلت مع أبي الحسن. ففغَر عبد الرحمن فاه، وأسرع يسأله: أخطر مما فعلت مع أبي الحسن! وماذا يكون هناك أخطر من الوشاية برجل بريء؟! قُل لي. أسرع.

فارتبك خشترين وتردَّد أن يُفضي بسِره إلى عبد الرحمن، واكتفى بأن نظر إليه نظرة طويلة وكأنه يستشيره ويسأله النصيحة، ثم تذكَّر جُرمه؛ فأحنى رأسه، وأخفى وجهه بين يدَيه، وراح يبكي بكاءً قويًّا.

وتوافدت الظنون على عبد الرحمن، وأنشأ يسأل نفسه: تُرى ماذا فعل الرجل؟ وأي ذنب هذا الذي أيقظ ضميره وأسلمه فريسةً للندم وتأنيب النفس حتى راح يبكي هذا البكاء المُر؟ ووجد أن من واجبه مهما كان الجُرم عظيمًا أن يقِف إلى جانب ضيفه من هذه المحنة النفسية العنيفة؛ فهو أحوج الناس اليوم إلى قلب عطوف يطمئن إليه، ليتدارك خطأه إن كان هناك مجال لذلك، أو ليستغفر ربه إن كان قد فات الأوان، فجلس إلى جانبه وربَّت على كتفه، وقال: لا تبتئس يا خشترين، ولا تستسلم للحزن هكذا، فأنت رجل حرب وجِلاد، وأخبرني بما فعلت فأنا صديقك، علِّي أجد لك مخرجًا؛ فعاد إلى خشترين قبس من روح الجندية القديمة، فمسح دموعه وقال: لا بد مما ليس منه بُد. اسمع يا صديقي. سأحدثك عن كل شيء.

– قُل ولا تخَف.

– هناك مُؤامَرة تُدبَّر منذ زمن للقضاء على صلاح الدين وإعادة الفاطميِّين.

فذُعِر عبد الرحمن وأدرك أن الأمر جِد خطير، فقال في استنكار: مؤامرة للقضاء على صلاح الدين؟ وأنت من مُدبِّريها؟!

فأجاب خشترين وفي قوله رنة الأسف: أجل وأنا من مُدبِّريها.

– وهل كدتُم كيدكم وتم الأمر؟

– تم نصفه وبقي نصفه.

– إذن لا زال هناك أمل في إصلاح ما أفسدتم؟

– أجل هناك أمل.

– حدِّثني عن كل شيء إذن بالتفصيل لنتدبَّر الأمر معًا.

– اسمع يا صديقي، وانظر إلى هذا الوشم في ظاهر يدي؛ إنه أصل البلايا.

– وكيف؟!

– جلست يومًا في مسجد عمرو أشرح بعض آي الذكر الحكيم لنفرٍ من المُصلِّين، ثم مرَّ على مَجلسنا الشاعر عمارة اليمني، وتركنا وبعُد، ولكنه عاد فوقف خلف الجالسِين، وأخذ يرمُقني بنظرات فاحصة، ثم جلس يستمع حتى انتهى الدرس وهو يُراقِبني مُراقَبة دقيقة.

وخرجتُ من المسجد فإذا به يتبَعني، واقترب فحيَّاني باسمي؛ فذُعِرت وخِفت، وارتبكت وأنكرت تحيته، ولكنه أبان لي أنه قد عرفني بعلامات كثيرة أخصُّها صوتي، وهذا الوشم في ظاهر يدي رآه وأنا أستعين بيدي أُشير بها أثناء الشرح.

فدُهِش عبد الرحمن لهذا الحديث، وقال: عجيب أمر هذا اليمني! إن ذكاءه خارق، وإنني لأتوجَّس خيفة من هذا الذكاء، وخاصة وهو لا ينعم الآن بما كان ينعم به أيام الفاطميِّين ووزرائهم. ولمَ لم تُخبِرني بهذا في حينه يا خشترين؟

– استمع يا شيخ عبد الرحمن لبقِية القصة. مشينا نتحدث قليلًا، ثم دعاني لزيارته في داره، وألحَّ في الدعوة فقبِلت وذهبت، وهناك استمالني بأسلوبه المعسول حتى مِلت إليه، ثم أبان لي عن غرضه أن أنضمَّ إليه في عمل عظيم يكون لي من ورائه خير كثير، وظل يشكو صلاح الدين وأهله، ويترحم على أبناء فاطمة ووزرائهم، ويذكُر جودهم وإكرامهم له، ويُثير سخطي على هذه الدولة الجديدة دولة بني أيوب، ويقول: «أترضى أن تعيش مُختفيًا هكذا تحيا حياة الفقهاء البائسة وأنت رب السيف ورجل الحرب والنزال؟!» وأفلح الرجل في استثارتي وسمعت إليه وعلمت أن فئة من الرجال تعمل لإعادة بني فاطمة، فيهم قاضي القضاة وداعي الدعاة وبعض رجال الجيش، وفيهم من الفقهاء زين الدين المصري، وفيهم رجال من فرنج مصر والشام.

– وأين تجتمعون؟

– في كنيسة خرِبة في طرف من أطراف الفسطاط.

– وما سبيلكم لتحقيق هذه الأمنية؟

– كانت خُطتنا ذات شقَّين، نفذ شِق منها وبقي شِق. كنا نرى أن جيش صلاح الدين في مصر قوي، فأردنا إضعافه، وقد أفلحنا في هذا، وكان سلاحنا في هذا الشق عمارة.

– وكيف؟

– ظل عمارة كعادته يمدح صلاح الدين وإخوته وبني أيوب جميعًا، علَّه يظفر بفيض المال الذي كان يفيض عليه دون حساب زمن الفاطميِّين؛ فلمْ ينَل إلا العطاء

القليل، إلا أنه وجد شمس الدولة تورانشاه أكرم بني أيوب وأسخاهم إذا أعطى، فتقرَّب إليه وأكثر من مدحه، فعهدنا إليه أن يُحرِّضه على الخروج لفتح اليمن؛ ليكون له مُلك كمُلك أخيه صلاح الدين في مصر، وما زال بتورانشاه يُنشِده القصيدة تِلو القصيدة، وينقل إليه أحاديث اليمن، ويُهوِّن عليه أمر فتحها، حتى بات تورانشاه لا يُفكِّر إلا في اليمن، وطلب من أخيه صلاح الدين أن يسير لفتحها فأذِن له.

فقال عبد الرحمن: وهكذا نجحتم في شطر جيش صلاح الدين شطرَين، شطرٍ سار لليمن وشطرٍ بقي في مصر، وخُيِّل إليكم أنكم أضعفتم بهذا قوة صلاح الدين في مصر. وما هو الشق الثاني من الخطة يا خشترين؟

– الشق الثاني يتلخص في الاستعانة بالفرنج، وقد تواعَدنا معهم أن يحضروا إلى مصر متى سافر تورانشاه، فإذا حضروا أشعلنا نار الثورة في مصر، وتعاونَّا على إعادة الفاطميِّين إلى العرش، وطرد صلاح الدين وبني أيوب.

سمع عبد الرحمن القصة، فعجِب لهذه التيارات الخفيَّة تتخذ سبيلها وتُمهِّد لأحداث قوية عاصفة وهو مُغمَض العينَين لا يُحِس، ونظر إلى خشترين فوجده قد قبض على خنجره من جديد، فسأله: وما هذا؟

قال: إنني أُحِس الآن ضميري يخِزني وخزًا وجيعًا، وأجد أنني كنت غير مُوفَّق منذ وفدت على هذه الديار. أغراني شاور فخنتُ أسد الدين وبقيت هنا، ثم عرفت سِر أبي الحسن فأنبأت شاور به وكنت السبب في سجن هذا الرجل الهرِم، وأخيرًا خانَني الحظ، وخضعت لرغبة هذا الشاعر اليمني، واشتركت في التآمُر على صلاح الدين، وها أنا ذا الآن أجدني كرديًّا، فكيف أتآمُر ضد صلاح الدين وهو كردي؟ ولَطالما خضتُ معه المعارك ونِلنا النصر سويًّا؛ ولهذا أُفضِّل أن أقتل نفسي لأنجو بها من هذا الألم الذي أنوء به.

وأدرك عبد الرحمن أن الرجل صادق التوبة، وأنه نادم حقًّا على ما فعل، وإلا لما روى له أخبار المؤامرة في تفصيل وهو الذي أقسم ألا يبوح بسِرها؛ فأخذ منه الخنجر وقال: يا خشترين، أنت تعرف أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وقد اعترفت الآن بأخطائك كلها، فهل تُريد أن تزيدها خطأً، بل جُرمًا جديدًا لا يغتفر، تُريد أن تموت كافرًا؟! لا لا يا صديقي، إن أمامك الفرصة المُواتِية للتكفير عن هذه الأخطاء جميعًا.

فنظر إليه خشترين، وقال: وكيف؟

– تستطيع أن تذهب إلى صلاح الدين، فتُخبِره خبر المؤامرة؛ ليتدارك ما فاته، ويُعاجِل المُتآمِرين قبل أن تتمَّ لهم رغبتهم.

– وماذا يفعل بي صلاح الدين بعد ذلك؟

– يعفو عنك.

– أتظنني أبلَه إلى هذا الحد يا شيخ عبد الرحمن؟

– لا يا خشترين. لا تظنن أني أغدر بك، بل اذهب فافعل كما أشرت عليك وأنا زعيم أن يعفو عنك صلاح الدين.

– لا يا صاحبي. أنا لا أستطيع.

– إذن اترُكني أُمهِّد لك السبيل. سأذهب إلى القاضي الفاضل، وأرجوه أن يستسمح لك صلاح الدين؛ وحينذاك تستطيع أن تُفضي إليه بحديثك وأنت مُطمئن.

واتفق الرجلان على هذا، وخرج عبد الرحمن وقصد إلى دار القاضي الفاضل، ودخل فوجد الفقيه زين الدين في حضرته؛ فعجِب لهذا الأمر، ودُهِش كيف لا زال القاضي الفاضل — وهو الرجل المُتقِد الذكاء — يثق بهذا الفقيه الذي يتآمَر على سلامة الدولة وسلطانها؟! وجلس ينتظر أن تنتهي المُقابَلة ليسرَّ إلى القاضي الفاضل بما يُريد، فلمْ تنتهِ، وطال الوقت وهو قلِق لا يكاد يستقر، وأخيرًا مال إلى القاضي الفاضل، وهمس في أُذنه بعض كلمات؛ فضحِك الفاضل وقال: وماذا يمنعك؟ قُل ما عندك؛ فلسنا نُخفي عن الفقيه زين الدين شيئًا وإن عظُم.

فارتبك عبد الرحمن وزادت حيرته، ولم يدرِ كيف يفعل، ولكنه قال: لا يا سيدي القاضي، لا أستطيع، لا أستطيع.

ولاحَظ الفاضل حيرته، فقهقه وقال: وكيف لا تستطيع؟ قُل ولا تخَف، وتأكَّد أن أُذنَين اثنتَين تستمعان إليك؛ فزين الدين كشخصي وأنا أثق به ثقتي بنفسي.

فبلغت به الدهشة مَبلغًا عظيمًا، وبدأ يشكُّ في القاضي الفاضل نفسه، وأخيرًا قدَّر الفاضل حيرة عبد الرحمن فترك مَجلسه، وبعُد به إلى ركن قصي من أركان الغرفة، فأسرَّ إليه عبد الرحمن بمُوجَز الخبر، ولشَدَّ ما كانت دهشته عندما لاحَظ أن الفاضل علِم بالمؤامرة ومُدبِّريها فردًا فردًا، وذُعِر عندما وجده يأخذه من يده ويتقدم إلى الفقيه زين الدين قائلًا: هذا عبد الرحمن يا صديقي يشي بك، ويقول إنك تتآمر على الدولة وسلطانها.

فأظهر زين الدين الخوف، وقال في ارتباك: فعلتَها يا عبد الرحمن، ولم تُراعِ فيَّ حق الصداقة التي بيني وبينك؟

ثم سكت لحظة وقال: وحق الأستاذية يا عبد الرحمن؟ هل هذا وفاء التلميذ لمُدرِّسه؟

واضطرب عبد الرحمن وأراد أن يقول شيئًا ليعتذر أو ليُبرِّر فعلته، ولكن الكلمات تعثَّرت في فيه، وكان القاضي الفاضل يقِف خلفه واضعًا يده على فمه يُخفي ضحكة تُريد أن تنطلق فلمْ يستطع، فانفجر ضاحكًا وربَّت على كتف عبد الرحمن، وقال يُطمئِنه: لا تخَف يا عبد الرحمن. إن صديقنا الفقيه زين الدين اشترك مع المُتآمِرين ليأتينا بسِرهم، فهو أكثر الناس إخلاصًا لمصر ولصلاح الدين، وإنا نشكر لك غَيرتك، والآن أرجو أن تأذَنا لي حتى أذهب لصلاح الدين، فأُبلِّغه هذا الخبر الجديد، وأسأله العفو عن خشترين إكرامًا لك يا عبد الرحمن.

– شكرًا لك أيها القاضي. إن الرجل نادم غاية الندم، ومن الخير أن نعفو عنه فنكتسبه إلى جانبنا.

ونظر القاضي الفاضل إلى عبد الرحمن نظرةَ العالم بخفايا نفسه، وقال مُبتسِمًا: إن صلاح الدين يُقدِّر الإخلاص والوفاء يا عبد الرحمن، وسأطلب لك منه جائزة تقرُّ بها عينك وتبعث السعادة إلى نفسك.

دموع الفرح

انتهى عبد الرحمن من صلاة العشاء، وقام إلى كتبه فاختار من بينها كتابًا، وجلس قريبًا من ضوء الشمعة التي تُنير غرفته وحاوَل القراءة، غير أنه ظل مدة والصفحة أمامه لم تتغير ولم يفقَه لما فيها من معنًى؛ فقد كان شارد الذهن قلِق النفس، يُحاوِل أن يُعيد إلى نفسه الطمأنينة فما يستطيع، وإنه لَيذكُر الآن كيف وفدت ريحانة إلى داره في الصباح الباكر تحمل إليه هذا الخبر المُؤلِم الذي ملأه حزنًا وسلبه الهناء؛ قالت ريحانة إن أميرًا من أمراء الجيش الأيوبي تقدَّم — منذ شهر — للأمير شمس الخلافة يطلب يد فاطمة، فأجابه شمس الخلافة إلى طلبه، ولم تكد فاطمة تعلم بالخبر حتى رفضت وأصرَّت على الرفض، وأصرَّ والدها أن يُزوِّجها من الأمير، ومَلكَ الألم على فاطمة نفسها، فمرضت واشتد بها المرض، وهي لا تذكُر الآن وهي في غيبوبة الحُمَّى غير عبد الرحمن.

ألقت ريحانة لعبد الرحمن بهذه الأخبار، فاكتنفه الألم وتغلَّب عليه الحزن، وها هو ذا الآن يجلس في داره وحيدًا بعد أن خرج خشترين ليرى ريحانة، وينعم بالجلوس إليها في مكانٍ اتفقا عليه هذا الصباح.

وبحث عبد الرحمن فيمن حوله عن صديقٍ يُفضي إليه بسِره، ويسأله الرأي والنصيحة والعون فلمْ يجد، ففكَّر أن يذهب للسلطان صلاح الدين فيبسط له الأمر، علَّه يسعى لدى الأمير شمس الخلافة فيُقنِعه، ولكنه عاد يُسائل نفسه: وكيف أسعى إلى السلطان والذي يطلب فاطمة أمير من أمراء جيشه؟! وفكَّر أن يلجأ إلى الأمير شمس الخلافة نفسه، غير أنه أسرع فنفى هذا الخاطر عن نفسه قائلًا: ومن أكون أنا حتى يُفضِّلني الأمير شمس الخلافة على أمير ذي حَوْل وطَوْل وغنًى وجاه؟

وفكَّر أن يقصد القاضي الفاضل فإن له دالة على صلاح الدين وعلى الأمير شمس الخلافة، ثم إنه لا بد وأن يُقدِّر له سعيه في سبيل كشف المؤامرة، ولكن نفسه لم تقبَل هذا

الرأي وقالت: «وكيف تجرؤ أن تُحدِّث القاضي عن هذا السر؟ وماذا تقول؟ إنه موضوع شائك؛ فقد يسألك الفاضل: وما العلاقة بينك وبين فاطمة؟ فماذا يكون جوابك؟!»

وظل هكذا ردَحًا من الوقت يبحث عن الصديق، وكلما لمس الطريق التي يحسبها تُوصِّله إلى بُغيته انبرت له نفسه تُبيِّن له العقبات التي تملأ هذا الطريق وتسدُّ مَسالكه، وأخيرًا تنهد وقال: من لي بأبي الحسن الآن؟ إنه حلَّال المُعضِلات، وهو الرجل الذي أستطيع أن أكشف له عن خبيئة نفسي دون خوف أو حرج.

وطرأت عليه في الحال فكرة غريبة، فطوى الكتاب وقام يجمع مَلابسه، ولكنه سرعان ما نظر إلى الشمعة، فأدرك أن الوقت ليل، وكيف يستطيع السفر إلى دمياط ليلًا؟

وقضى عبد الرحمن ليله ساهرًا، وعاد خشترين، فتظاهَر بالقراءة حتى نام؛ كي لا يُثير شكوكه. فلما سمع أذان الفجر أسرع فصلَّاه في المسجد، ووضع ملابسه على البغلة وركِبها، وودَّع خشترين قائلًا: إلى اللقاء يا صديقي؛ فإني مُسافِر إلى دمياط لزيارة صديقي أبي الحسن وسأعود سريعًا.

واجتاز عبد الرحمن شوارع الفسطاط وشوارع القاهرة، واتجه شمالًا يقصد إلى دمياط، إلى صديقه أبي الحسن.

سبعة أيام طويلة طولَ الزمن كله، قضاها عبد الرحمن في طريقه إلى دمياط، يقضي يومه في المسير بحذاء النيل، ذلك النهر الخالد المُبارَك الغَدواتِ والرَّوحات، يحمل إلى أرض مصر وساكنِيها الرِّي والخصب والخير، وكان يسرح بصره فلا يقع إلا على بساط سندسي، كأنه — كما وصفه عمرو بن العاص — زبرجدة خضراء، لا تُؤنِسه في وحدته إلا أفكاره المُشتَّتة حينَ تُعجَب بما يرى، المُجمَّعة حينًا آخر حول فاطمة وحبه لها، وما يكتنف علاقتهما من ظلمات.

وفي صباح اليوم السابع بدَت له حصون المدينة وأسوارها وقلاعها تشرف عاليةً من بعيد، تحمي هذا الثغر من عاديات الزمن وغارات الإنسان، وتُرفرِف عليها أعلام صفراء، هي أعلام الدولة الأيوبية الجديدة، نُقِشت عليها جملتان هما جماع ما دعا ويدعو إليه الإسلام، هما رسالته إلى العالمين، هما اللتان حمَتا المدينة القديمة وتحميانها قبل أن تحميها هذه الأسوار والقلاع، هما: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله.»

وقرُب عبد الرحمن من المدينة، ودخل من أحد أبوابها، وجاسَ خلال شوارعها وأزِقَّتها.

وبحث وسأل حتى عرف دار أبي الحسن، فطرَق الباب وفتح له خادم عجوز، ودخل فاجتاز رحبة واسعة إلى غرفةٍ مُدَّت فيها أرائك كثيرة جلس على أحدها أبو الحسن، فتقدَّم

عبد الرحمن ولم يتمالك نفسه، فأسرع إلى الرجل الهرِم فعانَقه وقبَّله، وقد ارتفع صوته بالبكاء، وصاح أبو الحسن بعد أن وقف وفتح ذراعَيه فضمَّ إليه ضيفه العزيز، وقال: عبد الرحمن، ولدي. أهلًا، أهلًا. عبد الرحمن كيف أنت؟ وظل الرَّجلان يتعانقان ويُقبِّل كل منهما أخاه في لهفة وشوق، ثم جلس عبد الرحمن، وقال: كيف صحتك يا أبا الحسن؟ والله لقد أوحشتنا فما نُحِس للحياة طعمًا وأنت غائب عنا.

– بارك الله فيك يا بُني. إنني لا أستطيع أن أصِف لك فرحي بمَقدَمك. يا مرحبًا، يا مرحبًا.

ودار الحديث بين الرَّجلَين وقتًا طويلًا وأبو الحسن يسأل ضيفه عن القاهرة وأخبارها وعن الفسطاط ومسجدها وداره بها وأصدقائه واحدًا واحدًا.

ثم نظر إلى عبد الرحمن، وقال: إنني أقضي الأيام الباقية هنا مُرتاح البال مُطمئن النفس، وخاصة بعد أن علِمت أن الأمور الآن قد انتقلت إلى صلاح الدين، وأنه يقضي على الحيَّات التي تسعى لتنفُث سُمها. ولكن خبِّرني كيف فعل صلاح الدين بعمارة وصحبه؟

– لقد شنقهم واحدًا واحدًا على أبواب القاهرة.

فأطرق أبو الحسن، وقال: رحم الله عمارة وغفر له. لقد قتله المال.

فقال عبد الرحمن: في الحق أن عمارة كان قد تجرَّأ على صلاح الدين وأهله كثيرًا، وقد أنقذه القاضي الفاضل من الموت أكثر من مرة.

– أجل، إني لأذكُر كيف هجا عمارة تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخي صلاح الدين، بقوله:

عظَّمتما الأمر وفخَّمتماه ... ما ابن شاهنشاه إلا ابن شاه
ومن تكون الشاة أمًّا له ... فما يكون التَّيس إلا أباه

فغضِب تقي الدين، وأصرَّ أن يقتله، فأسرع عمارة إلى الفاضل، ودخل عليه داره وهو يصيح:

عبدَ الرحيم احتمِل صداعي ... فالرأس يعتاده الصداع

فضحك منه عبد الرحيم، وشفع فيه حتى عُفي عنه.

فقال عبد الرحمن: ولكنه لم يرتدع، بل ظل يتنقل في أنحاء القاهرة وهو يبكي الفاطميِّين بشِعر حلو جميل يُثير الشعور، ويُعرِّض ببني أيوب في شعره. استمع إلى قوله:

قد مات قومٌ وما ماتت مَكارمهم   وعاش قومٌ وهم في الناس أموات

ثم ضحك عبد الرحمن وقال: أتعرف يا أبا الحسن ماذا فعل عمارة بعد أن قبضوا عليه؟

– وماذا فعل؟

– طلب من الجنود أن يمرُّوا به على دار القاضي الفاضل كي يسأله العون والشفاعة لدى السلطان، فأجابوه إلى طلبه. فلما مرَّ بالدار دخل الفاضل وأغلق الباب، فأيقن عمارة بالهلاك، وقال:

عبد الرحيم قد احتجب   إن الخلاص من العجَب

ثم أراد عبد الرحمن أن يبدأ فيشكو همه إلى أبي الحسن ويبثَّه حزنه، ولكنه حار كيف يبدأ، وأحس قلبه يخفق خفقانًا شديدًا، فمدَّ يده ووضعها على قلبه وكأنه يُريد تهدئته، فأحس بالقلب الذهبي — الذي قدَّمته له فاطمة يوم خرج إلى الشام بالرسائل إلى نور الدين — تحت أصابعه، فأخرجه وأخذ يعبث به بين أصابعه، ولمح أبو الحسن شيئًا يبرُق في يد جليسه وهو ساكت لا يتحدث، فسأله: ما هذا يا عبد الرحمن؟

فارتبك عبد الرحمن، وقال: هذا قلب ذهبي. ومد يده فأعطاه لأبي الحسن.

وأمسكه أبو الحسن، وقرَّبه إلى نظره، وأخذ يُقلِّبه بين أصابعه، وهمَّ أن يقول شيئًا يُداعِب به عبد الرحمن، ولكنه جفل وهمَّ واقفًا كمن لدغته عقرب، وصاح: عبد الرحمن.

فذُعِر عبد الرحمن، وخشي أن يكون الرجل أُصيب بمكروه، فأسرع إليه وقال: لبَّيك يا أبا الحسن.

– من أين لك بهذا القلب؟

فلمْ يعرف عبد الرحمن العلاقة بين القلب وهذه الحالة التي طرأت على الرجل العجوز، وقال: لقد قُدِّم إليَّ كهدية من شخص عزيز عليَّ.

– ومن يكون هذا الشخص يا عبد الرحمن؟

ونظر عبد الرحمن فوجد الشيخ يبكي، فلمْ يستطِع كتمانًا، وقال: من فاطمة بنت الأمير شمس الخلافة، ولكن ما الذي أفزعك هكذا؟

فلمْ يُجِبه أبو الحسن، ولكنه جلس ورفع القلب إلى فمه، واندفع يُقبِّله في شوق ولهفة غريبَين، وارتفع صوته بالبكاء، فاشتدَّت حيرة عبد الرحمن، وقال: هوِّن عليك يا صديقي، وحدِّثني حديث نفسك؛ فإني أُحِس أنني أثَرتُ في نفسك همًّا دفينًا.

فكفكف أبو الحسن دمعه، وقدَّم القلب إلى عبد الرحمن، وقال: انظر إلى إطار القلب وحاوِل أن تقرأ ما عليه.

فنظر عبد الرحمن فوجد حروفًا مُنفصِلة فوصَلها وقرأها، فإذا بها: هديةٌ من علي المصري إلى حفيدته فاطمة. فقال: إنه معي منذ سافرت إلى الشام، ولكنني لم ألتفت إلى هذه الحروف، فما خبرها؟

– أجل، ما خبرها؟ آه لو كانت هي! فإن الله يكون قد رأف بي في شيخوختي، وعوَّضني خيرًا عن حزني الماضي الطويل. استمع لقصتي يا عبد الرحمن، فإني أُحِس أنك لا تفهم عني شيئًا: كانت أُسرتنا يا بُني في دمياط خيرة الأُسَر وأكبرها وأغناها، وكان جدي لأبي تاجرًا ذا تجارة واسعة، وكان سُني المذهب تقيًّا ورعًا كثير التديُّن، وحدث ذات يوم أن ثار النقاش بينه وبين فقيه شيعي من رجال الدولة الفاطمية، واحتدَّ الفقيه في نقاشه، فسبَّ جدي فلطَمه هذا على وجهه.

ونُقِل الخبر إلى الخليفة الحاكم بأمر الله، ذلك الرجل المُلتاث في عقله المُدعِي الألوهية، فأمر جنده في المدينة، فألقَوا القبض على جدي، وأُرسِل إلى القاهرة حيث قُتِل.

فقال عبد الرحمن: ولهذا كنتَ تكره هذه الدولة البائدة؟

– هذا سببٌ من أسباب كثيرة، فاستمع إلى بقية حديثي: تزوَّجتُ صغيرًا ووُلِد لي ثلاثة أولاد، مات اثنان منهم وبقي ثالثهم، وشبَّ الولد وكبِر وتزوَّج من بنت عمٍّ له كان يُقيم في قوص؛ ليُشرِف على شئون التجارة الصادرة عنا والواردة إلينا من اليمن، ورحل ابني ليعمل مع عمه في تجارته.

واشترى أخي يومًا جارية تركية جميلة، وكان له أعداء من رفاقه التجار؛ فسعَوا لدى شاور وهو والي قوص يومذاك، وبالغوا في وصف الجارية، وأغرَوه بأخذها، فامتنع أخي عن بيعها؛ فأضمرها له شاور، وحرَّض أناسًا اتهموا أخي لديه بمُهاجَمة المذهب الشيعي، والتعرُّض لَمقام الخليفة بالسب والإهانة؛ فقبض عليه وقتله وصادَر أمواله.

وخرج ابني من قوص هائمًا على وجهه ومعه زوجه وابنته، وشاء سوء الطالع أن يُهاجِمه وهو في الطريق جماعة من العُربان فيقتلوه ويسلبوه زوجه وطفلته فاطمة، أجل فاطمة التي أهديتُها هذا القلب يوم ولادتها، واشتدَّ بي الحزن فهاجرت دمياط، وعشتُ في

الفسطاط أقضي مُعظَم وقتي في مسجد عمرو، كما كنت تراني أتمنَّى لو أصاب الله هذه الدولة ورجالها بشواظ من نار فقضى عليها.

وثارت أحزان أبي الحسن وهو يحكي قصته فعاد إلى البكاء، وكان عبد الرحمن يُتابِع القصة في شوق شديد، ويعجب فيما بينه وبين نفسه: وما العلاقة بين هذا كله وبين شمس الخلافة وابنته؟

ونظر فرأى أبا الحسن يُقلِّب كفَّيه في حيرة شديدة، ويُحدِّث نفسه: تُرى هل تكون هي؟

فقال عبد الرحمن: تُريد أن تقول إن فاطمة بنت شمس الخلافة هي حفيدتك؟ وكيف يتفق هذا؟

– هذا ما لست أعرفه الآن، فلا بد من سفري إلى القاهرة.

ورأى عبد الرحمن الفرصة سانحة، فأفضى إلى أبي الحسن بما في نفسه، وأنه حضر إليه يستعينه ويطلب مُساعَدته.

فتهلَّل وجه أبي الحسن، وقال: والله لو كانت فاطمة حفيدتي فأنت خير زوج لها.

وأسرع الرجلان وتركا دمياط يُريدان القاهرة، ودخلا على صلاح الدين في دار الوزارة، فرحَّب بهما كل الترحيب، وفرح كل الفرح لرؤية صديقه أبي الحسن بعد هذه الغيبة الطويلة، ولما سمع قصتهما عجِب منها، وأرسل فاستدعى الأمير شمس الخلافة، وقصَّ عليه الرواية كلها، ولشَدَّ ما كانت دهشة الجميع عندما سمعوا شمس الخلافة يقول: إذن فاطمة حفيدتك يا أبا الحسن؛ فلتتخِذني ابنًا لك إذن.

فلمْ يتملك أبو الحسن نفسه من الفرح، وجرى نحو شمس الخلافة، وعانَقه وأخذ يُقبِّله، ويقول: أجل. أنت ابني، أنت ابني. ولكن كيف وصلت إليك فاطمة؟

– لقد تقدَّم إليَّ بها أحد الأعراب، فاشتريتها وربَّيتها إذ لم يكن لي أولاد، وإنها الآن لَأعزُّ عليَّ من كل ما أملك.

وانتقل الجمع إلى دار شمس الخلافة، ودخل الأمير إلى غرفة فاطمة، فمهَّد لهذه الأخبار المُفاجِئة تمهيدًا، ثم دُعي الجميع فدخلوا يتقدَّمهم أبو الحسن الذي أقبل على سرير المريضة، فقبَّلها وهو يقول: شفاك الله وعافاك يا ابنتي وابنة ولدي.

وكتب القاضي الفاضل عقد الزواج بين فاطمة وعبد الرحمن، وانطلقت الزغاريد تُجلجِل في أنحاء القصر، وتقدَّم عبد الرحمن بقلب خافق، فأمسك بيد فاطمة ورفعها إلى فمه فقبَّلها في صمت، ومشى صلاح الدين ليُهنِّئ أبا الحسن وشمس الخلافة، فوجدهما قد أدارا وجهَيهما يمسحان دموعًا طفرت من عينَيهما، هي دموع الفرح!

هنداوي